

سلسلة
عالم
الثقافة

2

بقلم

الأزرق بن علو

الشعر والحياة

الشعر والحياة

بقلم
الأزرق بن علُو

الناشر
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

الشعر والحياة





اسم الكتاب : الشعر والحياة

اسم المؤلف : الأزرق بن علُو

سنة النشر : 2008 م

رقم الإيداع : 21954 / 2007 م

الترقيم الدولي : 4 - 09 - 6240 - 977 - 978

الناشر

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

E-Mail: modern_qubaa@hotmail.com

الإدارة 16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم
الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس 02/22621365

محمول 0123140315 - 0123171722 - 0123171744

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

2008 م

إهداء



إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ
فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدْرُ
وَلَا بُدَّ لَيْلٍ أَنْ يَنْجَلِيَ
وَلَا بُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرَ

أبو القاسم الشابي



لهذه الأشياء. وسيجد أن التعريفين متكاملان، وضروريان لحياة الإنسان وراحته المادية والمعنوية، وأن الأوصاف الشعرية أقرب إلى قلب الإنسان، وأشد تأثيراً على مشاعره وسلوكه، وأطول بقاء في ذاكرته، وأكثر انتشاراً بين عامة الناس.

الشعر العربي تراث عريق، وثروة ثقافية تشمل جميع مجالات الحياة. إنه نبع فياض من تجارب الإنسان، وصور وشرائط تعرض علينا أساليب حياته ومنجزاته ونجاحه وفشله. والشعر مرآة تعكس لنا الظروف الاجتماعية، والتطورات التي مرَّ بها الإنسان العربي في حالة بدوه وحضره، ومجده وانحطاطه، وقوته وضعفه. ومرت القرون بأحداثها ومباهجها وآلامها، ولكن بقيت دواوين الشعر تعرض علينا سجلات ومشاهد ولوحات عن مختلف الحقب التي مرَّ بها المجتمع العربي في الشرق والغرب.

وتضم دواوين الشعر العربي، بين أحضانها الرحبة الثرية، أحاديث عن جميع أوجه النشاطات البشرية من العشق إلى الزهد، من المجون إلى دُرر الحكم والأمثال. ويحدثنا الشعراء عن الفرسان والصعاليك، والكرماء والبخلاء، والوفاء وإكرام الضيف واحترام الجار، وعن الطرب واللهو، والشباب والمشيب، وتقلبات الزمان، وعن الحياة والموت.

الشعر نفحة سحرية، ينفثها الشاعر الموهوب في الحوادث وفي الأشياء، فتنعش ويجري فيها ماء الحياة ونفسها. وينشئ لها من أفكاره خيوطاً وأنسجة توسع مجالاتها، وتربطها بحياة الإنسان ورغباته ومشاعره وآماله وطموحاته. الشعر نشيد الحياة وفاكهتها وعصيرها.

مقدمة

قال معاوية بن أبي سفيان ⁽¹⁾ «علموا أولادكم الشعر، فوالله ما ملكتُ الملك إلا به». وقال لي زميل ذات يوم: دعنا من الشعر، ماذا استفدنا منه؟ إنه كلام الأحلام والخيال، العلم هو أساس النجاح والحياة». أزعجتني هذه الملاحظة؛ غير أنها حفزتني على قراءة الشعر، وإعداد هذا الكتاب الذي أسميته ⁽²⁾ «الشعر والحياة»؟

من البديهي أن الحياة في أبسط أشكالها تتطلب الغذاء والهواء والماء والنور...، ولكن في المخلوقات العليا، ومنها الإنسان، تحتاج الحياة الراقية كذلك إلى الحب والعمل والمال، والعلم والفن وغير ذلك؛ لأن الإنسان مادة وروح، منطوق ومشاعر، معدة وفكر. والجواب على زميلي هو أن الشعر تناول جميع هذه الأمور ودواوين الشعراء، قديمهم وحديثهم، تزخر بالحديث عن حياة الإنسان، وعن الطبيعة بجوانبها المادية والمعنوية.

من يسأل ⁽³⁾ «ما فائدة الشعر؟» كمن يسأل ما فائدة البحر، والسحاب، والغابات، والطيور، والأعياد، والموسيقى. صحيح أن منافع العلم كثيرة ومزايها لا تحصى، ولكن الشعر شريك له، وليس منافساً. ومتى كان الفن مزاحماً للعلم؟ وإذا أزلنا الفن من حياة الإنسان، لا تبقى إلا صورة اللحم والعظم والدم.

أقترح على من يستخف بمزايا الشعر العربي أن يقرأ التعريف العلمي للقمر، لغروب الشمس، لزهرة، أو للعين والشفاه، على سبيل المثال لا الحصر؛ ثم يقارن هذه التعاريف بما ورد في أقوال الشعراء من أوصاف

يرسم الشاعر لوحات فنية، فيعرض علينا الطبيعة كما يشاهدها بوعيه وإحساسه العميق، فنلمس فيها نبضات الطبيعة، وتقلبات فصولها في أجمل صورها وألوانها ومباهجها، ونسمع موسيقى الحياة الكامنة في حركات أشجارها وزهورها وحشراتنا وطيورها، نغمات وأصوات تتبعث من أعماق الطبيعة، تطمئن الإنسان، تتعش النفس، تطرب العاشق، تسلي الكئيب، تحيي الذكريات وتبعث الأمل في قلوب الجميع.

ولعله من المفيد أن نترك المجال لعدد من الشعراء، ليحدثونا عن بعض آرائهم في الشعر.

يرى حسان بن ثابت أن الشعر مرآة لشخصية صاحبه، وأن أجمل الشعر ما كتب له البقاء لصدقه وانسجامه مع مسيرة الحياة:

وانما الشعر لب المرء يعرضه ♦♦ على المجالس إن كيساً وإن حمقا
وان أشعر بيت أنت قائله ♦♦ بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ويقول أبو تمام: إن من مزايا الشعر أنه أوضح لنا سبلا، ويبيّن لنا معالم، تساعد الطامحين على تحقيق ما يهدفون إليه من إنجازات عظيمة:

ولولا خلال سنّها الشعرُ ما درى ♦♦ بناء العلى من أين تُؤتى المكارم

وفي البيت التالي، يرى البحتري أن الشعر ينبغي ألا يُقيد بحدود المنطق والواقعية الضيقة:

كلفتمونا حدود منطقكم ♦♦ في الشعر، يكفي عن صدقه

وعندما تومض المعاني في فكر السرى الرفاء، لا يبقى عليه إلا أن يلبسها أحلى العبارات لتظهر القصيدة مثل الجواهر المضيئة على صدر الحسنة:

إذا ما المعاني أومضت لي بروقها ♦♦ وساعدها وشي الكلام المنمم
رأيت التهاب الحلي في جيد غادة ♦♦ ترائبها من تحته تتبسم

وجمع الأبيوردي بعض صفات الشعر في بيت فقال:

مؤسس مُطمع، قريب بعيد ♦♦ فهو أنس المقيم، وزاد الرفاق

ويرى الجرجاني أن الشعر الجيد يحرك مشاعر الممدوح، ويسلي المشتاق، ويهدئ ثورة الغاضب:

وما الشعر إلا ما استفز مُمدّحا ♦♦ وأطرب مشتاقا وأرضى مغاضبا

تجد النفوس في الشعر متعة تفوق ما تجده في زهور الربيع ورياضه ومروجه، لأن مباحج الشعر ونفحاته باقية ومتاحة لمن يطلبها في جميع الفصول.

يقول أحمد شوقي:

أين نُورُ الربيع من زهرِ الشعر ♦♦ إذا ما استوى على أفئانه

سرمدُ الحسن والبشاشة مهما

تلتسمه تجده في إبانه

ويقول حافظ إبراهيم إن الشعر يلبي رغبات الناس، فهو يحفز همم الطامحين، كما يستجيب لورع الزاهدين:

ففي الشعر حثُّ الطامحين إلى العُلا

وفي الشعر زهدُ الناسك المتورِّع

وفي الشعر إحياءُ النفوس وريُّها

وأنت لريِّ النفسِ أعذب منبع

ويلاحظ قارئ الأبيات التالية مدى الالتحام بين الشاعر الفتى أبي القاسم الشابي وشعره. إنه قطعة من أحشائه، ونشيد مشاعره، وعصير حياته:

أنت يا شعر فلذة من فؤادي ♦♦ تتفنى، وقطعة من وجودي

فيك ما في جوانحي من حنينٍ ♦♦ أبديٍّ إلى صميم الوجود

فيك ما في خواطري من بكاء ♦♦ فيك ما في عواظي من نشيد

والشعر، كما يراه الرصافي، لا بدُّ أن يذكي المشاعر، ويهيج لواعج الوجد، فنلمسه في دمعة العاشق، ونظرة العيون الساحرة، ونغمات المطرب، وصراخ الثكالي، وسجع الحمام؛ يقول الشاعر:

ومن ضحكاتِ الشعرِ دمعةُ عاشقٍ

بها قد شكا للوصلِ ما فعلَ الهجرُ

ومن لمعاتِ الشعرِ نظرةُ غادةٍ

بنجلاءٍ تسبي القلبَ في طرفها فترُ

ومن جمراتِ الشعرِ رنةُ ثاكلٍ

مُفجَّعةٍ أودى بواجدها الدهرُ

ومن نَفحاتِ الشعرِ ترجيعُ مطربٍ

تعاوَرَ مَجْرَى صَوْتِهِ الخَفْضُ والنَّبْرُ

ويرى محمد مهدي الجواهري أن الشعر، على الرغم من رقة ألفاظه وسلاسة أسلوبه، يجب أن يتحول إلى سلاح فتاك في يد المناضلين من أجل الحق والعدل وردع العدوان:

ومن عَجَبٍ أنَّ القوافي سوائِلا

إذا شُجِدَتْ للحَصْرِ فهي مَناجِلُ

وهُنَّ كماءُ المُرْنِ لُطْفًا ورِقَّةً

وهُنَّ إذا جَدَّ النَّضالُ مَعاولُ

ويتساءل إيليا أبو ماضي: هل الشعر إلهام، وحي، أم مجرد نفضات شياطين؟ ثم يجيب: كلا، بل منبع الشعر هو الإنسان بما ينسج من أفكار ولوحات شعرية هدية لأخيه الإنسان:

ما هُوَ الشعر؟ إنني ما رأيتُ اثنين إلا وفيه يختصمانِ

قالَ قومٌ: "وحيٌ ينزُّلهُ اللهُ"، وقومٌ: "نَفَثٌ من الشيطانِ"

ضلُّ هذا وذا، فما حفَرَ الإنسانَ شيءٌ للشعرِ كالإنسانِ

الأزرق بن علو

الشعر والحياة

القسم الأول

بين المتعة والسعادة



ملذات الحياة

ما أجمل ما قاله أبو بكر الكاتب (القرن الرابع)، في مجال دعوة الإنسان إلى اغتنام الفرص المواتية، للتمتع بملذات الحياة التي لا تؤذي المرء، ولا تتسبب في إيذاء الآخرين. وقد صدق في الدعوة إلى أن يأخذ المرء حظه من المتع المعنوية، والملذات الحسية.

يقول أبو بكر الكاتب:

وخيرُ عمر الفتى عمر يعيشُ بهِ ❖❖ مقسم الحال بين الجدِّ واللعبِ
فحظُّ ذلك من علم ومن أدبٍ ❖❖ وحظُّ هذا من اللذات والطربِ

وينصح بعض الشعراء الإنسان باغتنام الظروف المواتية، والاستمتاع باليوم قبل فواته، ما دامت الحياة صافية، وصروف الدهر غافلة.

يقول ابن الدهان النحوي في هذا المعنى:

بادرْ إلى العيش والأيام راقدة ❖❖ ولا تكنْ لصروف الدهر تنتظرُ
فالعمرُ كالكَأسِ يبدو في أوائله ❖❖ صفوا، وآخره في قعره كدرُ

وكما يُنصح المرء أن يكدَّ ويجتهد، وألا يؤخر عمل يومه إلى غده، ينصح كذلك ألا ينسى نصيبه من الدنيا. ويروى أنه عندما بلغ امرؤ القيس نبأ مقتل أبيه، قال: ((اليوم خمر، وغداً أمر)).

وقال يزيد بن معاوية:

خذوا بنصيب من نعيم ولذّة ❖❖ فكلُّ وإن طال المدى يتصرُّمُ
ألا إنَّ أهنا العيش ما سمحت به ❖❖ صرور الليالي والحوادث نُومُ

أما عمرو بن قنعاس المرادي فيعترف بصراحة بأنه لم يضع فرصة سانحة لينال نصيبه من متع الحياة؛ ويسجل لنا ذلك في أبيات ذات نغمات موسيقية وعبارات واضحة. وبعد أن يعدد مصادر لذاته يقول:

متى ما يأتني أجلي يجدني ❖❖ شبعْتُ من اللذات واشتقيتُ

ويذكرنا إبراهيم الغزي بأن أيام الهناء والصفاء لا تدوم، وساعات التمتع بطيبات الحياة قليلة، لأن الشباب زائل، فلم لا يسارع المرء إلى التمتع بالحياة، ما دامت حوادث الدهر غافلة:

خذُ ما صفا لك فالحياةُ غرور ❖❖ والدهرُ يعدل تارةً ويجورُ
بادرْ فإن الوقتَ سيفٌ قاطعُ ❖❖ والعمرُ جيشٌ والشبابُ أميرُ

زمن المرح والبهجة والهناء قصير وإن طال، وأيام الهموم ثقيلة طويلة ومضنية، لهذا يدعو ابن وكيع التَّيسِّي الناس لأنَّ يستيقظوا قبل فوات الأوان:

ذا العيشُ فافظنْ له وبادرُ ❖❖ من قبل أن يظنن الحمائمُ
وانعمْ فعام السروري عندي ❖❖ يومٌ، ويوم الهموم عامُ

وماذا يفعل المرء إذا أصبحت حياته رتيبة مملة، وبدأت جدوة نشاطه تخمد؟ لنستمع إلى نصيحة أبي الفتح البستي:

إذا خمدت أنوارُ نفسك فاعتمدْ ♦♦ لإشعالها خمساً غدتْ خير أعوانٍ
براح وريحانٍ وساق مُهْفَهَفٍ ♦♦ ونغمة ألحانٍ وطلعة إخوانٍ

وما رأيُ جميل صدقي الزهاوي؟ المرء يمر بهذه الحياة مرة واحدة، فلم يقف مكتوف اليدين، ولا ينتهز الفرص المتاحة ليمتع نفسه بطيبات الحياة:

لا تقفْ في وجه لذاتك مكتوفَ اليدين
أنت لا تأتي إلى دنياك هذى مرتين
واغتنم اللذات ما أعطتك دنياك يدا
فأنت لا تعيش في دنياك هذى أبدا
وأنت لا تعلم أين - سوف يأتيك الردى.

وهناك عبارة يكررها الشعراء في هذا المجال، ومفادها "بادر .. قبل فوات الأوان" لأن الزمن لا يقف، والفرصة لا تنتظر، وقد لا تتكرر، ومن هذا القبيل.

قول إيليا أبي ماضي:

قم بادر اللذات قبل فواتها

ما كل يومٍ مثل هذا موسم

ولنستمع إلى أحمد شوقي يدلي برأيه في الموضوع:

صفو أتيع فخذُ لنفسك قسطها

فالصفو ليس على المدى بمتاح

الأيام تطير، والعمر يطير معها. وكثيرهم الذين ألهاهم التكاثر، وانهمكوا في مشاغل الحياة وهمومها، وعندما أفاقوا اكتشفوا أنهم أهملوا جوانب هامة في حياتهم، مثل التمتع بالأسرة والبنين، والجوانب الفنية والمعنوية. ربما نجحوا في جمع الثروة، لكنهم لم ينفعوا غيرهم، ولم يتمتعوا بثمرات جهودهم.

يقول القاضي أبو محمد عبد الوهاب:

أليس من الخسران أن لياليا ♦♦ تمرُّ بلا نفع، وتحسب من عمري

ولا جدوى في أن يضيّع المرء الحاضر في التحسر على الماضي، ولا في الاستغراق في حسابات المستقبل، وحمل أعباء الغيب، لأن الأمر كما قال أحدهم:

ما مضى فات، والمؤمل غيبٌ ♦♦ ولك الساعة التي أنت فيها

ويعزف عمر الخيام على النغمات نفسها في رباعياته (ترجمة أحمد رامي، التي تغني أم كلثوم جزءاً منها): كرُّ السنين يدني الأجل، فاغتتم ساعات المتعة والبهجة، وانعم بالحياة .. ولا جدوى من أن يقضي المرء أيامه في التحسر والقلق. ومما جاء في هذه القصيدة:

فاجمع شتات الحظ وانعم بها ♦♦ من قبل أن تطويك كف الزمان

تعاقب الأيام يدني الأجل ♦♦ ومرها يطويك طي السجل

وسوف تفتنى وهي في كرها ♦♦ فاقض ما تغنمه في جذل
لا تشغل البال بماضي الزمان ♦♦ ولا بآتي العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته ♦♦ فليس في طبع الليالي الأمان

ومن الناس من يزرع تحت عبء الملذات الحسية، ومنهم من
يميل إلى المتع الفكرية والروحية، ومن يأخذ نصيبه من هذه وتلك.
ويرتبط الاختيار أحياناً بمرحلة العمر، وبميول الإنسان وهواياته، وبيئته
وحالته المادية.

يقول الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري:

مَتَّعْ شَبَابَكَ إِنَّ الْعَمَرَ أَطْوَارُ

وكلُّ طَوْرٍ لَهُ فِي الْعَيْشِ أَوْطَارُ

إِنَّ أَنْتَ لَمْ تَجْنِ مِنْ رَوْضِ الصَّبَا زَهْرًا

فَلَيْسَ فِي دَمْنَةِ الْأَيَّامِ أَزْهَارُ

أَمْوَالُ "رُطْبُلِدَّ" فِي الصَّحْرَاءِ لَيْسَ لَهَا

قَدْرٌ وَيَفْضُلُهَا فِي السُّوقِ دِينَارُ

وَقِيْمَةُ الشَّيْءِ مَقْدَارُ الْهَيْبَامِ بِهِ

فَإِنْ زَهَدْتَ فَمَا لِلْمَاسِ مَقْدَارُ

إِنْ كُنْتَ لِلرُّوحِ كُنْ لِلرُّوحِ مَشْتَغَلًا

أَوْ كُنْتَ لِلْجَسْمِ فَلْتَهْنَأْكَ أَقْدَارُ

ومن المفيد الإشارة إلى أمرين، أولهما أن قطعة شعرية لا تمثل
رأى الشاعر وأسلوب سلوكه طوال حياته؛ وثانيهما أن متع الحياة
وملذاتها أصناف وألوان، ولا تنحصر في مجالي اللهو والطعام والغناء
ومغازلة الغانيات. ففي العمل متعة عميقة إذا كان المرء يحب عمله؛
وفي الاستجمام متعة؛ وفي الصيد والقنص والمشاهد الطبيعية متعة؛
وفي خدمة الأيتام والمسنين متعة.

والمتنبى يرى أن خير جليس هو الكتاب، وأن أعز مكان هو
سرج فرسه. وهذا محمود سامي البارودي يخالف كثيراً من الآراء
عندما يقول:

سَوَايَ بِتَحْنَانِ الْأَغَارِيدِ يَطْرَبُ

وغيريَ بِاللذاتِ يَلْهُو وَيَلْعَبُ

وَمَا أَنَا مِمَّنْ تَأْسُرُ الْخَمْرُ لَيْتَهُ

وَيَمْلِكُ سَمْعِيهِ الْبِرَاعُ الْمُتَّقِبُ

الأنس واللهو

يحتاج الشاعر، كأبي إنسان، إلى الترويح عن نفسه والهروب، من حين لآخر، من أعباء الحياة ووقائعها الرتيبة. ومن لا يهرع إلى مجلس أنس أو سهرة مع الرفاق، في وسط الوجوه الجميلة والقنود الممشوقة، والألحان المطربة. وكأن للمأكولات والمشروبات لذة خاصة في جوّ الأحاديث اللطيفة والضحكات البريئة، جوّ البهجة والمتعة والسرور. وأورد ههنا أبياتاً من قصيدة لحافظ إبراهيم يصف فيها سهرة قضاها مع الرفاق:

بين أقداح وراح عُنُتت ♦♦ ورياحين وولدان وعين
وأجلنا الكأس فيما بيننا ♦♦ وعلى الصهباء بتنا عاكفين
وشفينا النفس من كل رشا ♦♦ نطقت عيناه بالسحر المبين
هكذا كنا بأيام الصفا ♦♦ نهب اللذات في الوقت الثمين

ويحث ابن المعتز المرء لكي يأخذ بنصيبه من الدنيا، ويتمتع بملذاتها قبل فوات الأوان، فيقول:

أما ترى أربعا للهو قد جمعت ♦♦ جنك وعود وقانون ومزمار
فخذ بحظ من الدنيا فلذتها ♦♦ تفنى، وتبقي روايات وأخبار

ويقول الشاعر السري الرفاء بصدد اللهو والتمتع بالحياة:

قم فانتصف من صروف الدهر والنوب

واجمع بكأسك شمل اللهو واللعب

والعيش في ظل أيام الصبا فإذا

ودعت طيب الشباب الغض لم يطيب

ولابن المعتز قصيدة تجاوز فيها بعض "الخطوط الحمراء"، كما فعل غيره من الشعراء، إذ يقول فيها ما مفاده أنه "لا عيش إلا للمستهتر الذي يهيم إلى كل ما يشتهي.."، ويتحدث في مطلع قصيدته عن "حلو الدلال" الذي سقاه خمرا فأطرب نفسه:

وحلو الدلال مليح الغضب ♦♦ يشوب مواعيده بالكذب
سقاني وقد سل سيف الصبا ♦♦ ح والليل من خوفه قد هرب
عُبارا إذا ما جلتهما السقا ♦♦ ألبسها الماء تاج الحب
فأصلح بيني وبين الزمان ♦♦ وأبدلني بالهموم الطرب

وتذكر معروف الرصافي ليالي أنس وطرب، قضاها في أحد النوادي مع رفاقه، تطوف عليهم في سهرتهم ذات القد الجميل والصوت الرخيم، بشراب يشرح النفوس، ويطرد هموم النهار:

يطوف عليهم رشا رخيماً

يغازل مقلتيه فم الثماس

براح فيك تبتعث ارتياحاً

وتتسيف طود همةك وهو راسي

تُمِيتُ هُمَومَ شَارِبِهَا سُرُورًا
فَتَدْفِنُهُنَّ فِي حُفْرِ التَّنَاسِي.

مغنيات

من أجمل ما قرأت من الشعر في وصف مغنية قصيدة ابن الرومي "وحيد": نَفْسٌ مديد، عذوية ساحرة، لا يبدو عليها العناء، لا تكثر من الحركة بل تغني في هدوء، فهي في حسنها ودلالها ورقة صوتها فتنة. ومما جاء في هذه القصيدة:

تتغنى كأنها لا تغني ❖❖ من سكون الأوصال وهي تجيد
مدًّا في شأو صوتها نَفَسٌ كا ❖❖ في كأنفاس عاشقها مديد
وأرقُّ الدُّلالُ والغنجُ منه ❖❖ وبراء الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا ❖❖ مستلذُّ بسيطه والنشيد
في هوى مثلها يخفُّ حلِيمٌ ❖❖ راجحُ حلمه ويفوي رشيد
خُلقت فتنةً غناءً وحسنًا ❖❖ ما لها فيهما جميعاً نديد

ولا تقلُّ المغنية التي يصفها أبو نواس جمالاً وفتنة عن سابقتها (مغنية ابن الرومي)، فلا شك أن وجهها، بل مظهرها كله يتلألأ حسنًا ونورا وسناء، مما جعل الشاعر يخفف من النظر إليها أحياناً:

ما بَرَاها الله إلا فتنةً حين بَرَاها

تنثر الدرَّ إذا غنَّت علينا شفتاهَا

وأرى للعود زهوا حين تحويه يداها

ربما أغضيتُ عنها بصري خوف سناها

وقد يتأثر المستمع بصوت المغنية حتى وإن لم يفهم ما تقول، هذا ما يشير إليه أبو تمام في الأبيات التالية:

وَمُسْمَعَةٌ تَفُوتُ السَّمْعَ حَسَنًا ❖❖ ولم تُصِمْه، لا يُصَمِّمُ صداها
مَرَّتْ أوتارها، فشجت وشاقت ❖❖ فلو يَسْطِيعُ سامعُها فداها
ولم أفهم معانيها، ولكن ❖❖ ورَّتْ كبدي، فلم أجهل شجاها
فبتُّ كأنني أعمى مُعْنَى ❖❖ يُحِبُّ الغانياتِ، ولا يراها

ومما يدل على مهارة المغنية (والمغني) أن تكون قادرة على إثارة مشاعر الابتهاج والنشوة لدى السامعين حيناً، ومشاعر الشوق والشجا، وإذكاء لواعج الهوى طورا. وهذا ما نلمسه في قصيدة لمعروف الرصافي عنوانها "إلى أم كلثوم" ومنها الأبيات التالية:

كم سقتنا كأس السرور بلحنٍ ❖❖ وبلحن كأساً من الأشجانِ
تفهم الروح منطلق الحب مما ❖❖ تتغنى به بلا ترجمانِ
فكأنَّ الأنغامَ في الصوت منها ❖❖ ناطقات لنا بغير لسانِ
تسترقُّ القلوب منا بصوتٍ ❖❖ نعبد الحسنَ منه بالأذانِ
كل لحن إذا سمعناه منها ❖❖ دبَّ فينا ديب بنت الحانِ
في وقار الحلیم تجعلنا طورا ❖❖ وطورا في خفة النشوانِ
وترانا نهترُ حين تغنيّ ❖❖ فكأننا في حالة الطيرانِ
وكان الأرواح إذ تتعالى ❖❖ طريا - جرّدت من الأبدانِ

الخمير

أسهب الشعراء في الحديث عن الخمر، وأكتفي في هذه الصفحات بتسجيل أبيات تصف بعض آثارها على شاربها، وتحثُّ على عدم تناولها. ومن آثارها أنها تجعل البخيل يبذل المال بسخاء،

كما يقول عمرو بن كلثوم:

تَرَى اللَّجْرَ الشَّحِيحَ إِذَا أَمَرَّتْ ❖❖ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهَيَّنًا

ويخبرنا الأخطل كيف كان يرى نفسه عندما يشرب ثلاث زجاجات:

إذا ما نديمي علّني ثم علّني ❖❖ ثلاث زجاجات لهنّ هديرُ
جعلت أجرّ الذيل مني كأنني ❖❖ عليك أمير المؤمنين أميرُ

ويصف حالته مرة أخرى فيقول:

وإذا سـكـرتُ فـإنـني ❖❖ ربُّ الخورنقِ والسدير
وإذا صـحوتُ فـإنـني ❖❖ ربُّ الشويهة والبعير

ومنْ أبدع في الحديث عن الخمر من أبي نواس؟

فهو يقول:

بها ديبُّ في العظام كأنه ❖❖ قبض النعاس وأخذه بالمفصل

والدافع الأول الذي يجعل بعض الناس يشربون الخمر هو أنها تطرد الهموم وتجلب المرح.

يقول أبو نواس:

تفعل في الصدر بالهموم كما ♦♦ يفعل ضوء النهار بالظلم

ويقول:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ♦♦ لو مسها حجر مسته سراء

وإذا كانت الأفعال تنصبُ الأسماءَ، وتجرُّها وترفعها، فكذلك تأثير الخمر على العقل.

كما يقول أبو تمام:

خرقاء يلعب بالعقول حبابها ♦♦ كتلاعب الأفعال بالأسماء

وله وصف آخر جميل لما يشعر به شاربها:

إذا هي دبَّت في الفتى خال جسمه

لما دبَّ فيه قرية من قرى النمل

ويؤكد ابن الرومي أن التأثير الرئيسي للخمر هو كونها تطرد الكرب وتعيد للعيش صفاءه:

تردُّ صفاء العيش مثل صفائها

وتكشف عن ذي الكرب غاشية الكرب

ويصف ابن الرومي حالة التدهور التي تصيب السكران، فيصبح غير قادر على التوازن المعتاد، فيقول:

إذا ما تمشئت في عظام ابن كُبرة

مشى لَيِّن الأوصال رخوَ المفاصل

ويذكر إيليا أبو ماضي عددا من المناسبات والظروف التي يتناول فيها الناس الخمر، ومنها: الشعور بالغم والوسواس؛ في حالة النجاح؛ في حالة الفشل؛ لينسى المرء هموم الماضي وذكرياته؛ ليستعيد هذه الذكريات؛ ليزيد قُوته؛ ليحل مشكلة؛ لأنه بدون عمل؛ لأنه مغرم بالتي تبيعها؛ انتقاماً ممن منعه من تناولها؛ لأنه تعود على شربها .. الخ.

ويختتم أبو ماضي قائلاً:

فما وجدت في زماني رجلاً ♦♦ وقلت: هل تحبُّها؟ فقال: لا
وسرُّ هذا أنها كالدينا ♦♦ تؤذي ولكن مع أذاها تُهوى

ومن المفيد الإشارة كذلك إلى بعض الشعراء الذين ذموا تناول الخمر، واعتبروها من أكبر الشرور. ويؤكد قيس بن عاصم المنقري مساوئ الخمر، ويقسم إنه لن يتناولها، ولن يستعملها علاجاً:

رأيتُ الخمر منقصة وفيها ♦♦ مقابح تفضح الرجل الكريمًا
فلا والله أشربها حياتي ♦♦ ولا أشفى بها أبداً سقيماً

ويجيب أبو محجن الثقفي الذين شجعوه على تناولها فيقول: ألا يكفيكم أنها تُزِلُّ الرجل وتسلب لُبّه، وتجعل الحليم سفيهاً:

التدخين

يرى معروف الرصافي أن التدخين يأتي في المرتبة الثانية، بعد الخمر، بالنسبة لما يلحق بالفرد من أضرار صحية واجتماعية:

إِنَّ الدِّخَانَ لَثَمَانٌ فِي البَلَاءِ إِذَا

مَا عُدَّتِ الخَمْرُ أَوْلَى فِي البَلِيَّاتِ

إِنْ كَلَّفْتَنِي السَّكَارَى شَرْبَ خَمْرَتِهِمْ

شَرِيتُ، لَكِنْ دُخَانًا مِنْ سِكَارَاتِي

ثم يقارن بين ((الخمر ..)) و((اللهيب ..))، ويؤكد أن السجائر والخمر سم يدمر صحة الإنسان، فيقول:

إِنِّي لِأَمْتَصَّ جَمْرًا لُفًّا فِي وَرَقِي،

إِذْ تُشْرَبُونَ لَهِيْبًا مَلءَ كَاسَاتِي

كَلَاهُمَا حُمُقٌ يَفْتَرُّ عَن ضَرَرِي،

يَسُمُّ مَنْ دَمِنَا تَلِكَ الكُرِّيَّاتِ

ويبيد الشاعر القروي، سليم الخوري، تدمره من جو اللقاءات والسهرات بسبب كثرة التدخين، ويقر بأن من يجالس المدخنين يصيبه ما يصيبهم من ضرر:

يَقُولُ أَنَاسٌ اشْرَبُوا الخَمْرَ إِنَّهَا

إِذَا القَوْمُ نَالُوهَا أَصَابُوا الغَنَائِمَا

فَقُلْتُ لَهُمْ: جَهْلًا كَذَبْتُمْ أَلَمْ تَرَوْا

أَخَاهَا سَفِيهًا بَعْدَ مَا كَانَ حَالِمًا

وَأَضْحَى وَأَمْسَى مُسْتَخْفًا مُهَيِّمًا

وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَرَى المِرَّةَ هَائِمًا

ويذكر أبو العلاء من يحتاج إلى التذكير بأن الخمر عدوة، تلقاك بالبشاشة (ألوانها الزاهية)، وتأخذك باللطافة تدريجياً حتى تجعلك عبداً مطيعاً. بعد ذلك تنزع عنك ثيابك، وتسلب مالك، وتشعل نيران الفتنة بين الأقارب والأصدقاء:

عدوة لب سلّت السيف واعتلت ♦♦ به القوم إلا أنها لم تضارب

فما أبعدت إلا أجلّ مقارن ♦♦ ولا بلغت إلا خسيس المآرب

تعري الفتى من ثوبه وهو غافل ♦♦ وتوقع حرب الدهر بين الأقارب

والخمر تسلب همّة المدمن عليها وماله وروحه، وتتهك صحته وتحطم كرامته.

يقول إيليا أبو ماضي:

شَرُّ الشَّرَابِ الخَمْرُ يُصْبِحُ صَبُهَا ♦♦ قَيْدَ الضَّنَى وَيَبِيْتُ رَهْنِ خِبَالِ

يَا سَالِبَ الأرواحِ بَعْضَ تَرْفُقِي ♦♦ يَكْفِيكَ أَنَّكَ سَالِبُ الأموالِ

أودع صَفوي حين أذعى لمجلىس

فوافزعي من جوتلك المجالس!

أبش لجلاسي وأقضي حُقوقهم

ويُعمي عيوني بالدخان مجالسي

فلم أر كالتدخين في الضرّ عادةً

مقارِبها يُؤذي بها كالممارس

ونلاحظ أن سليم تقلا يتبني "الرأي السائد" فيما يخص عادة التدخين، فيرفض نصيحة الناصحين، ويعقد العزم على "ألا يطلق عشيقته".

يقول سليم تقلا:

عدل التدخين قوم قد رأوا ♦♦ بيدي سيكارة أعشقتها

قال دعها فهي سم نافع ♦♦ قلت لا والله لا أعتقها

إن تكن سماً فإني محرق ♦♦ شرها بالنار إذ أحرقتها

وعليه فاعذوا أو فاعذروا ♦♦ فعلى الحالين لا أطلقها

إن حلالاً أو حراماً شرِبها ♦♦ فأنا الصب الذي يغشقتها

وعثرت على بيتين لابن النحاس يزعم هو الآخر أن التدخين عون له على ما يعتلج في أحشائه من لوعة الحب:

وأرى التولع بالدخان وشربه ♦♦ عوناً لكامن لوعة الأحشاء

فأديم ذلك خوف إظهار الجوى ♦♦ فأشوبه بتنفس الصعداء

القهوة

أرسل الشاعر مسعود سماحة، إلى إيليا أبي ماضي، قصيدة مصحوبة بكمية من البن.

ومما جاء في هذه القصيدة:

♦♦ أدزها قهوة كمصير بكر ♦♦ تجلت في الكؤوس بكف بكر

♦♦ كأن المسك يغلي حين تغلي ♦♦ ويجري في الأواني حين تجري

♦♦ تعيد إلى الضعيف قوى وتهدي ♦♦ إليه غبطة وصفاء فكر

♦♦ نعيشها الشعوب فكل شعب ♦♦ أعد لها الثغور وكل قطر

♦♦ تلوح حبها في كل كوخ ♦♦ ولاح حبابها في كل قصر

♦♦ يذوق عبيرها برمال نجد ♦♦ ويبقى عطرها بقصور مصر

فأجابه أبو ماضي بقصيدة يشكره على هديته، ويتحدث فيها عن القهوة.

ومما جاء في هذه القصيدة:

♦♦ شربناها على سر القوافي ♦♦ وسر الشاعر السمع الأبر

♦♦ سقانا قهوتين "بغير من" ♦♦ عصير شجيرة وعصير فكر

♦♦ ونرشفها فنرشف ريق خود ♦♦ وننشقها فننشق ریح عطر

- ولا نخشى من الحكام حداً ♦♦ وشرب الخمر نكر أي نكر
 وليست تستخف أحَا وقَار ♦♦ وبنْت الدن بالأحلام تزري
 وتحفظ سرَّ صاحبها مصوئنا ♦♦ وبنْت الكرم تفضح كلَّ سرَّ
 وللصهباء أوقات، وهذي ♦♦ شرابُ الناسِ في حرِّ وقرِّ

القبلة

قد يختلس الشاعر قبلة على عجل، عند لقاء الحبيبة، خشية الرقيب، فلا تطفئ ظمأه ولا تشفى غليله، ويبيت أحياناً يلثم الحبيبة مطمئناً، ويقول بعد ذلك إن لقاءه زاد ناره لوعته اضطراراً.

قبلات على شعر الحبيبة الناعم، على خدها العطر، على النحر والمعصم... المسواك رحيق، والشعر در وعقيق، والشفتان فاكهة لذيذة، ريق الحبيبة شهد، ويغمر جو اللقاء عناق يزيد لوعة الحب اشتعالاً. نستمع إلى ابن الرومي يؤكد لنا ذلك:

وألثمُ فهاكئُ تزولُ حرارتى

فيشْتد ما ألقى من الهيمانِ

ولم يك مقدار الذي بي من الجوى

ليشفيه ما ترشف الشفتانِ

ولم يسعف الحظ أبا نواس مرة فاكتفى بتقبيل ما بقى من تفاحة:

وكلماء عَضُّ تفاحة ♦♦ قبلتُ ما بقى من عَضَّتِهِ

وهذا بشار بن برد يشبه ريق الحبيبة بطعم الخمر، ويتمنى أن يحتل مكان المسواك:

لما أتاني على المسواك ريقتها

مثلوجة كزلال الماء بالراح

قبلت ما مسّ فها ثم قلت لها

يا ليتنى كنتُ ذا المسواك يا صاح

و (يشرب) الشريف الرضى قبلا كثيرة غير أنها كانت على عجل ووجل:

وَكَمْ شَرِينَا عَلَى الْأَيَّامِ مِنْ قُبَلٍ ♦♦ خَوْفَ الرَّقِيبِ كَشْرِبِ الطَّائِرِ الْوَجَلِ .

أما ابن حمديس فكان أحسن حظا، إذ بات يقبل الحبيبة حتى أطفأ نار أشواقه:

بت منها مستعيداً قبلا ♦♦ كان لي منها على الدهر اقتراح
وأروى غلل الشوق بما ♦♦ لم يكن في قدرة الماء القراح

وهذه ولادة تقول إنها لا تبخل بقبلاتها على عشاقها:

أنا والله أصلح للمعالي ♦♦ وأمشي مشيتي وأتية تيهها
أمكن عاشقي من صحن خدي ♦♦ وأعطي قبلي من يشتئها.

و (يوصى) ابن سناء الملك قبلته بما ستفعل عندما تلمس الحبيبة، متجولة من نحرها إلى خدها إلى ثغرها:

يا قبلي إن أتيت النحر فاستتري ♦♦ بالعقد، واكتمني بالمسك واحتبسي
وإن مررت بذاك الخد فاختلسي ♦♦ للشمس شعلة نور منه واقتبسي
وإن عبرت على التأشير أو لعس ♦♦ عومي، وفي ماء ذاك الريق فانغمسي

ونيران لوعة الراوندي القاساني لا تطفئها القبل، بل تزيد شعلة حبه، لأن هذه القبل مثل الريح، توجج لواعج العشق:

ألم ترني أعالج نار شوقي ♦♦ بمعسول من القبل الحرار
فليس يزيدنا إلا اضطراماً ♦♦ بعيد الغور متصل الشرار
وقدماً قيل: "إن اللثم ريح" ♦♦ كذاك الريح تُضرم كل نار

ويصف إبراهيم ناجي العلاقة الحميمة التي تخلقها القبل بين الحبيبين فتُفضي الأسرار، وتتعمق مواثيق الهوى، ويبوح كل حبيب بما في فؤاده من تبايح الجوى:

إذا كنت في شك سلي القبل التي

أذاعت من الأسرار كل دفين

مناجاة أشواق، وتجديد موثقي

وتبديد أوهام، وفض ظنون

وشكوى جوى قاسي، وسقم مبرح

وتسفيد أصفان، وصبر سنين!

وماذا يفعل المرء إذا أنكرت حبيبته أنه قبلها؟ فليفعل ما فعل على محمود طه، إذ قال لها: لا بأس، تعالي نجرب من جديد. لقد رحبت بالفكرة، ولكنها قررت أن تغمض عينيها حتى لا تشاهد (فعلته السوداء):

فإن شئت أرجعتها ثانية

مضاعفة للفهم المنعم

فقالَت وغمضت بأهدابها

إذا كان حقاً فلا تحجم

سأغمض عيني كي لا أرا

ك وما في صنيعك من مآثم.

الجمال الأسود

تغني الشعراء بجمال المرأة السوداء، وشبهوها بالمسك والعنبر والكافور، وبهدوء الليل. وأعجب بشار بن برد بجارية سوداء فقال واصفا جمالها:

كأنما صيغت لمن نالها ❖❖ من عنبر بالمسك معجون

ويصف ابن الرومي ابتسامتها بأنها لآلئ تلمع في ظلام، أو نور الفجر ينسكب في غسق الدجى:

يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنِ يَقَقِ ❖❖ مِنْ تُعْرِهَا كَاللَّائِي النَّسَقِ
كَأَنَّهَا وَالْمِزَاجُ يُضْحِكُهَا ❖❖ لَيْلٌ تَقْرَى دُجَاهَ عَن فَلَقِ

ويصرح العباس بن الأحنف بحبه لامرأة سوداء، مدللاً على أنها مثل الليل مصدراً للراحة، ومثل المسك مصدراً للطيب، فيقول:

فجئني بمثل المسك أطيّب نكهةً

وجئني بمثل الليل أطيّب مرقدًا

ويقول صرّدرّ إن الناس إنما يؤرخون الزمان بالليالي تقديراً لجمالها، وإن القمر ينكسف رغبة في محاكاة حسن منظرها:

علقنّها حمّاءً مصقولةً ❖❖ سوادُ قلبي صفةٌ فيها

ما انكسف البدرُ، على تمّه، ♦♦ ونوره إلا ليحكيها
لأجلها الأزمان أوقاتها ♦♦ مؤرّخات بلياليها

ويقول ابن رشيّق للجميلة السوداء، يحق لك أن تفتخري بجمالك
على المرأة بيضاء البشرة، فالنور ينبثق من السواد:

تيهي على البيض واستطيلي ♦♦ تيه شبابي على مشيب
ولا يرعك اسوداد لون ♦♦ كقلة الشادن الربيب
فإنما النور عن سواد ♦♦ في أعين الناس والقلوب

ويزيد السوداء جمالاً بياض أفعالها؛ ألا ترون أن جمال العيون في
سوادها، بل إن الكافور يحسد المسك الذي أخذ من سوادها، هذا ما
يقوله أبو الفتح الإسكندري:

رُبَّ سوداء وهي بيضاء فعل ♦♦ حسد المسك عندها الكافور
مثل حب العيون يحسبه ♦♦ الناس سواداً وإنما هو نور

ويقول أحدهم إذا كنتم تكتفون بعشق السواد في العين والشعر،
فإني أعشقه في جسم الحبيبة بكاملها:

أصبحتُ أعشق من وجهٍ ومن ♦♦ ما يعشق الناس من عينٍ ومن
فإن حسبت سواد الجلد منقصة ♦♦ فانظر إلى سفعة في وجنة القمر

ويتغنى محيي الدين صابر بإنسانة سوداء، ببساطتها وجمالها
الطبيعي، بابتسامتها ودلالها، ثم يقول:

كَانَ لِي فِي الْبَيْضِ وَالشُّقْرِ، وَفِي الصُّفْرِ مَعَانِي

غَيْرَ أَنِّي بِكَ يَا سَوْدَاءُ أُدْرِكُ الْأَمَانِي
أَنَا فِي إِفْرِيقِيَا، كَاسِي وَكَرْمِي وَدِرْنَانِي .

نوادير

يشتمل الشعر العربي على مجموعات من النوادر والملح والحكايات المسلية، والصور الشعرية الكاريكاتورية التي عبّر عنها أصحابها بدقة وذكاء، وأحياناً بصراحة عميقة. ولا شك في أن الترويح عن النفس، بالأساليب الممتعة البريئة، يجدد نشاط الإنسان، وينقذه من الملل ورتابة الحياة.

مثل شاعر أمام الخليفة المتوكل ليمدحه، فقال:

أنت كالكلب في حفاظك للودِّ

وكالتيس في قراع الخطوبِ

أنت كالذئب لا عدمنك دلواً

من كبار الدلا كثير الدنوبِ

كان هذا الشاعر هو عليّ بن الجهم، وقد قدم من أعماق البادية حيث الكلب مثال في الوفاء، والتيس في مقارعة الخصوم. وأدرك الخليفة حسن نية الشاعر فأحسن إليه.

أما صاحب الأبيات التالية فهو رجل صريح جداً، وجبان جداً لدرجة أنه لو رأى في المنام سلاحاً لفعّلها في فراشه؛ وهو بطل مقدم ومهاجم مغوار إذا قدمت له أطباق الأكل اللذيذ:

أرى في النوم رُحماً أو سناناً ♦♦ فأسلح في الفراش على مكاني
ولكني المبارز حين أدعى ♦♦ إلى أكل العصيدة والفراني
تراني عندها ليثاً نظيراً ♦♦ إذا ما اصطك مني الماضغان
أشدُّ على الخبيصة لا أبالي ♦♦ بأي جنوبها وقعت بناني
وكم طبق رَدَدْتُ وليس فيه ♦♦ من البقل المحصل حبتان

ويصف إبراهيم ناجي رجلاً أكلوا اسمه "غنيم"، وكيف هجم على ديك يلتهم أجزاءه، فيقول:

بصرتُ به والصحن بالصحن يلتقي

فلم أر أبهى من غنيم وأظرفاً

ترأى له لحم فلم يدر عنده

تديك من بعد الطوى أم تحرفاً

وقدمته للديك وهو كأنما

يطير إليه واثباً متلهفاً

فمال على الورك الشهي ممزقاً

ومال على الصدر النظيف منظفاً

وقال أحدهم في رجل تزوج امرأة لما وجد عندها من أثاث جميل:

رأيت أثنائها فطمعت فيه ♦♦ وكم نصبت لغيرك بالأثاثِ

فصير أمرها بيدي أبيها ♦♦ وسرّخ من جبالك بالثلاثِ

والأفالسّلام عليك منّي ♦♦ سأبدأ من غدٍ لك بالمراثي

لقيَ المتنبى رَجُلَيْنِ تعاونَا على قتلِ جردِ، فسألَهُما متَهَكِما:
وَأَيُّكُما كانَ منَ خلفِهِ ❖❖ فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الدَّنْبِ

وقال أحمد شوقي في جسر خشبي قديم:

أمير المؤمنين رأيت جرسراً
أمرُّ على الصراط ولا عليه!
له خشب يجوع السوس فيه
وتمضي الفأر لا تأوى إليه

وقال أبو نواس في بخيل:

سَيِّانَ كَسَرَ رَغيفَهُ ❖❖ أَوْ كَسَرَ عَظْمَ منَ عَظَامِهِ
فَارْفُقْ بِكَسَرِ رَغيفِهِ ❖❖ إِنْ كُنْتَ تَرغِبُ فِي كَلامِهِ

وقال سبط بن التعاويذي يصف بطيخة:

رُبَّ صَافِراءَ أَتَتُنَا ❖❖ وَهِيَ فِي أَحسَنِ حُلِّهِ
تَمْتَرِيها صُفْرَةٌ فِي ❖❖ لَوْنِها منَ غَيرِ عِلِّهِ
حُلُوهُ الرِيقِ، حِلالٌ ❖❖ دَمَها فِي كُلِّ مِلِّهِ
نَصفِها بِبَدْرٍ، وَإِنْ ❖❖ قَسَمَها فَهِيَ أَهْلِهِ

لقي رجل بشار بن برد ذات صباح فسأله مالي أراك مهموماً؟ فقال
الشاعر: جاءني حماري في المنام فسألته: لماذا مت؟ ألم أكن أحسن إليك.
فأجاب الحمار:

سَيدي خَذِبي أَتاناً ❖❖ عَندَ بابِ الأَصبِهانِي

تيممتني ببنيانِ ❖❖ وبيدٌ قد شجاني
تيممتني يوم رحنا ❖❖ بثاياها الحسان
وبفنج ودلال ❖❖ سلّ جسمي وبرانني
ولها خدّ أسيل ❖❖ مثل خد الشيفراني
فلذا مت ولو عشت إذا طال هواني

المزاح

إذا كان هدف المزاح بريئاً، يتناول الأشياء، لا الأشخاص والأقرباء والأصدقاء، ويلتزم صاحبه بحدود اللياقة والاحترام، وأن لكل مقام مقال، عندئذٍ يكون من باب الترويح عن النفس. وهذا ما يعنيه أبو فراس الحمداني في قوله:

أروح القلب ببعض الهزلِ ❖ ❖ تجاهلامي، بغير جهلِ
أمزح فيه، مزح أهل الفضلِ ❖ ❖ والمزحُ، أحياناً، جلاءُ العقلِ

وقد لاحظت أن معظم المقطوعات الشعرية التي عثرتُ عليها تحذر من مغبة المزاح الذي يقلق الأصدقاء ويزعج أهل الفضل، ويثير الأحقاد. قال السري الرفاء:

وتكشف أسرار الأخلاء مازحاً ❖ ❖ ويا رُبَّ مزح عاد وهو ضغائن

ويؤكد شاعر آخر هذا المعنى، وينصحنا بمراعاة مشاعر الآخرين:

مازح أخاك إذا أردت مازحاً ❖ ❖ وتوق منه في المزاح جِماحاً
فلربما مزح الصديق بمزحةٍ ❖ ❖ كانت لِيَابِ عداوةٍ مفتاحاً

ويتحدث محمد الوراق عن سلوك بعض الأشخاص من ذوي

النية السيئة، إذ يبيحون لأنفسهم، تحت ستار المزاح، أن ينطقوا بعبارات مزعجة، ويوجهوا انتقادات مقصودة، فإذا لاحظوا "ثورة" الشخص المقصود إهانتته، برروا أقوالهم "بأنهم كانوا يمزحون". يقول محمد الوراق:

تلقى الفتى يلقي أخاه وخذنه

في لحن منطقته بما لا يُغْفَرُ

ويقولُ كنت مماًزحاً وملاعبياً

هيهات نارك في الحشى تستسعرُ

أو ما علمت، ومثل جهلك غالبُ

أنَّ المزاح هو السَّبَابُ الأصْفَرُ

ولكن يوجد صنف آخر من الناس. قد تطلب شيئاً من صديق أو زميل أو قريب، أو تقص عليه حدثاً لهدف ما، فإذا عجز في مهمته، أو تطورت الأمور تطوراً سلبياً، واجهك بقوله: "إنما ظننت أنك كنتَ تمزح". وقد استنكر شاعر هذا السلوك بقوله:

وحسبك من سفه أنني ❖ ❖ أجدُّ وتحسبني ألعبُ.

ذكريات وحنين

يحن أبو نواس إلى أيام مضت، فيتذكر الأحباب والأصدقاء،
ويذكر كيف فرق الزمان أهل الديار، وأتت السنون على ما كان فيها من
أنس ودفء وبشاشة.

يقول أبو نواس:

يا دار ما فعلت بك الأيام

لم تبق فيك بشاشة تستام

عرم الزمان على الذين عهدتهم

بك قاطنين، وللزمان عرام

وتعاود البحري ذكريات الأيام السعيدة التي قضاها بالقرب من
علوة، والليالي الطيبة التي تمتعنا فيها بساعات الأنس والحب والعناق
والقبلات، فيقول:

تَاءت دَارُ عَلْوَةٍ بَعْدَ قُرْبٍ ❖❖ فَهَلْ رَكِبَ يُبْلِغُهَا السَّلَامَا

وَجَدَدَ طَيْفُهَا عَتَبًا عَلَيْنَا ❖❖ فَمَا يَعْتَادُنَا إِلَّا لِمَامَا

وَرُبَّتْ لَيْلَةٌ قَدِ بَتُّ أَسْقَى ❖❖ بَعَيْنَيْهَا وَكَفَيْهَا الْمُدَامَا

قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا وَاعْتِنَا قَا ❖❖ وَأَفْتَيْنَاهُ ضَمًّا وَالتَّزَامَا.

وظل ابن زيدون يحنُّ إلى ولادة، ويستعيد ذكريات الأوقات التي
تمتع فيها بوصالها، وتعتبر قصيدته النونية "أضحى التناهي" من أروع
قصائد الحنين المفعمة بعواطف الشوق إلى الحبيبة والوفاء لها.

يقول ابن زيدون:

ويا نعيماً رفناً من غضارته

في وشي نعمي سحبتنا ذيله حيناً

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها

والكوثر العذب زقومًا وغسلينا

كأنتنا لم نبت والوصل ثالثنا

والسعد قد غض من أجفاننا واشيناً

وقال من قصيدة يذكر "قرطبة الغراء" ويحنُّ إلى ليالي المرح
الحميدة التي قضاها هناك:

أَقْرُطْبَةَ الْغُرَاءِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعُ

وهل كَبِدٌ حَرَّى لِيَبِينِكَ تَتَّقَعُ؟

وهل لِّلْيَالِيكِ الْحَمِيدَةُ مَرَجَعُ

إِذِ الْحُسْنُ مَرَأَى فِيكَ وَاللَّهُوُ مَسْمَعُ ❖❖ وَإِذِ كَفَّ الدُّنْيَا لَدَيْكَ مُوْطَأُ

وتتأى المسافة بين الشريف الرضي وأحاببه فيحنُّ قلبه إلى
الليالي التي قضاها بقربهم، ويؤكد أنه ما زال وفيا لعهدهم:

ما ساعفثني الليالي بعدَ بينهم ♦♦ إلا ذكرتُ ليالينا بذي سلمٍ
ولا استجدّ فؤادي في الزمانِ هوى ♦♦ إلا ذكرتُ هوى أيا منا القدم
لا تطلبنَّ لي الأبدالَ بعدهمُ، ♦♦ فإن قلبي لا يرضى بغيرهم

إن البعد عن الوطن والأهل والأحباء، يجعل المرء يعاني من الوحدة وشدة الشوق، (خصوصاً قبل عهد الهاتف المحمول) فتهتز نفسه وتسيل عبراته، وقد يستولى عليه القلق والأرق والحزن. وتُصور الأبيات التالية بعض ما يعانيه رجل اشتدَّ حنينه إلى وطنه وأهله وأحبابه:

تذكرتُ أهلي في النوى وبلاديا ♦♦ وقد طال شوقي للجمي وبعاديا
تذكرت هاتيك الربوع وأهلها ♦♦ ويا حبذا تلك الربوع الزواهيا
تطيرُ لها نفسي من الوجد والجوى ♦♦ ويُمسي لها دمعي على الخد جاريا
وتهتزُّ من شوقي إليها جوارحي ♦♦ كما اهتز غصنُ مال للريح حانيا
فلا الشوقُ يُدنيني ولا الفكرُ نائيا ♦♦ ولا الدمعُ يُجديني ولا القلب ساليا

وقال شوقي من قصيدته "الأندلسية" التي نظمها وهو في منفاه بأسبانيا يحنُّ إلى مصر، هذه الأرض الطيبة التي مرحت فيها مآربه وأنست فيها أمانيه:

لكن مصر وإن أغضت على مِقَّةٍ ♦♦ عين من الخلدِ بالكافور تَسْقِينا
على جوانبها رفَّتْ تمائمنا ♦♦ وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعِبَ مَرَحَت فيها مآربنا ♦♦ وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلَعُ لسعودٍ من أواخرنا ♦♦ ومغرب لجدود من أو اليينا

أما إبراهيم ناجي فيشبه الحنين بشراب مرٍّ، هذا الحنين الذي ينمو بمرور الزمن، ويستهلك دمه وشبيبته:

ويح الحنين وما يجرعني
من مُرِّه ويبببت يسقيني
لم يرض غير شبيبتي ودمي
زاداً يعيش به ويفنِّيني

وقال مفدي زكريا من قصيدة نظمها وهو بعيد عن الجزائر، أثناء ثورة التحرير، يصف حنينه إلى الجزائر العاصمة، وتشوقه إلى الأحياء التي عاش فيها أياماً سعيدة:

جزائرُ .. مهما باعد الخُطْب بيننا
تُباكرني النجوى، وتهفو بي الذكري
حنيني إلى (القصباء) هاج مدامعي
وشوقي إلى (بيلكُور) أفقدني الصبرا

وفي حي (باب الواد) ماضي صبابتي
تركت (باب الواد) من كبدي شطراً
ويا فتنة (الأبيار) و(السعد باسم)
ألم تُتسبك الأبعادُ، أيامنا العطرأ؟
وفي (القبة الفيحاء) عُشَّ خواطري ..
تركت بها (لما أحاطوا بنا) وكراً

التفاؤل والتشاؤم

أيهذا الشاكي وما بك داءٌ ♦♦ كيف تغدو إذا غدوت عليلاً
فتمتع بالصبح ما دمت فيه ♦♦ لا تخف أن يزول حتى يزولاً

لقد أحسن إيليا أبو ماضي عندما قال ((وما بك داء))، إذ إنه لا يفيد كثيراً أن نطلب من المريض والجائع والحزين، والأشقياء والبؤساء، والمعوقين والمعدمين والعاطلين عن العمل، ومن المظلوم والسجين، ومن أحاطت به المصائب وأظلمت الدنيا في عينيه ... وغيرهم، أن يبتسموا وأن يتمتعوا .. بماذا؟

ولهذا الشاعر العبقرى قصيدة عنوانها ((ابتسم))، يجري فيها حواراً مع شخص متشائم. يقول له هذا الأخير: ((هل تسعد الابتسامة رجلاً جاء إلى هذه الدنيا رغم أنفه، ويخرج منها مكرها؟))

فأجابه الشاعر:

قلت: ابتسم ما دام بينك والردى

شبر، فإنك بعد لن تتبسماً

وفي قصيدة أخرى عنوانها ((كم تشتكي)) يقول الشاعر:

كم تشتكي وتقول إنك مُعْرَمٌ ♦♦ والأرضُ ملكك والسما والأنجمُ؟

وَلَكَ الْحَقُولُ وَزَهْرُهَا وَأَرْجُهَا ♦♦ وَنَسِيمُهَا وَالْبَلْبَلُ الْمَتْرَمُ
وَالْمَاءُ حَوْلَكَ فَضَّةٌ رَقْرَاقَةٌ ♦♦ وَالشَّمْسُ فَوْقَكَ عَسَجْدٌ يَتَضَرَّمُ

وأكاد أسمع صراخ المعذبين من الجوعى والمرضى والتعساء ..
ومن يفتشون الفضلات .. وينامون في الشوارع، ومن يصيحون من ألم المرض ... يقولون للشاعر: خذ الحداثق وزهورها وبلا بلها، خذ الشمس والنجوم .. واعطنا رغيفاً يشبع جوعنا ودواء يسكن آلامنا، ونعدك ألا نشتكى.

وحول موضوع التشاؤم والتفاؤل يقول صدقي إسماعيل:

أَتَشْكُو الظَّمَأَ وَالتَّبْعُ حَوْلَكَ دَافِقٌ ♦♦ وَكُلُّ فِجَاجِ الأَرْضِ غُصْنٌ مُبْرَعَمٌ!
فَرَادِيسُ مِنْ نِعْمَى الوُجُودِ تُظِلُّنَا ♦♦ وَتَمْنَحُنَا فَوْقَ الَّذِي نَحْنُ نَحْلَمُ
هِيَ الأَرْضُ أَعْطَتْنَا الحَيَاةَ سَخِيَّةً ♦♦ أَنهْجُرُهَا وَالقَلْبُ بِالحَبِّ مُفْعَمٌ؟

إنما يعاتب الإنسان الذي يشكو والفردوس يحوط به، ومنايع الماء تجري من حوله، وكانت الأرض سخية في عطائها له. وهل يشدو مع البلابل من شردتهم الحروب، أو تصحر أراضيهم ونفاق قطعانهم؟ رجل قضى ستين عاماً من حياته لاجئاً مشرداً منكوباً، اغتصبت أرضه، وقتل أولاده، ودمر منزله، ولا يتوقع أن تتحسن حاله، هل نقول له: تفاعل! ابتسم!

ولكن مهما كانت ظروف الحياة قاسية والصراع مريراً، فإن العمل على تغيير مسلسل الحياة اليومية الرتيبة أجدى من الاستسلام للأفكار السلبية. ولعل اللجوء إلى أحضان الطبيعة، من حين لآخر، مما

يساعد النفس القلقة على استعادة بعض هدوئها وحيويتها وأملها. ولإيليا أبي ماضي أبيات تدعو إلى التركيز على الحاضر،⁽¹⁾ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً.

يقول أبو ماضي:

يريدُ الحُبُّ أن نضحكَ فلنضحكُ مع الفجر
وأن نركضَ فلنركضَ مع الجدولِ والنهر
وأن نهتفَ فلنهتفَ مع البلبَلِ والقمرِ
فمن يعلمُ بعد اليومَ ما يحدثُ أو يجري؟

السعادة

هل السعادة في جمع المال؟ في الركن وراء المذات؟ في الاهتمام بالأسرة والمزرعة؟ في العيش ضمن حدود الأخلاق الحميدة والكفاح من أجل الحق والعدل؟ وهل خلق الإنسان لينعم بالسعادة؟ لنرى النتيجة التي يصل إليها إيليا أبو ماضي في هذه الأبيات:

قلتُ: السعادةُ في المنى فرددتني ♦♦ وزعمت أن المرء آفتهُ المنى
ورأيتُ في ظلِّ الغنى تمثالها ♦♦ ورأيت أنتَ البؤسَ في ظلِّ الغنى
مالي أقول بأنها قد تُقتنى ♦♦ فتقول أنتَ بأنها لا تُقتنى؟
وأقول إن خُلقت فقد خُلقت لنا، ♦♦ فتقول إن خُلقت فلم تُخلق لنا؟
وأقول إنني مؤمنٌ بوجودها ♦♦ فتقول ما أحراك أن لا تؤمننا؟
وأقول سرٌّ سوف يُعلنُ في غيرِ ♦♦ فتقول لا سرٌّ هناك ولا هنا؟
يا صاحبي، هذا حوارٌ باطلٌ ♦♦ لا أنت أدركت الصوابَ ولا أنا

وفي قصيدة أخرى يرى أبو ماضي أن السعادة حالة نفسية لا يصل إليها الإنسان إلا على أجنحة الخيال:

وأرى السعادةَ لا وصولَ لعرشها ♦♦ إلا بأجنحة من الوسواسِ
فاصبغِ رؤاك بها تعدُّ ذهبيةً ♦♦ عطرية الألوان والأنفاسِ
للقصر يخلقه خيالك روعة ♦♦ كالقصر من جدر ومن أساسِ

ويقول جبران خليل جبران إن السعادة شبح منيع بعيد المنال، والناس يركضون وراءه. ولو أصبحت شيئاً واقعياً ملموساً لملها الناس:

وما السعادة في الدنيا سوى شبح ♦♦ يُرَجَى فإن صار جسماً ملأه البشرُ
كالتَّهْريرِ كَضُّنْحو السهلِ مُكْتَرِحاً ♦♦ حتى إذا جاءه يُبْطِى وَيَعْتَكِرُ
لم يسعدْ الناسُ في تَشْوُقِهِم ♦♦ إلى المنيعِ فإن صاروا به فَتَرُوا
فإن لقيت سعيداً وهو منصرفٌ ♦♦ عن المنيعِ فقلْ في خَلْقِهِ العِبْرُ

والسعادة حلم جميل تصوره الأوهام للناس، فينفقون أيامهم لتحقيق هذا الحلم، وهذا هو رأي أبي القاسم الشابي في الأبيات التالية:

فما السعادة في الدنيا سوى حلم ♦♦ ناءٍ تُضْحِي له أيامها الأُمُ
ناجت به الناسَ أوهامٌ مُعْرِبِدَةٌ ♦♦ لَمَّا تَعَشَّتْهُمُ الأحلامُ والظلمُ
فَهَبَّ كُلُّ يناديه وينشده ♦♦ كأما الناسُ ما ناموا ولا حلُّموا

وفي رأى أحمد شوقي أن السعادة ليست في الثراء ولا في المظاهر، بل في الضمير الطاهر والخلق المستقيم:

فإن السعادة غير الظهو ♦♦ رٍ، وغير الثراء، وغير الترف
ولكنها في نواحي الضمير إذا هو باللؤوم لم يُكْتَفَ

وكم رجل (وامرأة) ظن السعادة في الحب ..، فاكتشف بعد القران أن الأمر غير ذلك؛ وكم إنسان ظن السعادة في فعل الخير...، لكنه لم يجن من فعله سوى نكران الجميل. وهذا ما يؤكد لنا الشاعر رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي):

رأى فحسباً فأمل ♦♦ كل السعادة في الحب

ما كان أحلى وأجمل ♦♦ حلم الفرام وأعذب
لكنه ما تأهل ♦♦ حتى غدا يتعذب
فوداً لو يترمل ♦♦ أو يصبح القرب بيننا
أيمن السعادة أيننا؟

نهوى السلام فتسعى ♦♦ بالحب بين الأنام
نروم للناس نفعاً ♦♦ أقصى مرامي المرام
لكن أخو الشر أفعى ♦♦ سروره في الخصام
فليس يهدأ طبعاً ♦♦ حتى يُسيءَ إلينا

أيمن السعادة أيننا؟

الشعر والحياة

القسم الثاني

معتك الحياة



إذا اجتمعت في المرء والمرء مُفلس ♦♦ وتؤدي عليه لا يُباع بدرهم

وقال أبو العتاهية مؤكداً المعنى السابق، ومبيناً أن الناس إنما يقدررون ذوي الثروة، ويخشون أصحاب السلطة والجاه، وهذان مرتبطان بالثروة:

ما أذلُّ المُقِلِّ في أعين الناس لإِقْلَالِهِ وَمَا أَقْمَاهُ

إِنَّمَا تَنْظُرُ الْعْيُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَنْ تَرْجُوهُ أَوْ تَخْشَاهُ

ويرى العباس بن الأحنف أنه حتى الكلاب تحترم صاحب الملابس الأنيقة وتصفى إلى كلامه، وهي تنبح عندما ترى البائس الفقير:

حتى الكلابُ إذا رأت ذا بِرَّةٍ ♦♦ أصغت إليه وحرّكت أذنبها
وإذا رأت يوماً فقيراً جائزاً ♦♦ نبحت عليه وكشرت أنيابها

ومن زاد ماله كثر خلانه وأصحابه ومن يدعون صداقته، ومن فقد ثروته ابتعدوا عنه وأهملوه؛ يقول أحد الشعراء:

إن قَلَّ مالي فلا خِلُّ يُصاحبني ♦♦ وإن زاد مالي فكلُّ الناسِ خلاني

ويقول المتنبي في هذا المعنى:

إذا قَلَّ مالي قَلَّ صحبي وإنْ نَمَا ♦♦ فلي من جميع الناسِ أهلاً ومرحباً

إن أذنب الفقير، فذنبه كبير، وإن أذنب الغني غطى ماله وجاهه ذنوبه، وحاول ذوو السلطة أن يجدوا له المبررات. ومن الشعراء الذين عبروا بصدق عن هذا المعنى، وقارنوا بين حال الفقير والغني، الشاعر عروة بن الورد (عروة الصعاليك):

المال

يحدث أبو العيناء عن آثار الغنى في العلاقات الإنسانية، مؤكداً بأن الدراهم تزيد الرجل فصاحة ومهابة، وتجعله يمشي مختالاً؛ ثم لخص مزايا الغنى في بيتين فقال:

إنّ الدراهمَ في المواطنِ كُلِّها ♦♦ تكسو الرجالَ مهابةً وجلالاً
فهي اللسانُ لمن أراد فصاحةً ♦♦ وهي السلاحُ لمن أراد قتالاً

وقال أبو الفتح البستي في كون المال يضيف على كلام الغنى فصاحة ويزيده أهمية، والفقير يقلل من قيمة كلام الرجل، ويجعله غير مستساغ:

سحبان من غير مال باقل حصر ♦♦ وباقل في ثراء المال سحبان

وقال شاعر آخر مشيراً إلى أن الفقر يغطي فضائل الرجل، ويحط من قيمته، مهما كان فضله وزهده وحكمته:

فصاحةُ حسانٍ وخطُّ ابنِ مُقلّةٍ ♦♦ وحكمةُ لقمانٍ وزُهْدُ ابنِ أدهمٍ

دعيني للغنى أسمى فإني ♦♦ رأيت الناس شرهم الفقيرُ
ويقصيه الندى وتزدريه ♦♦ حليثه وينهره الصغيرُ
ويمشي ذو الغنى وله جلال ♦♦ يكادُ فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلُ ذنبه والذنبُ جم ♦♦ ولكن للغني رب غفورُ

ويشبهه أحمد شوقي في إحدى قصائده المال بتمثال عبده
الناس منذ خلقوا:

والمالُ مذُ كان تمثالُ يطاقُ به ♦♦ والناسُ مذ خُلقوا عبادُ تمثال

ويرى هذا الشاعر أن الانهماك في جمع المال داء، وينصح بعدم
الاستسلام لهذه الشهوة القاتلة:

ولم أرَ مثل جمع المال داءً ♦♦ ولا مثل البخيل به مصابياً
فلا تقتلك شهوته وزئها ♦♦ كما تزنُ الطعامَ أو الشرابياً

وكذلك يرى أبو الحسن التهامي أن المال مصدر للهموم، وأن
السعي المفرط في توسيع الثروة نوع من الفقر:

نزدادُ همًّا كلما ازددنا غنى ♦♦ والفقرُ كلُّ الفقرِ في الإكثارِ

ويقول أبو الطيب المتنبى في هذا المعنى:

ومن ينفق الساعاتِ في جمع ماله ♦♦ مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وبما أن المال ينتقل من يد إلى أخرى، وأن الإنسان معرض للفقر
بعد الغنى، فإن الشريف الرضى يكتفي، في إحدى قصائده، بغنى
النفس، لأنها فضيلة لا يخشى عليها الزوال:

حسبي غنى نفسى الباقي وكلُّ غنى ♦♦ من المغانم والأموال ينتقلُ

ولكن من ذاق مذلة الحرمان وعانى من البؤس والفقر، يعلم جيداً
أن غنى النفس لا يطيب إلا بعد الحصول على ضروريات الحياة. والفقر
كثيراً ما يدفع المرء إلى مهاوي الضلال، كما يقول حافظ إبراهيم:

ربّ بؤس يُخبث النفس حتّى

يطرح المرء في مهاوي الضلال

ولنستمع إلى معروف الرصافي يحدثنا عن الدينار ويقول:

هو الدينار مُنية كل راج

وبُغية كل من دأب احتراقاً

نُحجُّ لأجله بيت المخازي

ونكثرُ حول كعبته الطوافاً

ترى كل الأنام به سُكارى

وغيرَ هواه ما ارتشفوا سلافاً

فحبُّ سواه في الأفواه جارٍ

ولكن حبه بلغ الشغافاً

إذا خطب الوضيعُ به المعالي

أقام له بنو الشرف الزفافاً

وقال أبو العتاهية:

لو رأى الناس نبيًّا ♦♦ سائلًا ما وصلُّوه

أنت ما استغنيت عن صا

حبك الدهر أخوه

فإذا احتجت إليه ♦♦ ساعة مجك فوه

وقال بشار بن برد:

إني وإن كان جمعُ المال يعجبني

فليس يعدل عندي صحّة الجسد

في المال زينٌ وفي الأولاد مكرمةٌ

والسقمُ ينسيك ذكر المال والولد

وقال الشريف الرضي:

إذا قلَّ مالُ المرءِ قلَّ صديقُه، ♦♦ وفارقَه ذاك التحنُّنُ والودُّ،

وأصبحَ، يُغضي الطرفَ عن كلِّ منظرٍ ♦♦ أنيقٍ، ويُلهيه التغرُّبُ والبُعدُ

وكم حدثنا الشعراء عن مزايا المال، وغواياته وطفغياته، وتأثيراته على قلوب الناس وعقولهم، وعن هموم الفقير، وما يلاقي في حياته اليومية من شقاء وهوان وظلم. وكم من فتیان البلدان الفقيرة وفتياتها هاجروا أملاً في تحقيق آمالهم، فمنهم من قضى نحبه غرقاً، ومنهم من ينتظر. ويحدثنا إلياس فرحات في الأبيات التالية عن الدينار (أو الدولار) المزخرف الذي يرفع رؤوساً ويخفض أخرى، ويحقق أهدافاً، تظل أحلاماً في خيال الفقير.

يقول إلياس فرحات:

يحركُ الناسَ شيءٌ ♦♦ عن الحياة مُعَرى

مزخرف مستدير ♦♦ عليه نقش وطفرا ...

بـه ضمائر بعض ♦♦ تباع حيناً وتشري

هذا المليك المصدى ♦♦ هذا الإله المبرا

إن لاح يوماً لعبد ♦♦ تراه للأرض - خرا

الحب

يرد أحمد شوقي على من طلب منه أن يصف الحب، فيقول:

يقولُ أناسٌ لو وصفتَ لنا الهوى ❖❖ لعل الذي لا يعرف الحب يعرفُ
فقلتُ لقد ذقت الهوى ثم ذقته ❖❖ فوالله لا أدري الهوى كيف يُوصفُ

أما على الجارم فيرى أن الحب هو أحلام الشباب وملهاة
الحياة فيقول:

والحبُّ أحلامُ الشباب هنيئة ❖❖ ما أطيب الأيام والأحلاما
والحبُّ ملهاةُ الحياة وطبُّها ❖❖ ولقد تكون به الحياة سقاما

ويتسامى أحمد رامى قليلاً في وصف الحب، ويوسع نطاقه فيصفه
بأنه لحن النفس، ووتر القلوب، ونبع الشعر، فيقول:

الحبُّ نبعُ الشعر منه تفجّرت ❖❖ عينُ المعاني والخيال الساري
الحبُّ لحنُ النفس وقّعه على ❖❖ وتر القلوب بنانُ موسيقارِ
الحبُّ يفسّحُ في الحياة مراحتها ❖❖ ويحفُّها بيدائع الآثارِ

أما المتنبي فيحكم حكماً قاسياً على الحب تارة عندما يقول:

وما الحبُّ إلا غرّة وطماعة ❖❖ يعرض صبُّ قلبه فيصابُ

ويعتذر حيناً للمحبين اعتذاراً صريحاً فينشد:

وعذلتُ أهلَ العشق حتى ذقته ❖❖ فعجبت كيف يموت من لا يعيشُ

غير أن أغلبية الشعراء يرون الحب معاناة وآلاما ودموعا وأرقا،
ونارا تتأجج، فيقول قيس بن الملوّح (مجنون ليلى):

أظلُّ رزيجَ العقل ما أطعمُ الكرى ❖❖ وللقلب مني أنةٌ وخُفوقُ
برى حُبُّها جسمي وقلبي ومهجتي ❖❖ فلم يبقَ إلا أعظمُ وعروقُ

ويقول قيس بن ذريح:

ومَنْ يتعلق حب لبنى فؤاده

يمتُّ أو يعيش ما عاش وهو كليمُ

وسلب الحب عقل الشاعر مسلم بن الوليد، وترك جسمه شاحبا،
بل يرى أنه هلك ولم يبق للناس إلا أن يعزوا أقرابه:

سلبَ الهوى عقلي وقلبي عنوة ❖❖ لم يبق مني غير جسم شاحبِ
ها قد هلكتُ ومتّ من ألم الهوى ❖❖ قوموا فعزوا معشري وأقاربي

والحب عند العباس بن الأحنف هموم مضنية تفتح أبواب المنية،
وصدود الحبيب عذاب لا يساويه عذاب:

سلبتني من السرور ثياباً ❖❖ وكسّني من هموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً ❖❖ فتحت لي إلى المنية باباً
عذبيني بكل شيء سوى الصدِّ ❖❖ فما ذقت كالصدود عذاباً

ويعاني قيس بن ذريح من عذاب الفراق، فيقضي نهاره متحدثاً عن حبيبته متمنياً لقاءها، ويغشاه الهم عندما يأتي الليل:

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ♦♦ ويجمعني والهم بالليل جامع

ومثله كثير عزة الذي يقضي ليله مناجياً الهموم، ويصبح مريضاً موزعاً بين اليأس والرجاء:

أبيتُ نجياً للهموم مُسهداً ♦♦ إذا أوقدتُ نحوي بليلٍ وقودها
فأصبحتُ ذا نفسين نفسٍ مريضةٍ ♦♦ من اليأس ما ينفكُ همُّ يعودها
ونفسٍ تُرجي وصلها بعد صرْمها ♦♦ تجملُ كي يزداد غيظاً حسودها

ويقول شاعر، بعد تذكيرنا بأنه خبير بأحوال الهوى والعشاق، بأن الحب يجمع بين الحلاوة والمرارة، والسرور والبكاء:

الحبُّ صاحبه يبيتُ مسهداً ♦♦ ويطيرُ عنه فؤاده، ويهيمُ
الحبُّ داءٌ قد تضمّن في الحشا ♦♦ بين الجوانح والضلوع مقيمُ
الحبُّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ ♦♦ والحبُّ فيه شقاوةٌ ونعيمُ

والحب شعور عميق يستولي على قلب الإنسان، ويتغلغل إلى أعماق فؤاده فيسيطر على أفكاره ويوجهها، ويصبح العاشق مغلوباً على أمره، فالأذن لا تسمع، والعين لا تبصر إلا ما يأتي من القلب، كما يقول بشار بن برد:

وما تبصرُ العينان في موضع الهوى

ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

ويقول مسلم بن الوليد:

سقتني بعينها الهوى وسقيتها ♦♦ فدب ديب الراح في كل مفصل

ويقول المتنبي في نفس الموضوع:

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي ♦♦ فأصبح لي عن كل شغل بها

لقد كان المحبون، وما يزالون، يشتكون من لوعة الفراق، وحرارة الأشواق، فالحشاشة تحترق، والدموع تسيل، والبدن مهمل والفكر مبطل.

وقد لا تزيدهم فرص التلاقي، وفترات اللقاء العابرة، إلا آلاماً، لأنها لا تشفي الغليل، بل تزيد القلب سقاماً ونار الحب اضطراباً.

ومن الواضح أن سبب كل تلك الآلام، والأرق والهموم والبلبلية، هو فراق الحبيين وصعوبة لقاءهما، أو صد الحبيبة وهجرها لحبيبها، يقول الشريف الرضي:

وكم غادر البين المفرق من فتى ♦♦ يُمسحُ قلباً دائماً الخفقان
ومنتزع من بين جنبه زفرة ♦♦ تخلي دموع العين في الهملان
وما الحبُّ إلا فرقةٌ بعد ألفة ♦♦ وإلا حذارٌ بعد طول أمان

وعندما يتعذر لقاء الحبيين يلجأ إلى الخيال، فيتصور الشاعر أنه يلتقي بحبيبته عندما ينظران إلى السماء، أو عندما يضمهما الليل، أو يمر عليهما النسيم.

غير أن هناك من الشعراء من يشك في جدوى القرب، إذا

كان من تهواه لا يبادلك الحب والمودة، يقول عبدالله بن الدمينه
عن قرب الحبيب وبعده:

بكلِّ تداوينا فلم يشفِ ما بنا ♦♦ على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ♦♦ إذا كان من تهواه ليس بذي ود

ويرى شاعر آخر أن المحب الذي لا يصبر على الفراق ولا يشفيه
التلاقي، أصبح في حالة خطيرة، فيقول:

إذا كنت لا يسليك عن من تودّه ♦♦ تئاء ولا يشفيك طول تلاق
فهل أنت إلا مستعير حشاشه ♦♦ لمهجة نفس أدت بفراق

وإذا كان فراق المحبوب يسبب للعاشقين عناء وآلاما نفسية
وبدنية، فإن الشفاء يأتي على يد الحبيب وليس بعلاج الطبيب، يقول
الشريف الرضي:

وفي القلب داء في يديك دواؤه ♦♦ ألا رب داء لا يراه طبيب
ويقول:

دعوا لي أطباء العراق لينظروا ♦♦ سقامي، وما يفني الأطباء في الحب
ويقول شاعر آخر:

ما للمحب إذا تقام دائه ♦♦ غير الحبيب يزوره من راق
ذلك لأن قرب الحبيب يطفى نيران الوجد، ويعالج جروح القلب،
ويكون مصدراً للسعادة والمتعة والهناء، قال قيس بن الملوح:

إذا اكتحلت عيني بعينك لم تزل
بخير وجلت غمرة عن فؤاديا
فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي
وأنت التي إن شئت أشقيت باليا

وقال شاعر آخر كان أكثر صراحة وواقعية من مجنون ليلى:

العشق داء دوي لا دواء له، ♦♦ إلا العناق وإفشاء السيريات
وليس يلتد طيب العيش من أحمر ♦♦ إلا بفضك، أو رشف الثيات
ووضعك الصدر فوق الصدر تجمعه ♦♦ ضمأ إليك على ظهر الحشيات

وإذا كان الحب أعمى، فهل يجدي لوم العاشق الولهان على ما قد
يحل به من سوء المصير؟ ومحاولة إعادته إلى العقل والحكمة ومنطق
الواقع؟ يقول ابن الرومي:

لا تطفئن جوى بلوم إنه ♦♦ كالريح تغرى النار بالإحراق

ذلك لأن المحب مغلوب على أمره، فأذنه لا تسمع غير صوت
الحبيب، وفكره لا يعي إلا كلامه، وقلبه لا يخفق إلا إليه قال الشاعر:
ألا ليقل من شاء ما شاء إنما ♦♦ يلام الفتى فيما استطاع من الأمر

وقال المتنبى:

لا تعذل المشتاق في أشواقه ♦♦ حتى يكون حشاك في أحشائه

وقد يحاول الشاعر أن يكتتم سر حبه، ويخفي لواعج وجدّه،

غير أن شرود فكره، ونحول جسمه، وصيحاته ودموعه تفضح أمره.
يقول البحتري:

علاقة حب كنت أكتم بثها ♦♦ إلى أن أذاعتها الدموعُ الهوا معُ
إذا العينُ راحت وهي عونٌ على الهوى ♦♦ فليس بسرُّ ما تُكِنُّ الأضالعُ

ويقول كثيرُ عزة:

كريم يميتُ السر حتى كأنه ♦♦ إذا حدثوه عن حديثك جاهله

وكثيراً ما يتساءل العاقل: إذا كان الحب سبباً في كل ما نقرأه في الشعر العربي (وغيره) من آهات وتهدات وآلام نفسية وبدنية، وطاقات تهدر في البكاء والتشكي، والتشوق لطيف المحبوب، وضياع النفس والنفيس، فهل جميع الشعراء متفقون على أنه شيء لا بد منه مهما كلف من تضحيات؟

يقول عمر بن أبي ربيعة :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ♦♦ فكُنْ حجراً من يابس الصخر جليداً

ويقول قيس بن الملوح (مجنون ليلى):

وما الناسُ إلا عاشقون ذوو الهوى ♦♦ ولا خيرَ فيمن لا يحبُّ ويعشقُ

ويخالفهما أبو فراس في الرأي فيقول:

لقد ضلَّ من تحوى هواه خريدة ♦♦ وقد ذلَّ من تقضي عليه كعابُ
ولكنني، والحمد لله، حازمٌ ♦♦ أعزُّ إذا ذلَّتْ لهن رقابُ

وقد يغير الشاعر رأيه وفقاً لظروف الحياة، أو يتخذ موقفاً معتدلاً، أو يتبنى حلاً وسطاً، فيقول المتنبي، مثلاً:

وإن قليلَ الحب بالعقلِ صالح ♦♦ وإن كثيرَ الحب بالجهلِ فاسدُ

ويقول العباس بن الأحنف في هذا المجال:

لا عار في الحب إن الحبَّ مكرمةٌ ♦♦ لكنه ربما أزرى بذى الخطرِ

وبمناسبة الحديث عن "الحب" أذكر أنني التقيت ذات مساءً برجل إيطالي، قدم لي زوجته قائلاً: واسمها "ليلى". فقلت: أنت أكثر حظاً من قيس الذي لم ينعم بالزواج من "ليلاه". فأجابني مازحاً: كلا، إنه هو المحظوظ، وأنا المجنون.

الحب فطور لذيذ، ولكنه عشاء مرير. فهو منعش جميل في السنوات الأولى من الشباب، قبل أن تتراكم المسؤوليات والمشاكل والهموم المادية والأسرية والنفسية، بعد ذلك قد يتحول إلى صداقة أساسها تبادل المصالح والتنازلات، أو إلى عشاء مرير، فيدخل في نطاق زواج رحلة الصيف وطلاق رحلة الشتاء.

يقول جبران خليل جبران:

كان لي بالأمس قلبٌ فقضى ♦♦ وأراح الناسَ منه واستراح

ذاك عهدٌ من حياتي قد مضى ♦♦ بين تشبيبٍ وشكوى ونواح

إنما الحبُّ كنجم في الفضا ♦♦ نوره يمحي بأنوار الصباح

وسرورُ الحب وهَمٌّ لا يطولُ ♦♦ وجمالُ الحب ظلٌّ لا يقيمُ

وعهودُ الحبِّ أحلامٌ تزولُ ❖❖ عندما يستيقظُ العقلُ السليمُ

وفي قصيدة عنوانها ((المواكب)) يشبه جبران خليل جبران الحب بالأعشاب التي لا تزهر، وبالخمر ((قليلها مفيد)) وكثيرها مهلك. ويضيف أن الحب قد يكون مثل الملك الذي يقيد الفراش (الزواج) فيصبح كالطير الذي قصت جناحاه:

والحبُّ في الناس أشكالٌ وأكثرها ❖❖ كالعشب في الحقل لا زهرو ولا ثمرُ
وأكثرُ الحبِّ مثل الراح أيسره ❖❖ يرضي، وأكثره للمدمنِ الخطرُ
والحبُّ إن قادتُ الأجسامُ موكبَهُ ❖❖ إلى فراشٍ من الأغراض ينتحرُ
كأنه ملكٌ في الأسر معتقلٌ ❖❖ يأبى الحياةَ وأعوان له غدروا

اللقاء والفراق

من أقدر من الشاعر على التعبير عن العواطف الجياشة، في ساعة فراق الأحياء، عندما تغيب الابتسامة ويغلب الدمع، وينكسر الفؤاد، وتختنق الكلمات، وتتقبض النفس.

يقول إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

قامت تُودِّعني والدمعُ يغلبها ❖❖ فجمَّمتُ بعض ما قالت ولم تُبني
مالت عليَّ تُفدِّيني وترشُّفني ❖❖ كما يميل نسيمُ الريح بالغصنِ

ويقول البهاء زهير في موضوع فراق الحبيب:

وقائلةٌ لما أردتُ وداعها ❖❖ حبيبي: أحقاً أنتَ بالبينِ فاجعي
فيا رب لا تُصدق حديثاً سمعته ❖❖ لقد راع قلبي ما جرى من مدامعي

ويشعر قيس بن الحدادية أن فؤاده يختنق بين شقِّي عصا ساعة اقتراب الفراق، وتسأله الحبيبة متى ستنعم بلاقائه:

كأنَّ فؤادي بين شقَّين من عصاً

حذارَ وقوع البينِ، والبينُ واقعُ

وقالت، وعيناها تفيضان عبرةً

بأهلي، بين لي متى أنت راجع؟

وهذا أبو فراس يشكو ألم فراق الحبيب الذي يؤنس وحدته، وقد سالت دموعه وجفا النوم عينيه:

يا مَنْ أَصَافِيهِ فِي قُرْبٍ وَيُفْ بَعْدُ ❖❖ وَمَنْ أَخَالَصُهُ إِنْ غَابَ أَوْ شَهِدَا
رَاعَ الْفِرَاقُ فُوَادَا كُنْتَ تُؤْنِسُهُ ❖❖ وَذَرَّ بَيْنَ الْجُفُونِ الدَّمْعَ وَالسَّهْدَا

والفراق لا يغير ذرة من حب الشاعر ذي الرمة لحبيبته مية، ولو أن طول الغياب قد يغير بعض المحبين:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْدُ ❖❖ رَسِيسَ الْهَوَى مِنْ ذِكْرِ مَيَّةٍ يَبْرُجُ
فَلَا الْقُرْبُ يَدْنِي مِنْ هَوَاهَا مَلَالَةً ❖❖ وَلَا حَبَّهَا إِنْ تَزَحَّ الدَّارُ يَنْزَحُ

ما أجمل ساعة لقاء الحبيب بعد الفراق، وقد تعوض فرحة اللقاء أيام الفراق. وهذا ابن عبد ربه يستغيث بلحظة اللقاء لتكون برداً وسلاماً على فؤاده الذي كاد يحترق بنار الفراق:

سَقَانِي الْبَيْنُ كَأَسِ الْمَوْتِ صِرْفَا ❖❖ وَمَا ظَنَنْتِي أَمُوتُ بِكَفِّ سَاقِي
فِيَا بَرْدَ الْلِقَاءِ عَلَى فُوَادِي ❖❖ أَجْرِنِي الْيَوْمَ مِنْ حَرِّ الْفِرَاقِ

وإذا كان ما يحدث بين المحبين هو ما وصفه البحري فلا شك أنه يطفئ نار الشوق:

وَقَدْ ضَمْنَا وَشَكَ التَّلَاقِي وَلَفْنَا ❖❖ عَنَاقَ عَلَى أَعْنَاقِنَا ثُمَّ ضَيْقُ
فَلَمْ تَرَ إِلَّا مَخْبِرَا عَنْ صَبَابَةٍ ❖❖ بِشَكْوَى وَإِلَّا عِبْرَةً تَتَرَقَّرُ
فَأَحْسَنُ بِنَا وَالدَّمْعُ بِالدَّمْعِ وَاشْجُ ❖❖ تَمَازِجُهُ وَالْخَدُّ بِالْخَدِّ مُلْصَقُ
وَمَنْ قَبْلَ قَبْلِ التَّشَاكِي وَبَعْدَهُ ❖❖ نَكَادُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ نَشْرُقُ.

الزواج والطلاق

يحدثنا أعرابي عن زواجه من امرأتين في وقت واحد، آملاً أن ينعم بينهما بالهناء والدلال، كخروف بين نعجتين، غير أنه كلما أرضى إحداهما سخطت عليه الأخرى، فوصف سوء حظه في قصيدة، منها:

تَزَوَّجْتُ اثْنَتَيْنِ لِفَرْطِ جَهْلِي ❖❖ بِمَا يَشْقَى بِهِ زَوْجَ اثْنَتَيْنِ
فَصَرْتُ كَنَعَجَةٍ تَضْحَى وَتَمْسِي ❖❖ تَحَاوُلُ بَيْنَ أَخْبَثِ ذَنْبَتَيْنِ
رَضَى هَذَا يَهَيِّجُ سَخَطَ هَذَا ❖❖ فَمَا أَنْجُو مِنْ إِحْدَى السَّخَطَتَيْنِ

وتزوج رجل آخر امرأتين فكانت خيبة أمله أكبر من الأول، إذ راح المسكين يعاني من خدوش وجروح، وأحياناً رمياً بالحجارة، وإذا أغمى عليه أفرغت الزوجتان الماء على رأسه، ومما ورد في قصيدته يصف سوء مصيره:

أَلَا قِي الْخَنَا وَالْبَرْحَ مِنْ أُمَّ حَازِمٍ ❖❖ وَمَا كُنْتُ أَلْقَى مِنْ رَزِينَةِ أَبْرَحُ
تَقْطُبُ عَيْنِيهَا وَتَعْصِبُ رَأْسَهَا ❖❖ وَتَعْدُوْ غَدُوْ الذَّنْبِ، وَالْيَوْمَ يَضْبِحُ
وَلِمَا التَّقِينَا غَدُوَّةَ طَالِ بَيْنِنَا ❖❖ سَبَابٌ وَقَذْفٌ بِالْحَجَارَةِ مَطْرَحُ
أُجَلِّي إِلَيْهَا مِنْ بَعِيدٍ وَأَتَقَى ❖❖ حَجَارَتَهَا حَقَا وَلَا أَتَبْرَحُ

وتزوج شاعر أربع نساء رغبة في أن يسعد بهن وتقر عينه، ولكنه ندم ندماً شديداً، بل تمنى لو كان أعمى وأصم، بدلاً من زواجه منهن:

ويا ليتني أعمى أصمّ ولم أكن ♦♦ تزوجت، بل يا ليتني كنت مخدجُ

ثمّ يصف كلاً ممنهنا بما فيها من سوء الخلق والسلوك، ويختتم أبياته قائلاً:

فهنّ طلاق كلهن بوائن ♦♦ ثلاثا بتاتا، فاشهدوا لا ألجلجُ

وقال رجل آخر وقد طلق امرأته واستعاد حرّيته:

رحلت أنيسة بالطلاق ♦♦ وعُتقتُ من رِقّ الوثاقِ
بانّت فلم يألّم لها ♦♦ قلبي ولم تبك المآقي

وقال الأعشى عن حكاية طلاق:

أجارتنا بيني فإنك طالقُه

كذاك أمور الناس غارٍ وطارقه

وذوقي فتى قوم فإني ذائقُ

فتاة أناس مثل ما أنت ذائقُه

ويصف لنا الأخطل حالة فشل زواج، فكان الزوج مؤرقاً مهموماً،
والزوجة تنوح على زوجها السابق:

كلانا على همّ بييتُ، كأنما

بجنيبه من مسّ الفراش قروحُ

على زوجها الماضي تنوحُ وإنني

على زوجتي الأخرى كذاك أنوحُ ..

وقال الفرزدق يتحسر على طلاق نوار، ويشبه حاله بحالة آدم
عندما أُخرج من الجنة:

ندمتُ ندامة الكسعى لما ♦♦ غدت مني مطلقه نوارُ

وكانت جنّتي وخرجتُ منها ♦♦ كأدم حين أخرجهُ الضرارُ

فأصبحتُ الغداة ألوم نفسي ♦♦ بأمر ليس لي فيه خيارُ

وقالت امرأة تصف رائحة فم زوجها، واسمه قتادة:

ولو أن المنايا أعرضتُ لاقتحمتها ♦♦ مخافة فيه، إن فيه لداهية

فما جيفة الخنزير عند ابن مُغرب ♦♦ قتادة إلا ريح مسك وغاليه

فكيف اصطباري يا قتادة بعدما ♦♦ شممتُ الذي من فيك أثنى صماخيه

ولنقرأ الأبيات التالية لنرى كيف يحدّد أبو الأسود الدؤلي أعمال
زوجته، إذ يطلب منها أن تشمر عن ساعدها لتجلب الماء وتطحن
الحبوب وتعدّ الطعام. ونجد مطالبه عادية، خاصة أنثذ. ولكنه كان
قاسياً عندما قال لها (في البيت الأول) إنه لا يريد لها للصبأ:

أصلاحُ إنني لا أريدك للصبأ ♦♦ فدعي التشمّل حولنا وتبدّلي

إنني أريدك للعجين وللرحى ♦♦ ولحمل قربيتنا وغلي الرجلِ

وإذا تروّح ضيف أهلك أو غدا ♦♦ فحُذّري لآخر أهبة المستقبل

وكان ذو الإصبع العدوانى يتردد في زواج بناته الأربع إلى أن
استمع إليهن ذات يوم يتحدثن عن رغبتهن في الزواج، فقالت الأولى:

ألا ليت زوجي من أناس ذوي غنى ♦♦ حديثُ الشباب طيبُ النشر والذكرِ

لصوقٌ بأكباد النساء كأنه ♦♦ خليفة جانٍ لا ينامُ على وترٍ

وقالت الثانية:

ألا ليته يُعطي الجمالَ بديئةً ♦♦ له جفنةٌ تشقى بها النيبُ والجُرُ
له محكمات الدهرٍ من غير كبرة ♦♦ تشينُ فلا فان ولا ضرعُ غمرُ

وقالت الثالثة:

ألا هل تراها مرةً وحليلها ♦♦ أشمُ كنصلِ السيفِ عينِ المهترِ
عليماً بأدواءِ النساءِ ورهطه ♦♦ إذا ما انتمى من أهل بيتي ومحتدي

وقالت الرابعة: زوج من عود خير من قعود.

فعجل بتزويجهن.

وما أكثر الحالات التي يجبر فيها الأبوان ابنتهما على الزواج من رجل غني، إما حرصاً على توفير حياة الراحة والرخاء للفتاة، أو طمعاً في أن ينالهما شيء من خيره وجاهه. وقد استنكر الشعراء هذا النوع من الزواج إذا كان فارق السنوات كبيراً بين العروسين، أو أرغمت الفتاة على قبوله. من ذلك قول أبي العلاء المعري:

المال حللٌ كلٌّ غير محللٍ ♦♦ حتى زواج الشيب بالأبكارِ
ما زُوِّجت تلك الفتاة وإنما ♦♦ بيع الصبا والحسنُ بالدينارِ

وللشاعر معروف الرصافي قصيدة رائعة عنوانها "حرية الزواج عندنا"، عبر فيها بحرية وصراحة عن رأيه في العادات التي ترغم الفتاة

على الزواج، أو تقدمها لمن يدفع أعلى مهر. اخترت للقارئ الكريم من هذه القصيدة الأبيات التالية:

ظلموك أيتها الفتاةُ بجهالهم

إذ أكرهوك على الزواج بأشيباً

طمعوا بوفر المالِ منه فأدخلوا

بفضولِ هاتيك المطامعِ أشعباً

قلب الفتاة أجل من أن يُشتري

بالمال لكن بالمحبة يُجتبى

أتباعُ أفئدة النساء كأنها

بعض المتاعِ وهن في عهد الصبا

إنَّ الزَواجَ مَحَبَّةٌ فإذا جرى

بسوى المحبة كان شيئاً مُتعباً

لا مهرٌ للحسناء إلا حُبُّها

فحبُّها كان القرانِ مُحَبِّباً

خير النساءِ أقلُّها لخطيبها

مهراً وأكثرها إليه تُحَبِّباً.

ويصور لنا أبو ماضي حالة مماثلة تتعلق بفتاة في شرح شبابها، أجبرها أهلها على الزواج من رجل مسن، ويتحدث الشاعر بلسان حالها فيقول:

لي بَعْلٌ ظَنُّهُ الناسُ أبي ♦♦ صدقوني أنه غيرُ أبي

- ♦♦ أنا لو يعلم أهلي دُرَّةً ♦♦ ظَلِمْتَ فِي الْبَيْعِ كَالْمَخْشَلِيبِ
 ♦♦ أَخَذُوا الدِّينَارَ مِنِّي بَدَلًا ♦♦ أَتْرَانِي سَلْعَةً لِلْمَكْسَبِ؟
 ♦♦ أَشَيْبٌ لَوْ أَنَّهُ يَخْشَى الدُّجَى ♦♦ شَابٌ دُعْرًا مِنْهُ رَأْسُ الْغَيْهَبِ
 ♦♦ لَيْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوْمِ مِنْ ♦♦ فُرْقَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَشْيَبِ
 ♦♦ يَا لَهُ فَظًا كَثِيرَ الْحُزْنِ لَا ♦♦ يَعْرِفُ الْأُنْسَ قَلِيلَ الطَّرِبِ
 ♦♦ يُخْضِبُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ عَبَثًا ♦♦ لَيْسَ تَخْفَى لَغَةً الْمُسْتَعْرِبِ

وهذه قصة واقعية (وما أكثر مثلها) لحالة طلاق بالثلاث صدر عن زوج غاضب، فاضطرت الزوجة الشابة إلى مفارقة زوجها، وهي تندب حظها. وندم الزوج على فعلته فراح يبكي زوجته ويتحسر على فراقها. وبعد أن يصف لنا الشاعر موقف الزوجين المحزن بأسلوب عاطفي مؤثر، ينتقل إلى انتقاد المتشددين في الفتاوي الدينية.

يقول الرصافي:

- ♦♦ وطلقها على جهل ثلاثاً ♦♦ كذلك يجهل الرجل الغضوبُ
 ♦♦ وأفتى بالطلاق طلاق بتُّ ♦♦ ذوو فتيا تعصبهم عصبُ
 ♦♦ فبانة عنه لم تأت الدنيا ♦♦ ولم يعلق بها الذام المعيبُ
 ♦♦ فضلت وهي باكية تنادي ♦♦ بصوتٍ منه ترتجفُ القلوبُ
 ♦♦ لماذا يا لبيب صرمتِ حبلِي ♦♦ وهل أذنبتُ عندك يا لبيب؟
 ♦♦ فأطرق رأسه خجلاً وأغضى ♦♦ وقالَ ودمعُ عينيه سكوبُ
 ♦♦ لبيبة أقصرى عني فإني ♦♦ كفاني من لظى الندم اللهبُ
 ♦♦ وما والله هجرُك باختيارِي ♦♦ ولكن هكذا جرت الخطوبُ
 ♦♦ فليس يزولُ حبك من فؤادي ♦♦ وليس العيشُ دونك لي يطيبُ

حول المرأة

أبدع الشعراء في وصف المرأة، وشمل وصفهم جميع أعضائها من شعرها حتى قدميها. قال امرؤ القيس من معلقته يصف شعر صاحبه ويشبهه بعذق النخلة المتشعب:

- ♦♦ وَفَرَعِ يَزِينُ الْمَثْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ♦♦ أَثِيثٌ كَقَنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثِّكِلِ
 ♦♦ غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا ♦♦ تَضِلُّ الْعِقَاصُ فِي مُتْنِي وَمُرْسَلِ

وقال بكر بن النطاح عن فتاة تبدو بيضاء ساطعة وسط شعرها الذي يشبه ليلاً مظلماً:

- ♦♦ فكأنها فيه نهاراً ساطعٌ ♦♦ وكأنه ليلٌ عليها مظلمٌ

وكثيراً ما يشبه الشعراء وجه المرأة بالصبح وشعرها بالليل.

قال دوقلة المنبجي:

فألوجه مثل الصبح مبيضٌ

والشعر مثل الليل مسودٌ

ويقول جرير عن العيون الساحرة التي تصرع الرجل القوي العاقل:

إن العيون التي في طرفها حور

قتلنا ثم لم يحيين قتلائنا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به

وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

ويصف عمر بن أبي ربيعة فم صاحبه بأنه مثل الأحمق، فإذا
ابتسمت بدت أسنانها بيضاء كالبرد، وهو إلى ذلك يمج رائحة المسك:

يمجُّ ذكي المسك منها مفلجٌ

رقيق الحواشي ذو غروبٍ مؤشُرُ

تراه إذا تفرّغ عنه، كأنه

حصى بردٍ أو أحمق وانّ منورُ

ويصف إسماعيل صدقي ثغر من شغف بها بأنه دافئ ورقيق،
يكاد يذويه التقيل:

ورقة تُغرد دافئٍ لو لئمتُهُ ♦♦ لَخَفْتُ عَلَيْهِ رِقَّةً يَتَهَشَّمُ

ويشبه بشار بن برد حديث امرأة بالرياض المزدهرة وسحر هاروت:

وكان رجوع حديثها ♦♦ قطع الرياض كسین زهراً

وكان تحت لسانها ♦♦ هاروت ينفث فيه سحراً

ويتذكر الشاعر يوسف بن هارون في البيتين التاليين ليالي قضاها
ويده اليمنى تحمل الكأس والأخرى تمسك نهد كاعب كتفاح اللجين:

ليالي يميني تقبض الكاس مرة ♦♦ وأخرى لها قبض على نهد كاعب
نهود كتفاح اللجين كأنها ♦♦ لتدويرها قد أفرغت في قوالب

أما الأعشى فيشبه ثديي صاحبه قتيلة بالرمانتين:

وثديان كالرومانتين وجيدها

كجيد غزال غير أن لم تعطل

ومن الأوصاف الجميلة والمطلوبة التي تتكرر كثيراً بصدد الحديث عن
جسم المرأة، كونها ذات أرداف ممتلئة مخضبة، وخصر نحيف مجذب.

يقول المعتمد بن عباد:

وكم ليلة بيت أنعم جنحها ♦♦ بمخصبة الأرداف مجذبة الخصر

ويقول عمر بن أبي ربيعة عن موصوفته إن القميص لا يمس بطنها
لبروز نهديها، ولا يلامس خصرها بسبب ردفها الممتلئين:

أبت الروادف والثدي لقمصها ♦♦ مس البطون وأن تمس ظهورا

ولا ينسى الشعراء أن يتحدثوا عن طيب أنفاس المحبوبة التي
تملأ المنزل عطرا، يزيد النفس إقبالا عليها.

يقول بشار عن جارية:

غراء حوراء من طيب إذا نكته ♦♦ للبيت والدار من أنفاسها أرج

ويقدم لنا الشاعر إلياس فرحات صورة مغرية عن موصوفته، فهي
لطيفة هادئة كالحمل، حوى ثغرها طعم العسل ... إلخ:

ففي خُلُقها كلُّ لطفِ النسيم ♦♦ وفي خُلُقها كلُّ أنسِ الحَمَلِ
وفي شَعْرِها كلُّ عِطْرِ الرياضِ ♦♦ وفي ثَغْرِها كلُّ طَعْمِ العَسَلِ!
وفي لَفْظها خَيْرُ ما في الكُرُومِ ♦♦ وما في كُتُوسِ قُسُوسِ الجَبَلِ
وفي وَجْنتيها، وفي مَقَلَّتَيْها ♦♦ خِضابُ الحياءِ وتُورُ الأَمَلِ

وجمع أحد الشعراء في محبوبته من الحكمة، والجمال، والعبقة وحسن الصوت، ما عرف عن أشخاص يضرب بهم المثل في هذه الأوصاف:
لها حكمٌ لقمان وصورَةُ يوسفٍ ونغمةُ داودٍ وعِفَّةُ مريم

ويقول أبو القاسم الشابي عن صاحبتة إن جميع حركاتها لحن متناسق، حتى "لفتة الجيد واهتزاز النهود".

كل شيء موقَّع فيك حتى ♦♦ لفتة الجيد واهتزاز النهود

ويؤكد محمود حسن إسماعيل لمحبوبته أنها كل شيء مهم في حياته في البيتين التاليين:

أنتِ كَأسي وكرمِتي ومدامي

والطَّلَا من يديك سَكْرٌ محللٌ

أنتِ فجرى على الحقولِ، حياة،

وصلاة، ونشوة، وتهلُّ

غير أن المرأة لم تكن تمثل عند الشاعر دائماً ذلك الإنسان اللطيف البريء، والرفيق المبهج، بحديثه المنعش، وعيونها الساحرة ... إلخ بل

كثيراً ما تحدث الشعراء كذلك عن صفاتها السلبية وتصرفاتها المزعجة، وعن عنادها ومماطلتها.

يقول مالك بن كعب الخزرجي في هذا الصدد:

إن النساءَ متى يُنْهَيْنَ عن خُلُقٍ ♦♦ فإنه واجبٌ لأبَدٍ مَفْعُولٌ
وما وَعَدْتِكُ من شَرٍّ وَفَيْنَ به ♦♦ وما وَعَدْتِكُ من خَيْرٍ فَمَمْطُولٌ

وقال أبو الطيب المتنبى مشيراً إلى أنه لا يدوم للمرأة عهد، وأنها متطرفة في حبها وفي حقها:

إذا غدرتُ حَسَناءُ وَفَتٌ بِعَهْدِها ♦♦ فمن عَهْدِها أَنْ لا يَدُومُ لها عَهْدُ
وإن حَقَدتُ لم يَبْقَ في قَلْبِها رِضَى ♦♦ وإن رَضِيتُ لم يَبْقَ في قَلْبِها حَقْدُ

وقال أبو تمام عن غدر المرأة، ويلاحظ ما في تعميمه من مبالغة:

فلا تَحْسَبَنَّ هِنْدًا لها العَدْرُ وحدها ♦♦ سَجِيَّةُ نَفْسِ، كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ

ويصور المتنبى، في البيت التالي، المرأة بمخلوق مظهره مضيء واضح ولكنه يخفي باطناً غامضاً مظلماً:

وَمَنْ خَبَرَ الغَواني فالغواني ضياءٌ في بَواطِنِه ظَلَامُ

وهذا علقمة بن عبده يؤكد لنا في إحدى قصائده بأنه خبير بأحوال النساء؛ ويقول بأن الرجل إذا شاب رأسه أو قل ماله فلا نصيب له من حبهن:

إذا شابَ رَأْسُ المرءِ أو قَلَّ مَالُه ♦♦ فَلَيْسَ له في وُدْهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ نِراءَ المَالِ حيثُ عَلِمْنَهُ ♦♦ وَشَرْحُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ

وبصدد هروب المرأة ممن قل ماله أو شاب رأسه، يقول ذو الرمة:

أَرَاهُنَّ لَا يُحِبِّبُنَّ مَنْ قَلَّ مَالُهُ ❖❖ وَلَا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيهِ وَقَوَّسًا

ويحذر بعض الشعراء من أن يختار الرجل المرأة على أساس المظهر وحده⁽¹⁾، يقول أحدهم كم في الزهور الجميلة من سموم، وكم في الأعشاب المتواضعة من علاج للنفس والبدن:

بِنَاتُ حَوَاءَ أَعْشَابٍ وَأَزْهَارُ ❖❖ فَاسْتَلْهِمِ الْعَقْلَ وَانظُرْ كَيْفَ تَخْتَارُ
وَلَا يُغْرِّكَ الْوَجْهُ الْجَمِيلُ فَكَمْ ❖❖ فِي الزَّهْرِ سُمٌّ وَكَمْ فِي الْعَشْبِ عَقَّارُ

(1) وهذا ينطبق على الرجل كذلك.

الأهل والأقارب

لأمية بن أبي الصلت أبيات جميلة ومعبرة، وكأنه يتحدث باسم كثير من الآباء الذين عانوا من عقوق الأبناء وإساءة تهم إليهم. فهو يخاطب ابنه قائلاً لقد غذيتك مولوداً ويافعاً .. وكم سهرت لمرضك، وتألّمت لأملك، ثم يقول:

فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي ❖❖ إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي مِنْكَ جِبْهًا وَغَلْظَةً ❖❖ كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعَمُ الْمَتَفَضَّلُ

ويشكو الشاعر فرعان بن الأعراف بمرارة من ابنه الذي أساء معاملته، وهو الذي أحسن إليه ووفر له أسباب الحياة. وقد بلغ الأمر بهذا الأب الشاعر أن يدعو الله أن يجازي ابنه شراً لأنه أساء معاملته:

تَفَمُّدٌ حَقِّي ظَالِمًا وَلَوْ يَدِي ❖❖ لَوْ يَدُهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ

وهناك قصائد كثيرة تعالج موضوع العلاقات بين الأهل والأقارب ومعظمها يدعو إلى تحمل إساءة ذوي القربى، ومقابلتها بالعضو والإحسان، وإلى مواجهة ما قد يتصف به الأقارب من حسد أو حقد أو عداوة، بالحلم والصبر، لأن هذا هو أحسن سبيل لإصلاح ذات البين.

يقول معن بن أوس من قصيدة شهيرة وجميلة:

وذي رحمٍ قَلَّمْتُ أظفار ضيفنه ♦♦ بحلمي عنه، وهو ليس له حلمٌ
يُحَاوِلُ رَغْمِي، لا يحاول غيرُهُ؛ ♦♦ وكالموتِ عندي أن يَحُلَّ به الرَّغْمُ
ويشتم عرضي في مغيبي جَاهدا ♦♦ وليس له عندي هوان ولا شتمٌ

ويقول المقنع الكندي واصفاً مواقفه تجاه بني أبيه وبني عمه ممن
أساءوا إليه:

فإن يأكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ♦♦ وإن هدموا مجري بنيتُ لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظتُ غيوبهم ♦♦ وإن هم هؤوا غيبي هويتُ لهم رشدا

غير أن من الشعراء من يرى خلاف ذلك، ويدعو إلى مبدأ
المعاملة بالمثل، أو على الأقل إلى الابتعاد عن القريب الذي يسيء
معاملتنا، لأن القريب الذي لا يشدُّ أزرِك، ولا يحفظ عهدك، بل يتجاوز
ذلك إلى الإساءة إليك، لا يكون جديراً بحسن المعاملة.

يقول أبو تمام:

لا خير في قريبي بغير مودة ♦♦ ولرب منتفع بؤد الأباعد

ويقول شاعر آخر:

أخوك الذي إن تدعه للمة ♦♦ يجبك، وإن تعضب إلى السيف يفضب

ويقول المتنبي في هذا الموضوع:

وأنف من أخي لأبي وأمي ♦♦ إذا لم أجده من الكرام

ورب جار أقرب إلى نفسك، وأشد صلة بك من أخ أو ابن عم

بعيد. بل قد يحسدك الأقارب، أو ينافسونك أو ينازعونك على ميراث،
أو يكيّدون لك، ورب أخ لم تلده أم.

يقول ابن كلدّة الثقفي:

وفي الناس من يغيث الأباعد نفعه ♦♦ ويشقى به حتى الممات أقاربه
فإن يك خيراً فالبعيد يناله ♦♦ وإن يك شراً فابن عمك صاحبه

وقديماً قال طرفة بن العبد:

وظلم ذوي القري أشد مضاضة

على الحر من وقع الحسام المهند

فليس سواء أن يصيبك سهم من رجل غريب، وسهم أخيك أو ابن
عمك. وفي قول الشريف الرضي ما يؤكد المرارة التي شعر بها، وعبر
عنها، طرفة من ظلم ذي القربى.

يقول الشريف الرضي:

للدلّ بين الأقربين مضاضة ♦♦ والدلّ ما بين الأباعد أروح
وإذا رمتك من الرجال قوارص ♦♦ فسهاّم ذي القربي القريبة أجرح

ولا شك في أن الأمثلة السابقة لا تدعو إلى التعميم، لأن السائد في
المعاملة بين الأقارب هو التفاهم والتعاون والتسامح والمودة. ولذلك
يطيب لي أن أذكر في هذه العجالة كلمات للشاعر القروي تمثل مدى
التقدير والمحبة والاعتراف بالجميل الذي تحظى به الأم:

وَلَوْ عَصَفَتْ رِيَّاحُ الْهَمِّ عَصْفًا
وَلَوْ قَصَفَتْ رُعُودُ الْمَوْتِ قَصْفًا
فَفِي أذُنِي عِنْدَ النَّزْعِ صَوْتُ
يُحَوِّلُ لِي عَزِيفَ الْجَنِّ عَزْفًا

فِيطْرُبُنِي. وَذَلِكَ صَوْتُ أُمَّي

ولأحمد شوقي أبيات يتحدث فيها عما تكنه البنات لأقاربهن من مودة وحنان، وما تقدمنه لهم من خدمات.

يقول أمير الشعراء:

إِنَّ الْبَنَاتِ ذَخَائِرَ مِنْ رَحْمَةٍ ♦♦ وَكَنْوَزُ حُبِّ صَادِقٍ وَوَفَاءٍ
وَالسَّاهِرَاتُ لِعَلَّةٍ أَوْ كَبْوَةٍ ♦♦ وَالصَّابِرَاتُ لَشِدَّةٍ وَبَلَاءٍ
وَالْبَاكِيَاتُ حِينَ يَنْقَطِعُ الْبُكَاءُ ♦♦ وَالزَّائِرَاتُكَ فِي الْعِرَاءِ النَّائِي

ولعل أحسن ما يختم به هذا الموضوع هو العودة إلى قصيدة معن بن أوس التي تعتبر نموذجاً في مكارم الأخلاق. والقصيدة، كما سبقت الإشارة، تعالج معاملة "ذي رحم" كان معن بن أوس يقابل إساءته بالإحسان، ويصبر على تعسفه وشططه، ويحنو عليه ويتودد إليه، إلى أن استطاع أن يستل الحقد من قلبه، ويطفئ نار الغيرة والحسد في صدره.

يقول معن بن أوس:

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْنِي لَهُ وَتَعْطُفِي ♦♦ عَلَيْهِ، كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَالِدِ الْأُمُّ
وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءٍ مِنْهُ تَرْبِيُنِي ♦♦ وَكُظْمِي عَلَى غِيظِي، وَقَدْ يَنْفَعُ الْكُظْمُ
فَأَطْفَأَتْ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؛ ♦♦ فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ، وَهُوَ لَنَا سَلْمٌ

الطفل

تحدث الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدته التي ألقاها أمام
"جمعية الطفل" عن رعاية الطفل، ودعا إلى إنقاذه من البؤس
والشقاء، فقال:

أنقذوا الطفل، إن في شقوة الطف ❖ لـ شقاء لنا على كل حال

وأشار إلى ما يحدثه الفقر والشقاء من آثار سلبية على سلوك
الأطفال:

ربّ بؤس يخبث النفس حتى ❖ يطرح المرء في مهاوي الضلال

وكم من فقير ویتيم أصبح عالماً أو بطلاً أو مصلحاً، كما يقول
حافظ إبراهيم، مكرراً دعوته لرعاية الأطفال:

أنقذوه، فربما كان فيه

مصلح أو مفا مر لا ييالي

ويؤكد لنا أمير الشعراء، أحمد شوقي هذا المعنى، موضحاً أن
العناية بالطفل تجعل منه عضواً صالحاً، كما أن إهماله قد يسبب
مشاكل وأضراراً للمجتمع:

فربُّ صغير قوم علموه ❖ سما وحمى المسومة العرابا

وكان لقومه نفعاً وذخراً ❖ ولو تركوه كان أذى وعابا

ويشبه ابن خفاجة الأندلسي الطفل بالبذرة الصغيرة، التي تصبح
دوحة عظيمة إذا تمت رعايتها، وينصح المربين بتوجيه الأطفال وتنمية
عقولهم بالكلمة الطيبة التي تزيدهم ثقة بأنفسهم:

سدّد مرامي الطفل في شأنه ❖ بلفظة تشدّد بها أزره
أما ترى النيران من شعلة ❖ والدوحة اللفاء من بزره

ويقول معروف الرصافي في قصيدة عنوانها "الحياة الاجتماعية
والتعاون" إن الحياة صراع، والغلبة فيها للقوي، وما علينا إلا أن نُعدَّ
الجيل للفوز في هذا الصراع:

وما هذي الحياة سوى صراع

يتمّ بـ فوز مفتول الذراع

وما سادت شعوب الخلق إلا

بتهيئة البنين لـذا الصراع

ويتحدث أحمد رامي عن فرح الأسرة عندما يُشرق عليها طفل،
ثم يقول:

ومشى الطفل في الربوع صبيّاً ❖ يقبس المجد من سنا الأجداد

ثم أضحى فتى يتوق إلى الفهد ❖ ثم ويمضي في سبيل الرشاد

ويصف أبو القاسم الشابي الطفولة بأنها "حلم الحياة"، ويقول:

إن الطفولة حقبلة شـعرية بشـعورها
ودموعها ، وسرورها، وطموحها، وغرورها ...
لم تمش في دنيا الكآبة، والتعاسة، والعذاب
فترى على أضوائها ما في الحقيقة من كذاب.

الجار

يفتخر الشاعر العربي بأنه يحمي جاره ويدافع عنه، فيصبح آمناً
عزيزاً مكرماً، ويهجو خصمه الذي يظل جاره جائعاً أو مهاناً، ومن
ذلك قول السموءل:

فأحمي الجارَ في الجلى فيمسي ♦♦ عزيزاً لا يُرامُ، إذا حميتُ

ويقول أبو تمام، مفتخراً، بأنه يحمي جاره فلا يجرؤ أحد على
إيذائه:

فجارك عند بيتك لحم ظبي ♦♦ وجاري عند بيتي لا يرامُ

ومن دلائل احترام الجار أن الشاعر العربي لا يدخل منزله أثناء
غيابه، ولا يكثر الحديث مع جارته إذا غاب بعلمها.

يقول المقنع الكندي:

أرى دارَ جاري إن تغيب حقبلة ♦♦ عليّ حراماً بعده إن دخلتها
قليل سؤالي جارتني عن شؤونها ♦♦ إذا غاب ربُّ البيت عنها هجرتها

ويُكرّم مسكين الدرامي جاره حقّ التكريم، فيقدم له من طعامه
قبل إطعام نفسه، ويغض الطرف فلا يكشف عورة جارته:

ناري ونارُ الجارِ واحدة ♦♦ وإليه قبلي تُزلُّ القدرُ

أعمى إذا ما جارتى برزت ❖ ❖ حتى يُغَيَّبَ جارتى الخدُرُ

ويقول حاتم الطائي في المحافظة على عرض الجار:

بعينيَّ عن جارات قومي غفلة ❖ ❖ وفي السمع مني عن حديثهم وقرُ

وينصح أبو العلاء المعري الجار، إذا أراد أن يصعد جدار منزله، بأن يستأذن جاره، حتى لا يكتشف عورات أهله:

إذا شئت أن ترقى جدارك مرّة ❖ ❖ لأمر، فأذن جار بيتك من قبلُ
ولا تفجأئه بالطلوع، فريماً ❖ ❖ أصاب الفتى من هتك جاريته خبلُ

ابتلى رجل بجار شرير، نغص عليه حياته وأقلق راحته، فباع منزله بثمن رخيص. ولما سئل عن ذلك قال:

يلوموني أن بعث بالرخص منزلي ❖ ❖ وما علموا جاراً هناك يُنغصُ
فقلت لهم كفوا الملام فإنما ❖ ❖ بجيرانها تغلو الديار وترخصُ.

العيد

العيد مناسبة الأفراح والمسرات، والتمتع بقاء الأهل والأحباب، وهي مناسبة تناولها الشعراء فنظموا القصائد لتهنئة الأصدقاء وذوي السلطة، وكذلك لمعالجة بعض المشاكل الاجتماعية والسياسية. فتحدثوا عن ظروف الفقراء والمحرومين والمنكوبين؛ وعبر من كان منهم بعيداً عن الوطن والأحباب عن أشواقه ووحدته وحزنه. وكثير من هؤلاء يرددون بشيء من الألم قول المتنبي:

عيد، بأية حال عدت يا عيدُ؟

بما مضى، أم لشيء فيك تجديدُ

أمّا الأحياء فالبيداء دُونَهُمْ

فليت دونك بيذا دونها بيدي

وهذا ابن زيدون يعبر عن أشواقه وحزنه لبعده عن الأحباب والأهل والوطن، فيقول:

إن كان عادكم عيدٌ فرب فتى ❖ ❖ بالشوق قد عاد من ذكركم حزنُ

«فيم التعلل؟ لا أهل ولا وطن ❖ ❖ ولا نديم ولا كأس ولا سكن؟»

وفي الأبيات التالية لمعروف الرصافي، نجده يعبر عن حزنه، لأنه

يشاهد في مجتمعه فئتين من الناس: فئة الأغنياء الذين يتمتعون في الأعياد (وفي الأيام الأخرى) بجميع ملذات الحياة، وينعم أطفالهم بأغلى الملابس وأحلى المأكولات؛ وفئة الفقراء والمحرومين والأيتام والأرامل، ممن يقضون أعيادهم بحثاً عن لقمة العيش.

يقول الرصافي بمناسبة صباح يوم العيد:

أطل صباح العيد في الشرق يُسمعُ

ضجيجاً به الأفراحُ تمضي وترجعُ

صباحُ به تُبدي المسرةُ شمسها،

وليس لها إلا التوهمَ مَطْلَعُ

صباحُ به يختال بالوشى ذو الغنى،

ويُغورُ ذا الإعدام طمراً مرَقَعُ

صباحُ به يكسو الغنيُّ وليدهُ

ثياباً لها يبكي اليتيمُ المُضِيعُ

صباحُ به تغدو الحلائلُ بالحلي،

وتُرفضُ من عين الأراميلِ أدمعُ

وكما يدافع الشاعر عن الفئات المحرومة، نراه يناضل بشعره ضد الاستعمار والاحتلال والعدوان، في مناسبات الأعياد وغيرها. وهذا نموذج من قصيدة لعمر أبي ريشة يخاطب فيها يوم العيد قائلًا: كيف نلتاق بالبشاشة والترحيب، وشعبنا يعاني من احتلال المعتدين، وجراحه دامية، وحقوقه مهضومة، وكرامته مداسة:

يا عيدُ، ما افترثنفر المجد، يا عيدُ

فكيف تلقاك بالبشر الزغاريذُ

طالعتنا وجراح البغي راعفة

ومالها من أساة الحيّ تضيئُ

يا عيدكم في راوبي القدس من كبد

لها على الرفرف العلوويّ تضيئُ

ما أبعد هذه الصرخة اليائسة، من لسان شاعر يتألم لآلام شعبه فلا يأنس بيوم العيد، من قول البحتري يهنئ الخليفة المتوكل، ويصف خروج موكبه لصلاة العيد. حدث ذلك في عهد كان فيه المسلمون سادة أقوياء.

يقول البحتري:

بالبر صُمتَ وأنت أفضلُ صائمٍ ❖ وبسنة الله الرضية تُفطرُ

فانعم بيوم الفطر عيداً إنه ❖ يومٌ أغرُّ من الزمان مُشَهَّرُ

أظهرت عزَّ الملك فيه بجحفلٍ ❖ لجب يحاط الدينُ فيه ويُنصرُ

زُغْبَا

يقول الحريري:

لا تَزُرْ مَنْ تُحِبُّ فِي كُلِّ شَهْرٍ ❖ ❖ غيرِ يومٍ ولا تَزِدْهُ عَلَيْهِ
فاجتلاءُ الهلالِ في الشهرِ يومٍ ❖ ❖ ثمَّ لا تَنْظُرُ العيونُ إليه

حقاً، يزورنا شخص فنلقاه بالبشاشة والترحاب، نُعَانِقُهُ ونبتهج بلقائه، ويدق الباب شخص آخر، فنفتح الباب على مضض، وقد نشعر بالانزعاج والتبرم بهذه الزيارة.

يقول أحد الشعراء:

عليك بإقلال الزيارة إنها ❖ ❖ تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكاً

فإني رأيت القطر يسأم دائماً

ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكاً

وتكرار الزيارة ليس بالضرورة دليلاً على عمق المحبة، إذا استثنينا حالة العاشق الولهان. بل كثيراً ما يلجأ أفراد العائلة والأصدقاء إلى الإقلال من الزيارات حفاظاً على المودة.

يقول الحسين بن هبة الله الموصللي:

واني وإن أخرت عنكم زيارتي ❖ ❖ لعذر فإني في المودة أول
فما الودُّ تكرير الزيارة دائماً ❖ ❖ ولكن على ما في القلوب المعولُّ

ولا شك أن الإكثار من الزيارات يزيل عنها جانب الشوق والجدّة، ويجعلها حادثاً رتيباً أو مملاً، لا يزيدك قرباً عند من تزوره.

يقول عمر بن أبي ربيعة:

وصلِ الصديقَ إذا كلفت به ❖ ❖ واطوِ الزيارةَ دونَه غيباً
فذلك خير من مواصلةٍ ❖ ❖ ليست تزيدك عنده قرباً

فهل يمكننا أن نقول بأن "الزيارات" إذا كثرت، تكون شبيهة بالبطيخة التي تملأ السوق، وتنتشر في كل شارع فتتخفف قيمتها، وقد يملها الناس فيصدون عنها.

يقول أبو هلال العسكري في هذا المعنى:

مازلت تلقاه فضاق صدره ❖ ❖ وعاد من بعد الوصال هجره
من أكثر الغشيان خس قدره ❖ ❖ لو كثر الياقوت هان أمره

ويقول عمر بن الورد في لاميته:

غيب وُرُزُّ غباً تزد حباً فمن

أكثر الترداد أضناه الممل

ولكن هناك من يرى أن الإقلال من الزيارات أو الإكثار منها تحدده الظروف والعلاقات بين الناس.

قال السنجاري:

❖❖ إذا حَقَّقْتَ مِنْ خَلِّ وَدَاداً ❖❖ فَزُرْهُ وَلَا تَخَفْ مِنْهُ مَلالاً
❖❖ وَكُنْ كَالشَّمْسِ تَطَّلِعُ كُلَّ يَوْمٍ ❖❖ وَلَا تَكُ فِي زيارَتِهِ هالالاً

الحسب والنسب

العاقل من يفتخر بأفعاله، ويسود بأعماله ومنجزاته، أما من يعيش في ظلّ ما حققه أبوه وجدّه، فهذا دليل على عجزه وتقصيره.

يقول البحتري:

❖❖ ولستُ أعتدُّ للفتي حسباً ❖❖ حتّى يرى في فعّاله حسبه

بل إن الرجل الذي يفتخر بحسبه ونسبه يذمُّ نفسه، ويفضح أمره، لأنه يحاول أن يبني مركزه وسمعته على ما فعله أشخاص أصبحوا رفاتاً.

يقول مكزون السنجاري:

❖❖ وإنّ أشدّ الناس ذمّاً لنفسه ❖❖ إذا افتخروا - من بالرفات له الفخرُ

ويقول أبو الحسن التهامي:

لا تحسبن حسبَ الآباء مكرمة

لمن يقصر عن غايات مجدهم

الافتخار بالنسب، مثل البكاء على الأطلال، لا يبني مصنفاً أو مدرسة، ولا يُنتج قبلة .. وإنما تزدهر حياة المرء بما يقدم من أعمال

جلیلة، وخدمات ترفع شأنه وتغني حياته، وتتفع البلاد والعباد. وما أجمل قول المتوكل الليثي في هذا السياق:

لسنا، وإن أحسابنا كَرُمَتْ، ♦♦ يوماً على الأباء نَتَكَلُّ
نبنی كما كانت أوائلنا تبني ♦♦ ونفعل مثلما فعلوا

والواقع أنه لا يمكن للمرء أن يرث شرف آبائه ومفاخرهم، مثلما يرث ثروتهم. وما لم ينجز أعمالاً يفتخر بها، يكون كمن يعتبر نفسه شجاعاً أو كريماً أو عالماً لمجرد أن هذه الصفات توفرت في أجداده. ويعتبر هذا الشخص شجرة غير مثمرة يحولها الناس إلى حطب. وهذا ما يشير إليه ابن الرومي عندما يقول:

وما الحسب الموروث لا درّ درّه

بمُحْتَسِبٍ إِلَّا بآخر مكتسب

إذا العود لم يثمر، وإن كان شعبة

من المثمرات، اعتدّه الناس في الحطب

ويجيب معروف الرصافي من يقيمون وزنا للحسب والنسب، ويسألونه "ابن من أنت؟" بقوله:

قالوا ابن من أنت يا هذا فقلت لهم

أبي امرؤ جدّه الأعلى أبو البشر

ويسألون الشاعر "هل نال أبوك مجداً؟" فيجيب:

قالوا فهل نال مجداً؟ قلتُ واعجبي

أتسألوني بمجدٍ ليس من ثمري!

وإذا لم نعرف عائلة شخص ونسبه، ينصحنا بشار بن برد أجمل نصيحة:

وإذا جهلت من امرئ أعراقه

وقديمه فانظر إلى ما يصنع

الحزم والطموح

كثيراً ما يقف الشاعر موقف الناصح والمرشد والمعلم، فيحث على توخي الحزم فيما نروم، وعلى السعي والمثابرة لتحقيق الآمال وبلوغ الأهداف.

يقول أحد الشعراء:

الجِدُّ فِي الجِدِّ والحِرْمَانُ فِي الكَسْلِ ❖ ❖ فانصبُّ تُصَبُّ عن قريب غاية الأملِ

ويقول آخر في هذا الموضوع:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ❖ ❖ ولا ينال العلا من قدم الحذرا

وينصح بشار بن برد بترك التردد والتواني للضعفاء، والتحلي بالعزم والقوة طلباً للنجاح:

وخلَّ الهويني للضعيف ولا تكن ❖ ❖ نؤوماً فإن الحزم ليس بنائم

ويرى المتنبى أن الصعوبات تبدو سهلة أمام الرجل العظيم، كما أن المشاكل الصغيرة تبدو كبيرة في عين الرجل الضعيف:

وتعظمُ في عين الصغير صغارها ❖ ❖ وتَصغرُ في عين العظيم العظائمُ

ويقول أحمد شوقي إن الدنيا إنما تنال بالقوة، وإن الحزم والإقدام يسهلان المطالب المستعصية:

وما نيلُ المطالب بالتمني ❖ ❖ ولكن تُؤخذُ الدنيا غلاباً
وما استعصى على قوم منالُ ❖ ❖ إذا الإقدامُ كان لهم ركاباً

وهاهو ذا عنتر بن شداد، الذي كان يعتبر من العبيد، يحدثنا عن طموحه وهمته التي كانت فوق الثريا، فيقول:

إن كنتُ في عدد العبيد فهمتي ❖ ❖ فوق الثريا والسَّمَاءِ الأعزلِ

وكان موضوع قوة العزم والطموح وعلو الهمة مما افتخر به كثير من الشعراء، فلنستمع إلى أبي فراس وهو ينشد:

ونحنُ أناسٌ لا توسط بيننا ❖ ❖ لنا الصدرُ دونَ العالمين أو القبرُ

ويقول الطغرائي: إن الذليل هو الذي يرضى بالقليل من الحياة، وإن الرجل الخامل الذي يفضل السلامة لا يدرك المعالي:

حبَّ السلامة يثنى عزمَ صاحبه ❖ ❖ عن المعالي، ويفري المرء بالكسلِ

وعندما يسأل أبو القاسم الشابي الأرض: "أيا أمُّ هل تكرهين البشر؟" تجيبه قائلة:

"أُبَارِكُ فِي الناسِ أهلَ الطموحِ وَمَنْ يستلذُّ ركوبَ الخطرِ"

"وَألَعْنُ من لا يماشِي الزمانَ، ويقنع بالعيشِ عيشَ الحَجَرِ"

"هو الكونُ حيٌّ، يحبُّ الحياةَ ويحترق الميْتِ، مهما كَبُرَ"

"فلا الأفقُ يحضنُ ميْتَ الطيورِ، ولا النحلُ يلبثُ ميْتَ الزهرِ".

وعلى أيِّ حال، تجدر الإشارة إلى أن التحلي بخصلتي الحزم

والطموح ليس معناه الاندفاع دون ترو، والإقدام دون تدبير أمور الحياة ومشاكلها، بل كما يقول صفي الدين الحلي:

وأحزم الناس من لومات من ظمأ ❖ ❖ لا يقرب الورْدَ حتى يعرفَ الصدرًا

ولقد أحسن شاعر آخر قدم لنا نصيحة في هذا المجال:

ولا تأتِ أمرًا لا ترجى تمامه ❖ ❖ ولا موردًا ما لم تجد حسن مصدرٍ

ويرى الشريف الرضى أن عليه أن يسعى، أن يشدَّ رحاله، وأن يسدد نباله، أما تحقيق النتائج وبلوغ الأهداف فتحددها الأقدار والحظوظ:

عليّ سداد نبلي يوم أرمي ❖ ❖ ورب النبيل أعلم بالمصيب
ولي حثُّ الركاب وشد رحلي ❖ ❖ ومالي علم غامضة الغيوب
وما يغني مضيك في صعود ❖ ❖ إذا ما كان جدك في صبوب

الحياة إذاً عمل وحزم وعزيمة وطموح (في حدود الإمكانيات)، وليست الحياة أحلاماً وتمنيات يرسلها المرء في خياله، ويكررها على مسامع أهله وأصدقائه.

كما قال المتنبي:

تريدين لقيان المعالي رخيصةً

ولابدّ دونَ الشهد من إبر النحل

ويحضرني في هذا المقام قول شاعر النيل حافظ إبراهيم:

لا تظنُّوا العيشَ أحلامَ المنى ❖ ❖ ذلك عهدٌ قد تولى وانصرم
هو حربٌ بين فقر وغنى ❖ ❖ وصراعٌ بين بُرءٍ وسقم
فانفضُّوا النومَ وجِدُّوا للعلا ❖ ❖ فالعلاء وقفٌ على مَنْ لم ينم.

الآمال والأمانى

الآبيات التي أوردتها فيما يلي لا تعني بالضرورة أن الشاعر تبنى وجهة نظر واحدة تفاؤلية أو تشاؤمية تجاه الحياة. فالشاعر إنسان أكثر حساسية لما يحوط به من ظروف الحياة ولما يواجهه من مشاكلها.

ولهذا نقرأ لهم آراء متباينة في التمسك بالآمال والأمانى أو انتقادها وفقاً لتباين ظروفهم النفسية وتقلبات الحياة. ومن الآبيات الشهيرة التي قيلت في تقبل الأمل قول الطغرائي:

أعلل النفس بالآمال أرقبها ❖❖ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ومما قيل في توجيه النفس نحو الأفكار الإيجابية والخيالات التفاؤلية، التي تشجعها على التطلع إلى المستقبل بحماس قول لبيد:

وأكذب النفس إذا حدثتها

إن صدق النفس يزري بالأمل

ومن سمات الشخص المتفائل أنه لا يستسلم للفشل بسهولة، بل يواصل العمل بعزم وحماس، راجياً أن يحقق ما يصبو إليه.

قال الشريف الرضى:

إذا ما اليأسُ خيَّبنا رجونا ❖❖ فشجعنا الرجاءُ على الطلاب

ومن أحسن ما قيل في الآمال والأمانى أنها تحفز من يتجه نحو هدف، وهو رأى الشريف الرضى كذلك:

فما التَّدْ طَعْمَ السَّيْرِ إِلَّا بِمَنِيَّةٍ

وإنَّ الأمانى نَعْمَ زادُ المُسافرِ

ونلاحظ في البيتين التاليين أن ابن الخياط لا يرى جدوى في التمسك بالأمانى، لأنها هي نفسها خاضعة لتقلبات القضاء والقدر والحظ:

نفضتُ يدي من الآمالِ لَمَّا ❖❖ رأيتُ زمامها بيد القضاء
وما تنفك معرفتي بحظِّي ❖❖ تُريني اليأسَ في نفس الرجاء

وعثرت على بيت لإبراهيم الغزي يقول فيه: إن الأمانى ليست أساساً سليماً لبناء الحياة:

على الأس بيني كل شيء سوى المنى ❖❖ فليس لما تبنيه منه قواعد

ويقول أبو تمام في هذا المجال:

من كان مرعى عزمه وهمومه ❖❖ روض الأمانى لم يزل مهزولاً

ويرى معروف الرصافي أن الأمانى أحلام فارغة، لا تحقق رغبة ولا تقرب هدفاً، ما لم يصاحبها الحزم والقوة:

دع الأمانى، أو زُمنٌ من ظُبُو ❖❖ فإنما هنَّ من غير الظبى حُلْمُ

الشباب وما بعده

كيف لا يبكي المرء زوال شبابه وهو ربيع عمره، وروضة لذاته، ومصدر قوته وحريته؟ وكيف لا ينفر من المشيب وهو مصدر العناء والضعف ونكد الحياة؟ الشباب أغصان رطبة، وثمار يانعة، وأضواء مبهجة؛ والمشيب بياض ذميم، وغصن يابس، شعر مخضب، ووجه مجعد، ولباس مرقع. الشباب حيوية واندفاع، ورغبة في الحياة؛ والمشيب أنين في النهار وشخير في الليل. الشباب ثوب جميل وسوق رابحة، ينعش الحياة والأحلام والأمان، ويشفع لدى الغواني؛ والمشيب خريف العمر، ينذر بالموت.

ولكم بكى الشعراء شبابهم، وتحسروا عليه بعد أن تولى وترك الفؤاد كئيباً، واختفى كأنه ضيف لا عودة له.

يقول الخريمي:

لعمري لقد بان الشبابُ وإتني ❖ عليه لمحزونُ الفؤادِ كئيبُ
وقلتُ لضيفِ الشَّيبِ لِمَا أَلَمَّ بي ❖ نصيبُك مِنِّي جَفْوَةٌ وقُطوبُ

أما الشاعر أبو حازم الباهلي فيتحسّر على زوال الشباب، مؤكداً أن الدنيا بكاملها لا تعادل يوماً من أيام الشباب. وكلما تذكر شبابه شعر بأنه تجدد ثكله:

ويقول مخائيل نعيمة إن الأمانى تضحك من صاحبها، وأن من يزرع الأمانى لا يحصد سوى الأمانى:

نتمنى وفي التمني شقاء ❖ وننادي ياليت كانوا وكُنَّا
ونصلي في سرنا للأمانى ❖ والأمانى في الجهر يضحكن منَّا

ويبدو قول المتنبي أكثر واقعية في هذا الموضوع:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ❖ تجري الرياح، بما لا تشتهي السفنُ

وظروف الحياة تشير إلى أن الرياح ظلت مصدر نشاط المراكب والسفن، مثلما ظل الأمل، وسيبقى حافظاً لنشاط الإنسان.

شَرَّخَ الشَّبَابِ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي أَسْفَاً ❖❖ ما جدُّ ذكرك إلا جدُّ لي ثكلُ

ويقول الأخطل في نفس المعنى، متحسراً على فقدان الشباب:

هل الشَّبَابُ الَّذِي قَد فَاتَ مَرْدُودُ ❖❖ أم هل دواءٌ يردُّ الشَّيْبَ موجودُ

لن يرجع الشَّيْبُ شُبَّاناً ولن يجيدوا ❖❖ عدلُ الشَّبَابِ لهم ما أوزقَ العودُ

ويبيدي مسلم بن الوليد حسرته على شباب لم تطل مدته، ولم

يشف منه غليله:

واهاً لأيام الصبى وزمانه ❖❖ لو كان أمتع بالمقام قليلاً

لو عاد آخره كأول عهده ❖❖ فيما مضى لم أشف منه غليلاً

ويبكي شعراء كثيرون على فقدان الشباب، ويتمنى أبو العتاهية في

البيت المشهور لو عاد الشباب ليشكو إليه ما فعل المشيب:

بكيْتُ على الشباب بدمع عيني ❖❖ فلم يغنِ البكاءُ ولا النحيبُ

ألا ليت الشباب يعود يوماً ❖❖ فأخبره بما فعل المشيبُ

ويقول الأحوص:

بكيْتُ الصِّبَاً جَهْدًا فَمَنْ شَاءَ لَا مَنِي ❖❖ ومن شاءَ وَاَسَى فِي الْبُكَاءِ وَأَسْعَدَا

وَإِنِّي وَإِنْ عَيَّرْتُ فِي طَلْبِ الصِّبَا ❖❖ لِأَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ فِي الْحُبِّ أَوْحَدَا

الشباب متعة ولهو وصحة ونشاط، ولا يقدر الشخص ذلك حق

قدره إلا بعد زواله، فيشعر عندئذٍ أن مصابه عظيم، ولا يبقى للمرء إلا

أن يحنَّ ويبكي، ولات حين مناص.

يقول منصور النمري:

مَا تَنْقُضِي حَسْرَةً مِنِّي وَلَا جَزَعُ

إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسَ يُرْتَجَعُ

بَانَ الشَّبَابُ وَفَاتَتْنِي بِشَرَّتِهِ

صُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خُدَعُ

مَا كُنْتُ أَوْفَى شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ

حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ

أَبْكَى شَبَاباً رُزِئْتَاهُ وَكَانَ وَلَا

تُؤَيِّ بِقِيَمَتِهِ الدُّنْيَا وَلَا تَسَعُ

الشباب، كما يقول ابن الرومي، نعم الزاد والصاحب والمؤنس:

بَانَ الشَّبَابُ وَنَعَمَ الصَّاحِبُ الْغَادِي ❖❖ وَكَانَ مَا شَتَّتَ مِنْ أَنَسٍ وَإِسْعَادِ

بَانَ الشَّبَابُ حَمِيداً، مَا ذَمَمْتُ لَهُ ❖❖ عَهْدًا، وَلَا دُمًّا مَا زَوَّدْتُ مِنْ زَادِ

بل هناك من يبكي على الشباب وهو لا يزال في ريعانه، لعلمه أنه

سيفارقه لا محالة.

يقول المتبني:

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمَتِّي ❖❖ مُسْوَدَةٌ وَمَاءٌ وَجْهِي رَوْنُقُ

حَدْرًا عَلَيْهِ قَبْلَ يَوْمِ فِرَاقِهِ ❖❖ حَتَّى لَكِدْتُ بِدَمْعِ عَيْنِي أَشْرُقُ

ويعدد لنا محمود مصطفى البارودي الأسباب التي تدفعه إلى

البكاء على شبابه، ومنها ضعف السمع والبصر، والحركة والهمة:

- كَيْفَ لَا أُنْدُبُ الشَّبَابَ؟ وَقَدْ أَمَدَ ♦♦ بَحْتُ كَهَلًا فِي مَحَنَةٍ وَاغْتَرَابِ
أَخْلَقَ الشَّيْبُ جَدَّتِي وَكَسَانِي ♦♦ خَلَعَةً مِنْهُ رَثَّةَ الْجَلْبَابِ
وَلَوْى شَعْرَ حَاجِبِي عَلَى عَيْنِ ♦♦ نِي حَتَّى أَطْلُ كَالْهُدَّابِ
لَا أَرَى الشَّيْءَ حِينَ يَسْنُحُ إِلَّا ♦♦ كَخِيَالِ كَأَنِّي فِي ضَبَابِ
وَإِذَا مَا دُعِيْتُ حَرْتُ كَأَنِّي ♦♦ أَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ
كَلِمَا رَمَتْ نَهْضَةً أَقْعَدْتَنِي ♦♦ وَنِيَّةٌ لَا تُقْلَهُ أَعْصَابِي
لَمْ تَدْعُ صَوْلَةَ الْحَوَادِثِ مِنِّي ♦♦ غَيْرَ أَشْلَاءٍ هَمَّةٍ فِي شَبَابِ

ووصف ابن الرومي الآثار التي أحدثها الهرم، فقد دبَّ الضعف في عظامه، وتحددت كدنته، وتعثرت خطواته، وتجنبته الغواني؛ ويستخلص بأن بكاء الطفل حين ميلاده إنما هو إيذان بما سيتعرض له من متاعب الحياة:

- أَقُولُ وَقَدْ شَابَتْ شَوَاتِي، وَقُوسْتُ ♦♦ قَنَاتِي، وَأَضَحَتْ كِدْنَتِي تَتَخَدُّ
وَدَبُّ كِلَالٍ فِي عِظَامِي أَدْبَنِي ♦♦ جَنِيبَ الْعِصَا أَنْأَدَ أَوْ أَتَأِيدُ
وَبُورِكَ طَرْفِي، فَالشَّخْوصُ حَيَالِهِ ♦♦ قَرَائِنَ - مِنْ أَدْنَى مَدَى - وَهِيَ
وَلِدَّتْ أَحَادِيثِي الرِّجَالِ، وَأَعْرَضْتُ ♦♦ سَلِيمِي وَرِيًّا عَنِ حَدِيثِي وَمَهْدُ
وَبَدَّلَ إِعْجَابِ الْغَوَانِي تَعْجُبًا ♦♦ فَهَنْ رَوَانٍ يَعْتَبِرْنَ وَصُدُّ
لَمَّا تَوَدَّنَ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ♦♦ يَكُونُ بَكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُولَدُ

ويُصوِّرُ شاعر آخر الشيخ، وهو يمشي منحنيًا مستنداً إلى عصاه، وكأنه قوس والعصى وتر:

- تَقْوَسَ بَعْدَ طَوْلِ الْعُمْرِ ظَهْرِي ♦♦ وَدَاسَتْنِي اللَّيَالِي أَيَّ دَوْسِ
فَأَمْشِي وَالْعِصَا تَمْشِي أَمَامِي ♦♦ كَأَنَّ قَوَامَهَا وَتَرَّ لِقَوْسِي

ويُعدُّ الحطيئة كذلك الآثار التي يتركها كبر السن فيقول:

- فَمَنْهَا أَنْ يُقَادَ بِهِ بَعِيرٌ ♦♦ ذَلُولٌ حِينَ يَهْتَرِشُ الضَّرَاءُ
وَمِنْهَا أَنْ يَنْوَأَ عَلَى يَدَيْهِ ♦♦ وَيُظْهَرُ فِي تِرَاقِبِهِ انْحِنَاءُ
وَيَأْخُذُهُ الْهُدَاجُ إِذَا هَدَاهُ ♦♦ وَلِيَدُ الْحَيِّ، فِي يَدِهِ الرِّدَاءُ

وربما عانى الشيخ من أهله وأقاربه، فتقصيه زوجته، ويجور عليه أولاده، ولا يبقى له إلا أن يلجأ إلى الله ويطلب المغفرة:

- إِذَا مَا أَسَنَّ الشَّيْخُ أَقْصَاهُ أَهْلُهُ ♦♦ وَجَارَ عَلَيْهِ التَّجْلُ وَالْعَبْدُ وَالْعَرَسُ
يَسْبَحُ كَيْمَا يَغْفِرُ اللَّهُ ذَنْبَهُ ♦♦ رَوِيْدِكَ فِي عَهْدِ الصَّبِيِّ مَلَى الطَّاسِ

ويخبرنا أحد الشعراء بأنه حصل الآن، وقد تجاوز سنَّ السبعين، على ملذات الحياة التي كان يتمناها في شبابه. ولكن أصبح المسكين عاجزاً عن التمتع بالحسان والسهرات والأطباق الشهية؛ بل لعله يحتاج إلى ممرضات.

يقول هذا الشاعر:

مَا كُنْتُ أَرْجُوهُ إِذْ كُنْتُ ابْنَ عَشْرِينَ

مَلَكْتُهُ بَعْدَ أَنْ جَاوَزْتُ سَبْعِينَ

تُطِيفُ بِي مِنْ بَنَاتِ الثُّرَكِ أَغْزَلَةٌ

مِثْلُ الْفُصُونِ عَلَى كُثْبَانِ يَبْرِينَا

يُرِدْنَ إِحْيَاءَ مَيِّتٍ لَا حَرَكَاءَ بِهِ ♦♦ فَكَيْفَ يُحْيِينَ مَيِّتًا صَارَ مَدْفُونًا

قالوا أنيئك طول الليل يُلقنا ♦♦ فما الذي تشتكى؟ قلت الثمانينا

والمعروف أن الغواني ينفرن من الشيب، إلا لحاجة في أنفسهن. والفتاة الحسناء تنادي الرجل المسن "يا عم" أو "يا حاج"، ولكن لكل حسناء فيما تحاول مذهب.

يقول سبط بن التعاويذي في هذا السياق:

وتفاخر البيض الحسان فأعرضت

عني سعاد وأنكرتني زينب

ويقول ابن خفاجة:

فياليتني كنت ابن عشر وأربع ♦♦ فلم أدعها بنتاً ولم تدعني عمّا

ويقول القطامي في هذا المقام:

وإذا دعوتك: عمهن، فلا تُجب ♦♦ فهناك لا يجد الصفاء مكاناً
نسب يزيدك عندهن حقارة ♦♦ وعلى ذوات شبابهن هواناً

ولعله من حق الرجل المسن أن يشعر ببعض الحسرة والأسى على رحيل شبابه إذا فقد الرغبة (وليس فقط القدرة) على التمتع بما يناسب ظروفه. وليست كل سنوات الشباب لذيدة مرحة صافية، وليست سنوات المشيب جميعها مملة قاتمة.

يقول أبو الطيب المتنبى:

وما كل أيام المشيب مريرة

وما كل أيام الشباب عذاب

ويصدق هذا القول خاصة إذا كان المرء سليم البنية، وقلبه مفعم بالحب والحيوية، فإنه يستطيع أن ينشد مع الفرزدق:

تقول العاذلات علاك شيب

أهذا الشيب يمنعني مراحى؟

ويجيب بدوي الجبل من سألته عن "آثار خمسين سنة" بأن الشباب كنز في القلب، كلما أنفقت منه تكاثرت عطاياه، ولا تطوي إحدى سجايا الشباب، حتى تنفجر سجايا أخرى من هذا القلب الذي يظل يحتفظ بشبابه مهما شاب الفودان:

أنسألين عن الخمسين ما فعلت ♦♦ يبلى الشباب ولا تبلى سجاياه
في القلب كثر شباب لا تفاد له ♦♦ يعطي ويزداد ما ازدادت
فما انطوى واحد من زهو صبوته ♦♦ إلا تفجر ألف في حناياه
هل في زواياه من راح الصبا عبق ♦♦ كل الرحيق المندى في زواياه
يبقى الشباب ندياً في شمائله ♦♦ فلم يشب قلبه إن شاب فوداه

الميراث

أضفتُ المقطوعات الشعرية التالية إلى هذه المجموعة، لما فيها من عبرة وموعظة لكل من جمع ثروة، وبلغ سنّاً متقدمة، ولم ينفق ماله ليمتع نفسه، ولمساعدة المحتاجين.

قال ابن يونس المنجم المصري:

وذي حرصٍ تراه يَلْمُ وَفِرّاً ❖ لوارثه وَيَدْفَعُ عَنْ جِماهُ
كَكَلْبِ الصَّيْدِ يُمَسِّكُ وَهُوَ طَاوٍ ❖ فَرِيستَهُ لِيَأْكُلَهَا سِواهُ

وكم شقي أناس لجمع الثروة، وتعبوا من أجل المحافظة عليها، ثم ماتوا وتركوا ما جمعوا للورثة:

وقسّموا المالَ وارْفُضْتْ عِوائِدُهُمْ ❖ وقال قائلهم مات ابنُ خَدّاقِ
هُونٌ عليك ولا تُولَعُ بِإِشْفاقِ ❖ فَإِنما ما نأنا للوارثِ الباقي

وقليلاً ما يحمد الورثة الشخص الذي ترك لهم الثروة، بل كثيراً ما يتنازعون عليها، ويكثر القيل والقال حولها.

قال أبو العتاهية:

أبقيتَ. مالِكِ ميراثاً لوارثه ❖ فليت شعريّ ما أبقى لك المالُ

القومُ بعدك في حالِ تسرهمُ ❖ فكيف بعدهمُ دارتُ بك الحالُ
ملوا البكاء فما يبكيك من أحيرِ ❖ واستحكّم القيلُ في الميراثِ والقالُ

ولماذا لا نقول للوارثين "هنيئاً لكم المال والمنازل والأراضي التي ورثتموها" كما يشير إلى ذلك أبو العلاء المعري في قوله:

فهنيء ولاة الميـت يوم رحيله

أصابوا تراثاً، واستراح الذي مَضَى

تعبٌ، سهرٌ، قلقٌ، توترٌ، نزاعٌ وتلهفٌ، إهمالٌ للأسرة وذوي الرحم
(وللذات أحياناً)، كل ذلك حرصاً على جمع المزيد من المال؛ ولكن لا بأس إذا كان ذلك من أجل "سعادة الورثة" بعد وفاة ربّ الأسرة.

يقول أحد الشعراء:

وتَراهُ يجمعُ مالَهُ ❖ جمعَ الحَريصِ لوارثينَا
يَسعى بأفْضِلِ سَعِيهِ ❖ فيصيرُ ذاكَ لقاءَـدينا

ويعرض علينا أبو العتاهية صورة للوارثين وهم ينتظرون متى يختفي العجوز الثري، لينعموا بما لم يتمتع به صاحب الثروة نفسه، ولعله لم يتمتع بها غيره أثناء حياته:

للهُ دَرُّ الوارثينِ كَأَنني ❖ بأخصهم متبرم بمكاني
قلقا يجهزني إلى دارِ البلى ❖ متحرياً لكرامتي بهواني



الشعر والحياة

القسم الثالث

**مسرح الحياة :
البيئة**



الأرض

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبَتَتْ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (سورة الحج آية 5)

المخلوقات محظوظة على سطح هذا الكوكب: دفء الشمس ونورها؛ بحار، سحب وأنهار؛ وهواء منعش، وأرض طيبة. هذه هي منابع الحياة في حضن هذه الأم الحنون، الأرض.

يقول محمود غنيم:

هي الطبيعة ما برّ الأنام بها

أمّا، وبرّت بهم من قبل أنجالاً

ولكن الأنانية والجشع يدفعان الإنسان إلى السعي، دون هوادة، إلى جمع الثروات، والسيطرة على أخيه الإنسان. وقد بدأت تظهر نتائج وخيمة لهذا السلوك الأحمق؛ وبدأ البشر يعانون من مشاكل خطيرة، بسبب تلوث الهواء والأنهار والبحار، وغيرها من منابع الحياة التي بقيت

صافية ظاهرة مئات ملايين السنين، قبل وجود ((الحيوان العاقل)).

عثرت على بيتين لابن رشيق القيرواني يشيد بكرم الأرض وحبها ((لأبنائها)).

يقول الشاعر:

سألت الأرض، لم كانت مُصلى ♦♦ ولم كانت لنا طُهرًا وطيبًا؟
فقالَتْ، غيرَ ناطقةٍ: لأني ♦♦ حويتُ لكلِّ إنسانٍ حبيبًا

لقد بدأت نواقيس الخطر تدق، منذرة بأن الأرض والبحار والأجواء بدأت تختنق بسبب ما ينشره الإنسان على سطحها وفي أعماقها من سموم. والواقع أنه ليس للإنسان عن هذا الكوكب بديل، وليس فقط كما قال أحدهم ((لا نبغي بها بدلاً)):

هي القرارُ، فما نبغي بها بدلا

ما أرحم الأرض، إلا أننا كفرُ

سحابة

الماء من العناصر الأساسية للحياة، سواء جاء من السحاب أو النهر أو البئر وغيرها. ولا شك في أن السحاب هو الآخر أصبح معرضاً للتلوث بالأدخنة والغازات السامة. أما السحابة التي يصفها لنا البحري فهي محظوظة، فلم تعان من التلوث. جاءت هذه السحابة مملوءة بالماء، وسط لمع البرق وقصف الرعد، فصدق وعدها وانتشرت مياهها، فأنعشت الوديان والربى، وأنعشت الحياة.

يقول البحري:

ذات ارتجاز بحنين الرعد ♦♦ مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجد ♦♦ لها نسيمٌ كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسر ♦♦ ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريحُ الصبا من نجد ♦♦ فانتثرت مثل انتشار العقر
فراحتُ الأرضُ بعيش رغد ♦♦ من وشي أنوار الربى في برد
كأنما غدرانها في الوهد ♦♦ يلعبن من حبابها بالنرد

الربيع

ماء المزن، ودفء الشمس، وكرم الأرض، يمزجها الربيع بعصاه السحرية، فتنتعش الأرض وتزدهر، وتبرز في أبهى حللها الملونة، كما يقول ابن الرومي، كأنها عروس:

تَبَرَّجَتْ بِعَدْحِيَاءٍ وَخَفِر ♦♦ تَبَّرَجَ الْأَنْثَى تَصَدَّتْ لِلذَّكْرِ

الربيع هو الفصل الذي تنشط فيه الحياة الكامنة في النبات والحيوان، والإنسان أيضاً. إنه فصل الحب الذي يعود فيه الزمان إلى شبابه.

يقول صفي الدين الحلي:

فصلٌ إذا افتخر الزمانُ فإنه

إنسان مقلته وبيت قصيده

ويؤثر الربيع على حياة الناس فيهتمون بالبيئة، وبالحدائق والبساتين، ويفتخمون الفرص للتمتع بجمال الطبيعة.

يقول أبو تمام:

دنيا معاش للورى حتى إذا

حلَّ الربيعُ فأئما هي منظرُ

الربيع أمير الفصول، ومنبع البهجة والنشاط، إنه شباب آخر في عمر الإنسان.

يقول صفي الدين الحلي:

فاصْرِفْ هُمُومَكَ بِالرَّبِيعِ وَفَصَلْهُ

إِنَّ الرَّبِيعَ هُوَ الشَّبَابُ الثَّانِي

ولأحمد شوقي أبيات رائعة في وصف الربيع، منها قصيدته
«الربيع والنيل» التي يقول فيها:

آذَارُ أَقْبَلِ، قُمْ بِنَايَا صَاحٍ ♦♦ حَى الرَّبِيعِ حَدِيقَةَ الأَرْوَاحِ
مَلِكُ النِّبَاتِ، فَكُلْ أَرْضِ دَارِهِ ♦♦ تَلْقَاهُ بِالأَعْرَاسِ والأَفْرَاحِ
مَنْشُورَةٌ أَعْلَامُهُ، مِنْ أَحْمَرٍ ♦♦ قَانَ، وَأَبْيَضَ فِي الرُّيِّ لِمَاحِ

وفي قصيدته «موكب الشعر»، يشبه الربيع بالأمير الذي يتجول في بستانه، بعد أن يرحب به في طلع القصيدة. ثم يشبهه بساحر بارع قاد الجداول، وأحيا الحدائق، وأنطق الطيور، وأبهج النفوس، إنه صنع الإله الذي جعله مسرة في الأرض، ونعما في السماء.

يقول شوقي:

مَرْحَباً بِالرَّبِيعِ فِي رَيْعَانِهِ ♦♦ وَبأنواره وطيب زمانه

نَزَلَ السَّهْلَ ضَاحِكِ البِشْرِ يَمْشِي

فِيهِ مَشْيُ الأَمِيرِ فِي بُسْتَانِهِ

سَاحِرٌ فَتَنَةُ العَيُونِ مَبِينٌ ♦♦ فَصَّلَ المَاءَ فِي الرِّبَا بِجَمَانِهِ
عَبَقَرِيُّ الخِيَالِ زَادَ عَلَى الطِّ ♦♦ يَفِ وَأرْبَى عَلَيْهِ فِي ألوانه
صَبْغَةُ اللّهِ! أَيْنَ مِنْهَا رَفَائِ ♦♦ يَلُ وَمِنْقَاشُهُ وَسَحْرَ بِنَانِهِ
نَعْمٌ فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ شَتَى ♦♦ مِنْ مَعَانِي الرَّبِيعِ أَوْ أَلْحَانِهِ

نرحب مرة أخرى بالربيع في حله المزركشة ومباهجه الممتعة، وبكل ما يحدثه من آثار طيبة في الإنسان والبيئة.

يقول صفي الدين الحلي:

وَرَدَ الرَّبِيعُ فَمَرَّ حَباً بِوُرُودِهِ ♦♦ وَبِنُورِ بَهْجَتِهِ وَنُورِ وُرُودِهِ
وَبِحَسَنِ مَنظَرِهِ وَطِيبِ نَسِيمِهِ ♦♦ وَأَنْيَقِ مَبْسَمِهِ وَوَشْيِ بَرُودِهِ

وستتناول بعض مظاهر الربيع، وما يحدثه من آثار منعشة ومبهجة، في موضوع الرياض والبساتين.

الرياض والبساتين

أجاد كثير من الشعراء رسم لوحات فنية للحدائق والرياض تزخر بالحياة، وكأننا إلى جانبهم نشاهد ما يُشاهدون وننعم بما ينعمون به. فالأرض لبست رداء أخضر؛ والرياض كأنها زرايٌ مفروشة بألوانها الزاهية، أو كأنها عروس ليلة زفافها؛ والأغصان تتمايل منتعشة كأنما يناجي بعضها البعض الآخر؛ والطيور تصدح بين الأغصان مثل الخطباء على منابرها؛ والزهور تتصافح وتتعانق نشوانة بألوانها الزاهية؛ والندى يبيل حدود الورد، كأنه حبات الجواهر؛ ومياه الجداول تتساب مترققة بين الأشجار؛ ونسمات تتساب فوق الأزهار تحمل نفحات الطيب، كأنها انغمست في المسك والكافور؛ والشمس تسطح أحياناً، ثم يخلفها رذاذ يزيد الجو انتعاشاً والزهور لمعاناً وبهجة.

يقول كشاجم:

أرثك يدُ الغيثِ آثارها ♦♦ وأعلنت الأرض أسرارها
فما تقع العين إلا على ♦♦ رياضٍ تصنّف أنوارها
كأن تفتحها بالضحى ♦♦ عذارى تحلّل أزارها
تفضّ لرجسها أعيناً ♦♦ وطوراً تحدقُ أبصارها
إذا مزنةً سكبت ماءها ♦♦ على بقعةٍ أشعلت نارها

ويصف الشعراء في لوحاتهم الفنية مناظر الحياة بأصواتها

وحركاتها وروائحها وأصنافها وألوانها، فالطيور "تخطب"، والسوسن يصفح الورد، وعناصر الحياة الأخرى تتبادل القبل والتحيات والأسرار.

يقول ابن سهل:

الأرضُ قد لبست رداءً أخضراً

والطُّل ينثر في رباها جَوْهرًا

هاجت فخلتُ الزهرَ كافوراً بها ♦♦ وحسبتُ فيها الترب مسكاً أذفراً
وكان سوسنها يُصافح وردّها ♦♦ تُغرّ يقبل منه خدّاً أحمرًا
والنهر ما بين الرياض تخالهُ ♦♦ سيفاً تعلّق في نجادٍ أخضراً
والطيرُ قد قامت به خطباؤها ♦♦ لم تتخذ إلا الأراكة منبرًا

وفي الأبيات التالية يقدم لنا صفي الدين الحلي صورة رائعة للأزهار في مختلف ألوانها، ونشاهد الظل يسرع في خطوة، والأغصان تتمايل وترقص نشوانة:

وتنوّعت بسطُ الرياض فزهرها ♦♦ متباين الأشكال والألوان
من أبيض يقي وأصفر فاقع ♦♦ أو أزرق صاف وأحمر قان
والظل يسرع في الخمائل خطوه ♦♦ والغصن يخطر خطرة النشوان
وكانما الأغصان سوق رواقص ♦♦ قد قيدت بسلاسل الريحان

الشجرة

” الزيتونة “ لمحمد العدناني

تزهو السهول والروابي بخضرتها، وتزداد الجبال والمروج جمالاً
وجلالاً بنضارتها؛ يتمتع الناس بثمارها ويحتمون بظلالها عندما يشتد
حر الصيف:

تَفِيضُ عَلَى رَوَابِينَا جَلالاً ♦♦ وَتَنْظِمُ السُّهُولَةَ وَالْجِبَالَ
وَتُورِقُ مِنْ نَضَارَتِهَا أمانٍ ♦♦ يَكادُ الدهرُ يُورِدُهَا الرُّوَالَ
وتَجْمَلُ ثُرَيْنًا تَبْرًا، وَتُهْدِي ♦♦ إِلَى مَنْ خَافَ هاجِرَةً ظِلالاً
وتَتَبَّتْ فِي السُّفُوحِ حَتَّى تُنَّ ♦♦ ضُرَّ وَجْهَهَا الْعَارِي جَمالاً
وفِيهَا لِلوَرَى نَفْعٌ عَمِيمٌ ♦♦ يَزِيدُ بِهَا جُمُوعَهُمْ احْتِفالاً

” تينة الجبل “ لأحمد الصافي النجفي

تقف على الجبل قوية صامدة شامخة، فهي مثل الفلاحة الشجاعة،
حياتها بسيطة متواضعة، ولكنها تجابه الطبيعة القاسية وظروف الحياة
الخشنة، وفي الختام، عندما تقطف الثمار تحرز قصب السبق:

نَبَّتْ فِي الْجِبَالِ دَوْحَةً تَيْنٍ ♦♦ وَقَفَّتْ مِثْلَ وَقْفَةِ الْجِبَارِ
فَهِيَ تَبْدُو كَأَشْعَثِ ذِي سِفَارٍ ♦♦ وَهِيَ تَحْكِي فِلاحةً فِي الْقَفَارِ
لَمْ تُفَاخِرْ بِالْمَجْدِ دَوْحًا وَنَالَتْ ♦♦ قَصَبَ السَّبْقِ يَوْمَ عَرْضِ الثَّمَارِ

وَلَوْ أَنِّي أَتَيْتُ لِلدَّوْحِ بِاسْمٍ ♦♦ قُلْتُ: هَذي أَمِيرَةُ الأشْجارِ
فَهِيَ بِنْتُ الْجِبَالِ، ذَاتُ وَقَارٍ ♦♦ وَهِيَ بِنْتُ الصُّخُورِ، ذَاتُ اصْطِبَارِ
وَهِيَ تَسْعَى لِلْبِرِّ دُونَ ضَجِيحٍ ♦♦ وَهِيَ تُعْطِي الخَيْرَاتِ، دُونَ افْتِخَارِ

” الغاب “ لأبي القاسم الشابي

الغابة عند أبي القاسم الشابي بيت بنته له الحياة من الظلال،
والأضواء، والأنغام، للحب، والأحلام، والإلهام؛ ويأتي الشاعر إلى
الغابة ليظهر مشاعره ويجد السلام والطمأنينة، وليبتعد عن دنيا
الناس المملوءة بالآثام والأوهام:

بَيْتٌ، بِنْتُهُ لِي الحَيَاةُ مِنَ الشَّدَى، ♦♦ وَالظِّلُّ، والأضواء، والأنغام
بَيْتٌ، مِنَ السَّحْرِ الجميلِ، مُشِيدٌ ♦♦ لِلحَبِّ، والأحلام، والإلهام
فِي الغابِ، فِي الغابِ الحبيبِ، وإِنَّهُ ♦♦ حَرَمُ الطَّبِيعَةِ والجمالِ السامي
طَهَّرَتْ فِي نارِ الجمالِ مشاعري ♦♦ ولَقِيتُ فِي دنيا الخيالِ سَلامي
وَنَسِيتُ دنيا الناسِ، فَهِيَ سَخافَةٌ ♦♦ سَكَرَى مِنَ الأوهامِ والآثامِ!

” الدوحة الساقطة “ لرشيد سليم الخوري

بقيت هذه الدوحة العظيمة صامدة طيلة قرون أمام الصواعق
والرياح، كأنها أميرة تطل على الأشجار من حولها، تظلل الإنسان
وتحضنه كما تحضن الأم ابنها. وكان هذا الإنسان اللئيم يأتي من حين
لآخر بساطوره ويقطع بعض أغصانها، ولكنه جاء ذات يوم بمنشار كبير
وقطع جذعها. وهكذا قضى هذا الإنسان القزم الشرير المعتدي، على

دوحة أميرة عاشت مئات السنين.

تقول الدوحة:

ما زلتُ أهزأُ بالصَّواعِقِ والعنَّاصِرِ والعُصُورِ
وأرى السَّيِّئِينَ هِيَ الدَّقَائِقُ والدهورَ هِيَ الشُّهُورُ
لأمتَصَّ ألبانَ البَقَا مِن نُدَيِّ والِدَةِ دُرُورِ
وأمامي الغابَاتُ ماثِلَةٌ كحاشِيَةِ الأَمِيرِ
حتى دَنَا مِن سَاحَتِي قِرْدٌ بِلا دَنَبٍ حَقِيرِ
قَرْمٌ قَصِيرٌ باتَ طَرِيْفٍ عَن تَبْيِينِهِ حَاسِرِ
ظَلَّئُهُ وَحَضْنَتُهُ فَكأَنَّهُ غُصْنِي النَّضِيرِ
وَحَسِبْتُ شَيْمَتَهُ الوَفاَ فإذا بِهِ اللَّصَّ الشَّهِيرِ
هوَ ذلِكَ الإِنْسَانُ مَن أبدأَ يَجُورُ ولا يُجِيرِ
وأتى بِمِنشارِ كَشَدَقِ الحُوتِ يَسطَعُ مِنْهُ نُورِ
شَرِّهِ إذا اسْتَأْكَلْتَهُ لا بِالْمَلُولِ ولا الضَّجُورِ
بذَهابِهِ وإِيابِهِ نُشْرٌ وشَرٌّ مُسْتَطِيرِ
وهوىَ عَلى جِدْعِي بِهِ حتى غَدَوْتُ عَلى شَفِيرِ.



الأنهار

يخاطب أحمد شوقي نهر النيل في مطلع قصيدته "أيها النيل"،
ويسأله: منذ متى ومياهاك العذبة تسقى القرى، وأيديك السخية تغدق
خيراتك على الناس. وهل منبعك من السماء، أم لك جداول تغذى
نهرك العظيم؟ :

♦♦ من أيِّ عَهدٍ في القُرى تَدَفِّقُ؟ ♦♦ وبأيِّ كَفٍّ في المِداثِ تُغْرِقُ؟
♦♦ ومن السَّماءِ نزلتَ أم فَجَّرتَ من ♦♦ عليا الجِنانِ جَدَواً ولا تَتَرَقِّقُ؟
♦♦ وبأيِّ عَينٍ، أم بأَيَّةِ مُزْنَةٍ ♦♦ أم أيُّ طُوفانٍ تَفِيضُ وتَفْهَقُ؟

أنت أيها النيل منبع الخير منذ القدم، رويت الأرض فأنعشتها،
وبفضلك تزخر شواطئك بالحياة:

♦♦ تَسقَى وتُطْعِمُ، لا إِنْأُكَّ ضائِقُ ♦♦ بالواردين، ولا خوائِكَ يَنْفُقُ
♦♦ والماءُ تَسْكُبُهُ فيَسْبُكُ عَسْجَداً ♦♦ والأرضُ تُغْرِقُها فيحيا المَغْرَقُ
♦♦ يَتَقَبَّلُ الوادي الحِياةَ كَرِيمَةً ♦♦ من راحَتِيكَ عَمِيمَةً تَدَفِّقُ
♦♦ مَتَقَلِّبِ الجَنابِينِ في نِعْمائِهِ ♦♦ يَغْرِي وَيُصَبِّغُ في نَدائِكَ فيُورِقُ

وقف إيليا أبو ماضي علي شاطئ النيل يتأمل مسيرة هذا النهر
العظيم، وهو يصفو ويهدأ حيناً، ويعبس ويثور طورا، وفي كلتا الحالتين
يكسوه جلال يملأ النفس هيبه وحيوية.

يقول أبو ماضي:

وقفتُ ضحَى في شاطئِ النيلِ وقفةً ♦♦ يَضُنُّ بها إلا على النيلِ شاعرهُ
تَهَلَّلَ حتى كادَ يبدو ضميرهُ ♦♦ وعَبَسَ حتى كادَ يشكُلُ ظاهرهُ
فثمَّ جلالٌ يملأُ النفسَ هَيْبَةً ♦♦ وثمَّ جلالٌ يملأُ العينَ باهرهُ

والنيل كذلك سِجِلٌ لِمآثر الماضي، ومرآة لحوادث الزمن الحاضر:
إذا ما جَلَّ لِلنَّاظِرِينَ رُمُوزُهُ ♦♦ تجلَى لَهُمْ ماضِي الزمانِ وحاضرهُ



نخيلٌ وظلالٌ وأمواج تعانق شواطئ الفرات، وأشعة الشمس تتسكب
على رماله الذهبية فتزيدها ضياءً وبهجة، والنهر يندفع بين السفوح؛ إنه
نهر الخير والسلام، لا يلحق ضرراً بالسكان حتى لو حاد عن مجراه، هذا
بعض ما يقوله محمد مهدي الجواهري واصفاً نهر الفرات:

إي وَعَيشِ مَضَى عَلَيْكَ بَهِيٍّ
وشُعاعٍ مِنْ شَطِّكَ الدَّهَبِيِّ
والتِّفافِ النُّخَيْلِ حَوْلَكَ حَتَّى
لَوْ تَقَصَّيْتَ لَمْ تَجِدْ غَيْرَ فَيٍّ
وَأَبْسَاطِ السَّفْحِ الَّذِي زَا حَمْتُهُ
دَفَعَاتٍ مِنْ مَوْجِكَ الثَّوْرِيِّ
لَوْ تَحَوَّلْتَ عَنْ مَجَارِيكَ أَوْ حُدَّ
تَ لَمَّا جِئْتَ بِالتَّكْوِيرِ الفَرِيِّ



وفي قصيدةٍ أخرى يخاطب الجواهري نهر دجلة، ويناديهَا: ((يا أمَّ
بغداد))، ((يا دجلة الخير))، وهو يتحدث إلى دجلة بقلب تائر وعاطفة جياشة،
ليبينها ما يعتلج في نفسه من حزن وآلام بسبب ما آلت إليه حالة العراق:

يا أمَّ بَغدادَ، مِنْ ظَرْفِ، وَمِنْ غَنَجِ
مَشَى التَّبَعْدُ حَتَّى فِي الدَّهَاقِينِ
يا أمَّ تُلِكَ التي مِنْ "أَلْفِ لَيْلَتِها"

لِأَنَّ يَغْبِقُ عَطْرِي فِي التَّلَاحِينِ
يا دِجْلَةَ الخَيْرِ: ما يُفْلِيكَ مِنْ حَنَقِ
يُفْلِي فُؤادِي، وما يُشْجِيكَ يُشْجِينِي



ومن أحقُّ من الشاعر بأن يغضب ويتمرد، وأن ينقل مشاعره إلى
أبناء شعبه بواسطة أمواج ((دجلة الخير))، إنه غاضب لأن سياط
البغي تلوث مياه نهره، وتائر عندما يشاهد الخيرات التي تزخر بها
ضفاف دجلة، والفقر والبؤس الذي يعانيه أبناء وطنه:

ما إن تَزَالُ سَيَّاطُ البَغْيِ ناقِعَةً
في مائِكَ الطُّهْرِ بَيْنَ الحَيْنِ والحَيْنِ
وَوَالِغَاتِ خِيُولِ البَغْيِ مُصْبِحَةً
عَلَى القُرَى آمِنَاتٍ والدَّهَاقِينِ
يا دِجْلَةَ الخَيْرِ: أدري بالذي طَفَحَتْ

بِهِ مَجَارِيكَ مِنْ فَوْقِ إلى دُونَ

تَهَزِينُ مِنْ خُصْبِ جَنَاتٍ مُنْشَرَّةٍ

عَلَى الضَّفَافِ، وَمِنْ بُؤْسِ المَلَايِينِ



وأىُّ علاقة أصدق من علاقة شفيق الكمالي بنهر بردى، وأىُّ حبٍّ ووفاء أعمق من العلاقة التي يعبر عنها هذا الشاعر في قصيدته ((يا شام .. منك ابتدأنا)). إنه يخاف أن يصاب النهر بأذى، تماماً كما يخاف على أولاده؛ ولو نبئت شوكة في إحدى ضفتيه لسببت وربما في جسده إلخ ولنستمع إليه يفضى بحبه للنهر، ويسجل عمق ارتباطه به:

يَا ضِفْتِي بَرْدَى بَيْنِي وَبَيْنَكُمَا ❖ ❖ خَيْطٌ إِذَا انْبَتَّ أَدَمَى خَافِقِي أَلْمَا
أَحْشَى عَلَيْهِ كَمَا أَحْشَى عَلَى وَلَدِي ❖ ❖ وَالصِّلْقُ فِي العِشْقِ حَالٌ تُورِثُ السَقْمَا
يَا ضِفْتِي بَرْدَى لَوْ شَوْكَةٌ نُبَّتْ ❖ ❖ عَلَيْكُمَا نُبَّتْ فِي أَضْلُعِي .. وَرَمَا
تَاللَّهِ مَا رَفَّ فِي صَدْرِي رَفِيفٌ هَوَى ❖ ❖ إِلَّا وَكَانَ جَنَاحَهُ صَدَى لَكُمَا
وَيَا صَبَا بَرْدَى يَا نَفْحَةَ عَجَبًا ❖ ❖ لَوْ مَسَّتْ الجُرْحَ فِي غُورِ الحِشَا التَّأَمَا



الْبِرْكَةُ



لا فُضَّ فُوكَ يَا بَحْتَرِي، لَقَدْ أَبَدِعتَ فِي وَصْفِكَ لِبِرْكَةِ الخَلِيفَةِ المتوكِّل، وَتَرَكْتَ لَنَا لَوْحَةً رَائِعَةً وَوَصْفًا بَدِيعًا، فَكأننا نَشَاهِدُ وَفُودَ المَاءِ تَتَدَفَّقُ، وَأشْعَةَ الشَّمْسِ تَضَاحِكُ المِياهُ والأَشْجَارَ، والأَسْمَاكَ تَسْبِحُ، والدُولْفِين .. وَالنَّجُومَ تَتَرَاقِصُ لِيلاً عَلَى سَطْحِ البِرْكَةِ، وَهِيَ لِحَسَنِ مَنظَرِهَا تَلَفَتْ اِهْتِمَامَ دَجَلَةٍ، بَلْ لَوْ مَرَّتْ بِهَا بَلْقِيسُ لِحَسْبَتِهَا الصَّرْحَ المَمْرَدِ.

وفيما يلي أبيات من هذه القصيدة:

ما بال دجلة كالغيري تنافسها ❖ ❖ في الحسن طورا وأطواراً تباهيها
كأن جنَّ سليمان الذين ولوا ❖ ❖ إبداعها فأدقوا في معانيها
فلو تمرُّ بها بلقيسُ عن عرضٍ ❖ ❖ قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيهاً
تنصبُّ فيها وفودُ الماءِ معجلةً ❖ ❖ كالخيل خارجة من حبل مجريها
فحاجبُ الشمسِ أحياناً يضاحكها ❖ ❖ وريِّقُ الغيثِ أحياناً يباكيها
إذا النجومُ تراءت في جوانبها ❖ ❖ ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمكُ المحصورُ غايتها ❖ ❖ لبعدها ما بين قاصيها ودانيها
يُعمَّنُ فيها بأوساطِ منجحة ❖ ❖ كالطير تتقض في جوِّ خوافيها
لهن صحنٌ رحيب في أسافلها ❖ ❖ إذا انحططن وبهو في أعاليها
صُورٌ إلى صورة الدُّلْفِينِ يُونسها ❖ ❖ منه انزواء بعينيه يوازيها

محفوفة برياض لا تزال ترى ♦♦ ريش الطواويس تحكيه

ولابن حمديس الصقلي وصف جميل لبركة نشاهد فيها تماثيل
الأسود رابضة حولها، كأن خريير المياه المتدفقة زئيرها. وتشمل اللوحة
الأشجار بثمراتها، والطيور تشدو على أغصانها، والنسيم يرسم على
سطح الماء دروعاً متحركة.

يقول ابن حمديس:

وضراغم سكتت عرين رئاسة
تركت خريير الماء فيه زئيراً
أسد كأن سكونها متحرك
في النفس لو وجدت هناك مثيراً
وتخالها والشمس تجلو لونها
ناراً وألسنتها اللواحسن نورا
وكأثمما نسج النسيم لمائه
درعاً فقدّر سردها تقديراً

أما السرى الرفاء فيحدثنا عن بركة أصابها التلوث، ويصف
الأوساخ التي تطفو على سطحها، ومنها ما رسب في أعماقها. ولعل هذا
يذكرنا بما يهدد بيئتنا من تلوث:

وبركة ليس يخفي موج أجتها

من القذى ما طفا فيها وما رسباً

تسدي عليها الصبأ بُرداً فإن كدرت

رأيتَه دارسَ الأفوافِ (1) مُستَلَباً

يرفّ منه على أمواجها زهراً

أزبى على الزهر حتى عاد مكتئباً

(1) قشور الحَبّ.

الشمس

مالت الشمس نحو الغروب وقت الأصيل، وألقت على الأزاهر ألواناً صفراء خافتة، وبدأ نورها يتضاءل وهي تستعد لفراق الروض، وتتنظر إلى النور نظرة المريض الذي وضع خده على الأرض في خشوع وهدوء، هذه بعض الأوصاف الجميلة من قصيدة لابن الرومي يقول فيها:

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت

على الأفق الغربي ورساً مززعجاً

ولاحظت النوار وهي مريضة ♦♦ وقد وضعت خدّاً إلى الأرض أضرعاً

ولابن الأعرابي وصف دقيق شامل للشمس وقت الشروق، عندما يشقّ نورها حجاب الظلام، وتكسو الأرض بأشعتها الملونة:

بلون كدرع الزعفران يشوبه ♦♦ شعاع تلالاً فهو أبيض أصفر

وعندما تتوسط السماء وتصبح أشعتها البيضاء متألّئة دافئة تملأ الكون:

وجللت الآفاق ضوءاً ينيها ♦♦ فخر لها صدر الضحى يتسعر

ثم يأتي وقت الغروب فتتلاشى أشعتها ويخفت نورها، حتى تختفي عن الأنظار:

وتدنف حتى ما يكاد شعاعها ♦♦ يبين إذا غابت لمن يتبصر

ويبدو منظر الأرض كئيباً أثناء اللحظات التي تودعه فيها الشمس.

ويرى الشاعر أن الشمس هي الأخرى حزينة على البيئة التي تودعها.

ويصور لنا ابن سهل وداع الشمس للأصيل فيقول:

انظر إلى لون الأصيل كأنه ♦♦ لا شك لون مودع لفراق

والشمس تنظر نحوه مصفرة ♦♦ قد حمشت خدّاً من الإشفاق

ثم تشرق الشمس من جديد فتنتعش الحياة، وتبتهج الأرض، وتنتشر البهجة والتفاؤل بين الناس.

يقول ابن هلال العسكري:

فيا بهجة الدنيا إذا الشمس أشرقت

كما أشرقت فوق البرية زينب

يفضض منها الجو عند طلوعها

ولكن وجه الأرض منها مذهب

الليل

ليل العاشق، إذا هجره الحبيب، ليل طويل بطيء، وهو يتخبط في أرقه، يبدو له كأن الكواكب والنجوم مقيدة لا تتحرك، أو أنها حائرة أضاعت طريق سراها.

يقول جرير:

أبدلَّ الليل لا تسرى كواكبه ♦♦ أم طالَ حتى حسبت النجمَ حيرانًا

ويقول بشار بن برد في موضوع هجر الحبيب وطول الليل:

حالَ هذا الليلُ بلُ طالَ السهر ♦♦ ولقد أعرفُ ليلِي بالقصرِ
لم يطلُ حتى دهاني بالهوى ♦♦ ناعمُ الأطراف فتانُ النظرُ
فكأنَّ الهجرَ شخصٌ مائلٌ ♦♦ كلما أبصرهُ النومُ نفرُ

وهذا ابن زيدون قضى ليله ساهراً، يراقب القمر، ويقول:

يا ليل طل أو لا تطل ♦♦ لا بدَّ لي أن أسهرك
لوبات عندي قمري ♦♦ ما بتُ أرى قمرك

وإذا كان بعد الحبيب وشدة الشوق يجعلان الليل يبدو طويلاً، وقربه يجعله قصيراً، فلماذا نظلم الليل؟ يقول علي بن الخليل (وجدتها منسوبة لابن بسام كذلك):

لا أظلمُ الليلَ ولا أدعي ♦♦ أن نجومَ الليلِ ليستُ تعول
ليلي كما شاءتُ قصيراً إذا ♦♦ جادتُ وإن ضنت فليلي طويل

مسكين هذا الليل، إن بدا طويلاً شكوه، أو كان قصيراً شكوه. هذا أحدهم يقول:

الليلُ إن واصلتُ كالليل إن هجرت

أشكو من الطول ما أشكو من القصرِ

وبينما نلاحظ أن الرصافي يقرأ بعض آيات الجمال في نجوم الليل المتلاثلة في البيت التالي:

فيالك من ليلِ قرأتُ بوجهه

نظيمَ البها في نثر أنجمه الزهرِ

نجد حافظ إبراهيم يعترف أنه ملَّ الليل، وأن الليل مَلَّه كذلك:
فيالك من ليلِ أعرتُ نجومه ♦♦ تَوَقَّدَ أنفاسي وعائيتُ مثلهُ
وملَّ كلانا من أخيه وهكذا ♦♦ إذا طالَ عهدُ المرءِ بالشَّيءِ مَلَّه.

الدودة والبلبل

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ مِجْنَا حَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾

(سورة الأنعام آية 38)

وكما أبدع شعراء العربية في وصف الزهور والأشجار وأصناف النباتات والفواكه، أجادوا الحديث كذلك عن الحيوانات التي وجدت في بيئتهم، وتناولوا بالوصف أنواع الأنعام والطيور والحيوانات الأليفة والمتوحشة والحشرات. ومن يتصفح دواوين الشعر يجد أنها قاموس وديوان التجارب البشرية.

ولا تتسع هذه الصفحات للحديث عن جميع الحيوانات التي تناولها شعراؤنا، ومنها الإبل، والخيل، والسباع، والذئب، والظباء، والنعام، والصقور، والحمام، والخطاف، والضب، والحرباء، والغراب، والعقعق، والأفاعي، والعقارب، والكلاب، والقنفذ، والنمل، والنحل.. وغيرها، ولذلك اكتفيت بذكر نماذج بسيطة واضحة بصفة مختصرة، لعل هذا يحفز من يهتمون بالطبيعة لكي يتوسعوا في مطالعة الشعر.

خلقت الدودة لتعيش على سطح الأرض وتزحف بين الأوراق. غير أن الدودة التي يحدثنا عنها إيليا أبو ماضي سئمت من بيئتها السفلية، وطمحت إلى أن تكون بلبلًا يخلق بين الأشجار. ولكن النملة الحكيمة نصحتها بأن تلزم الأرض، لأنها أكثر أماناً وحناناً على الحشرات.

يقول أبو ماضي:

نظرت دودة تدبُّ على الأرض ♦♦ إلى بلبلٍ يطيرُ ويصدحُ
فمضتْ تشتكي إلى الوردِ ♦♦ في الحقل أنها لم تجنحُ
فأثتْ نملةٌ إليها وقالتُ ♦♦ اقنعي واسكُتي فما لك أصلحُ
ما تمنيتُ إذ تمنيتُ إلا ♦♦ أن تصيري طيراً يُصادُ ويُذبحُ

فالزمني الأرض فهي أحنى على الدود،

وخليّ الكلام فالصمتُ أريحُ

مملكة النحل

ما أروع نظام مملكة النحل، وما أجمل قصيدة أحمد شوقي في وصف هذه المخلوقات. الملكة توظف جنودها وتحثهم على العمل، وتسهر على تدبير شؤون المملكة والرعية؛ الأعمال موزعة، وكل فريق ينهض بنشاط بالمهمة التي كلف بها: فمنهم من يجمع الرحيق من الخمائل والزهور؛ ومن يسهر على بناء الخلايا؛ ومن يعمل على تنظيف المملكة .. إلخ، وقصيدة أمير الشعراء طويلة، نقرأ منها الأبيات التالية:

أليس في مملكة النحل لقوم تبصره ؟

مُلكٌ بناه أهلهُ ♦♦ بهمةٍ ومَجْدَرَةٌ (1)
 مالكةٌ، عاملةٌ ♦♦ مُصلحةٌ، مُعمِّرةٌ
 باكرةٌ، تستهضُّ الـ ♦♦ صائب المبكرة
 السامعين، الطائعين ♦♦ ن، المحسنين المهرة
 من كلِّ من خطَّ البنا ♦♦ ء، أو أقسام أسطره
 أو شدَّ أصلَ عقده ♦♦ أو سده، أو قوِّره (2)

(1) مَجْدَرَةٌ: عن جداره.

(2) قَوِّره: جعل فيه ثقباً مستديراً.

أو طاف بالماء على ♦♦ جدرانَه المجدرة (1)
 وتذهب النحلُ خفا ♦♦ فاً، وتجيءُ موقرة (2)
 جوالِبَ الشمع من الـ ♦♦ خمائلِ المنورة
 حوالبِ الماذي (2) من ♦♦ زهر الرياض الشيرة (3)
 حتى إذا جاءت به ♦♦ جاست خلال الأدورة (5)
 وغيبثه كالسُّلا ♦♦ ف في الدنان المحضرة (6)

(1) المَجْدَرَةٌ: المشيدة.

(2) موقرة: ممتلئة.

(3) الشيرة: الجميلة.

(4) الماذي: العسل.

(5) الأدورة: الخلايا.

(6) الدنان: جمع "دن" وعاء كبير.

الحمّام

يسمى أبو فراس، وهو أسير في بلاد الروم، حمامة تنوح فيسألها أن تقترب منه ليبثها بعض أحزانه، ويتساءل كيف تبكي حمامة طليقة، ويسكت وهو السجين الغريب الحزين:

أقولُ وقد ناحت بقريبي حمامةً

أيا جارتا هل تشعرين بحالي

أيا جارتا ما أنصف الدهرُ بيننا ❖❖ تعالي أقاسمكُ الهموم تعالي!
تعالي تريُّ روحاً لدى ضعيفة ❖❖ تَرَدُّدٌ في جسمٍ يُعَذِّبُ بالِ
أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةً، ❖❖ ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالٍ؟

لاشك أن سجع حمامة تحنُّ إلى إلفها يشجي العاشقين، كما يقول ابن سنان الخفاجي، وهو في هذه الأبيات يعجب لأمرها، لأنها تشكو الصبابة وإلفها قريب منها:

وهاتفه في البان تملئ غرامها ❖❖ علينا وتتلو من صبابتها صحفاً
عجبتُ لها تشكو الفراق جهالة ❖❖ وقد جاوبتُ من كل ناحية إلفاً
ويشجو قلوبَ العاشقين حنينها ❖❖ وما فهموا مما تغتت به حرفاً

وهذا عثمان بن إبراهيم بن النضر يسمع الحمام ينوح، فيخطبته

قائلاً أرى إلفك قريباً منك وبيئتك مخضرة، فعلام النحيب؟ بل أولى لك أن تغني وتبتهج، وتترك البكاء لقلبي الحزين من لوعة فراق الحبيب:

ألا يا حمامَ الأيك مالِكَ باكياً ❖❖ وَغُصْنُكَ نُضْرٌ وَالْجَنَابُ مَرِيْعُ
تَعْنُ وَلَا تَنْشِجُ فَإِلْفُكَ حَاضِرٌ ❖❖ قَرِيبٌ وَإِلْفِي غَائِبٌ وَشَسُوْعُ
وَقَلْبُكَ خَلُوٌّ مِنْ تَبَارِيحِ لَوْعَتِي ❖❖ وَقَلْبِي بِلَوْعَاتِ الْفِرَاقِ صَرِيْعُ

أما الحمامة التي يحدثنا عنها حميد بن ثور الهلالي فلها حكاية أخرى. إنها حمامة ترعى فرخها، وتجلب له الطعام، وتأمل أن يؤنسها في وحدتها. غير أن الحظ كان يخفي له مصيراً مؤلماً:

تُبْكِي عَلَيَّ فَرُخٌ لَهَا ثُمَّ تَغْتَدِي

مُوَلَّهَةٌ تَبْغِي لَهُ الدَّهْرَ مَطْعَمًا

تُوَمِّلُ مِنْهُ مُؤْنَسًا لِانْفِرَادِهَا

وتبكي عليهِ إن زَقَا أو تَرْتَمَا

فَلَمَّا اكْتَسَى رِيْشًا سَخَامًا، وَلَمْ يَجِدْ

لَهُ مَعَهَا فِي بَاحَةِ الْعُشِّ مَجْتَمًا

أُتِيحَ لَهُ صَقْرٌ مُسِفٌّ فَلَمْ يَدْعُ

لَهَا وَوَلَدًا، إِلَّا رَمِيمًا وَأَعْظَمًا ...

ولا يتردد أمير الشعراء أحمد شوقي في أن يفشي حبه للحمام لأنه لا يبوح بالأسرار. ثم إن الحمام يواسي المحبين بأنيته وحنينه:

أَبْنُكَ وَجَدِي يَا حَمَامُ، وَأُوْرِعُ ❖❖ فَإِنَّكَ دُونَ الطَّيْرِ لِلْسَّرِّ مَوْضِعُ

وَأَنْتِ مُعِينُ الْعَاشِقِينَ عَلَى الْهَوَى ♦♦ تَتُّنُ فَنصُفِي، أَوْ تَحْنُ فَنَسْمَعُ
أَرَاكَ يَمَانِيًّا، وَمَصْرُ خَمِيلَتِي ♦♦ كَلَانَا غَرِيبٌ، نَازِحُ الدَّارِ، مُوجَعٌ



الديك

يتفق الناس على أن الديك حيوان شجاع وشهم، يغار على دجاجاته ويدافع عنها. ويحدثنا أبو العلاء المعري في الأبيات التالية عن ديك وصيخته الصباحية، وأثوابه الزاهية، وغيرته على "حريمه"، وعن تاجه الذي يشبّهه بتاج هرمز.

يقول المعري:

أيا ديكٌ عُدَّتْ من أياديك صيحة ♦♦ بعثت بها ميت الكرى وهو نائمٌ
هتفت فقال الناسُ أوسُ بنِ معير ♦♦ أو ابن رباح بالمحلة قائمٌ
وفيك إذا ما ضيع النكسُ غيرَةٌ ♦♦ تُصان بها المستصحبات الكرائمُ
وَجودٌ بموجود النوال على التي ♦♦ حميت وإن لم تستهلَّ الغمامُ
يُزان لديك الطعن في حومة الوغي ♦♦ إذا زُيِّنَتْ للعاجزين الهزائمُ
فلو كنتَ بالدرِّ الثمين معوضاً ♦♦ من البرما لامت عليه اللوائمُ
وتؤثر بالقوت الحليلة شيمة ♦♦ كريمة ما استعملتها الألائمُ
عليك ثيابٌ خاطها الله قادرٌ ♦♦ بها رثمتك العاطفات الروائمُ
وتأجك معقود كأنك هُرْمُرٌ ♦♦ يُباهي به أملاكه ويرائمُ



شياه الشابي

ترافق الإنسان في مسيرته الطويلة على مسرح الحياة مخلوقات كثيرة صغيرة وكبيرة، من الدودة إلى الكلب والبلبل والحصان والسلاحف والحيتان .. ومن هذه المخلوقات "شياه" الشاعر الشابي التي يقدم لنا عنها صورة حية، وهي ترعى في جو مرح وبيئة سليمة، بين السواقي والأشجار وأسراب الطيور.

يقول أبو القاسم الشابي من قصيدته "أغاني الرعاة":

واتبَعيني يا شياهي، بين أسراب الطيورُ
واملاي الوادي تُفَاءً، ومراحاً وحبورُ
واسمعي همسَ السواقي، وانشقي عطرَ الزهورُ
وانظري الوادي، يفضيه الضبابُ المستتيرُ

* * *

وامرّحي ما شئت في الوديان أو فوق التلال
واربضي في ظلها الوارف، إن خفت الكلال
وامضغي الأعشاب، والأفكار في صمت الظلال
واسمعي الريح تُغني، في شماريخ الجبال

◆◆◆◆◆

الكلب

من أعتز أصدقاء الإنسان وأكثرهم وفاءً، سواء رافق الرعاة والصيادين، أو بقى في المزرعة ليؤنس الكبار، ويلعب مع الأطفال ويحرس المنزل. ويصف أبو نواس كلباً بأنه جميل، رشيق القد، بارع في الصيد، جلب لأهله الخير فأحبوه ورعوه أحسن رعاية، وسعدوا بصحبته.

يقول أبو نواس:

أنعت كلباً أهله في كده ♦♦ قد سعدت جدودهم بجده
وكل خير عندهم من عنده ♦♦ يظل مولا له كعبده
بييت أدنى صاحب من مهده ♦♦ وإن غدا جلاله ببرده
ذا غرة محجلاً بزنده ♦♦ تكد منه العين حسن قدده
تأخير شذقيه وطول خده ♦♦ تلقى الأطباء عننا من طرده

ويكفي الكلب "خلقا" أنه أصبح يضرب به المثل في الوفاء الذي انعدم في كثير من بني آدم. ويكفي أن الشاعر علي بن الجهم، وكان بدويا، مدح الخليفة المتوكل قائلاً:

أنت كالكلب في حفاظك للود

وكالتيس في قراع الخطوب

الذئب

أشعل المرقش الأكبر ورفاقه ناراً لإعداد عشايتهم، فاقترب منهم ذئب جائع. كان المرقش كريماً والذئب محظوظاً، إذ رمى إليه الشاعر بقطعة لحم، ونفض الذئب رأسه جذلان شاكراً:

ولما أضأنا النار عند شوائنا

عرانا عليها أطلس اللون بائسُ

نبذتُ إليه قطعة من شوائنا

حياء، وما فحشى على من أجالسُ

وأوقد الفرزدق ناراً في البادية فأتاه ذئب جائع، فأشركه الشاعر في زاده، وخاطبه قائلاً: سأخذك رفيقاً إن عاهدتني ألا تغدر بي:

فبتُ أقدُ الزاد بيني وبينه ♦♦ على ضوء نار مرة ودُخانٍ

وقلتُ له لما تكشر ضاحكاً ♦♦ وقائم سيفي في يدي بمكانٍ

تعشُ فإن عاهدتني لا تخونني ♦♦ نكن مثل من يا ذئب يصطحبانٍ

ويخبرنا البحري أنه لقي ذئباً جائعاً "لم يبق فيه إلا العظم والجلد"، يصف الشاعر الذئب فيقول:

وأطلس ملء العين يحملُ زوره ♦♦ وأضلاعه من جانبيه شوى نهد

له ذنب مثل الرشاء يجره ♦♦ ومتن كمتن القوس أعوج مُنَاد

وعزم كل منها على أن يهجم على الآخر، وكان الذئب سيئ الحظ

هذه المرة، إذ رماه البحري فقتله. ويبدو أنه كان بدون زاد، فكان لحم الذئب التعس عشاءه:

وقمت وجمعت الحصى فاشتويته ♦♦ عليه وللرمضاء من تحته وقدُ

ولشدة حذر الذئب وتخوفه من أعدائه، قيل عنه أنه عندما ينام يغمض عيناً ويبقى الأخرى مفتوحة، هذا ما يظنه حميد بن ثور الهلالي؛ ويضيف أنه عندما يطارد الذئب طريدة، تحوم الطيور فوقه علها تنال شيئاً من صيده.

يقول هذا الشاعر:

ينامُ بإحدى مقلتيه ويتقي

المنايا بأخرى، فهو يقظان هاجعُ

إذا ما عدا يوماً رأيتَ ظلاله

من الطير ينظرن الذي هو صانعُ

ويصف الشريف الرضي ذئباً اشتد به الجوع، فراح يبحث عن عشايت، ويستعمل جميع حواسه ويخادع الراعي من أجل الحصول على قوته:

إذا فات شيءٌ سمعه دلَّ أنفه

وإن فات عينيه رأى بالمسامع

إذا حافظَ الراعي على الضأنِ غره

خفي السُرى، لا يتقى بالطلائع

غير أن حظ الذئب كان سيئاً هذه المرة، فقد أحاط به القوم، وهجموا عليه من كل جانب، وكانت الغلبة للإنسان المخادع الذي لا يرحم، وما ذنب هذا الحيوان الجسور إلا أن الجوع دفعه إلى المغامرة بحثاً عن طعامه، ولكنه أصبح طعاماً على مائدة القوم:

له الويل من مُسْتَطْعِمٍ عاد طُعْمَةً ❖❖ لقوم عجال بالقسيّ النوازع



الأسد

الأسد أحد رموز القوة في عالم الحيوان، وكثيراً ما يشبهه الرجل القوي الشجاع بالأسد. وتعتبر قصيدة بشر بن أبي عوانة من أجمل ما قيل في الأسد. كان بشر يمتطي فرسه عندما واجه ليثاً، فترجل واستعد للنزال، وملك الغابة يستعد للهجوم.

يقول بشر واصفاً هذه المواجهة المصيرية:

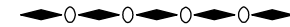
فقلتُ له وقد أبدى نصالاً
محددةً ووجهاً مكفهرًا
يُدلُّ بمخالبٍ ويحد نابٍ
وباللحظات تحسبهنَّ جمراً
خرجتَ ترومُ للأشبالِ قوتاً
ورمتَ لبنتِ عميَّ اليومَ مهراً
وقلبي مثلُ قلبِك ليسَ يخشى
مساولةً فكيفَ يخافُ ذعراً
خطا وخطوتُ من أسدينِ راماً
مراماً كان إذ طلباه وعراً
يُكفِّفُ غيابةً إحدى يديه
ويبسطُ للوثوبِ عليَّ آخرى

ويصف لنا ابن المعتز أسداً فيقول إنه جرى لا يعرف الخوف، إذا أقدم لا يتراجع، زئيره يذعر الأبطال، ولا يجرؤ أحد على أن يقترب من الأرض التي يجول ويصول فيها:

جرىءُ أبيّ يحسب الألف واحداً ♦♦ بعيد إذا ماكر يوماً من الفرّ
يزعزعُ أحشاء البلاد زئيره ♦♦ ويذهل أبطال الرجال من الدُعرِ
إذا ضم قرنًا بين كفيه خلته ♦♦ يعاني عروساً في غلائلها الحمرِ
فحرم أرض الحائرين وماءها ♦♦ فهبّات من يعدو عليها ومن يسري

قتل بدر بن عمار أسداً كان يُرّوع الناس، فنظم المتنبي قصيدة يثنى فيها على بدر وشجاعته، ويصف الأسد. وهذه أبيات منها:

وردٌ إذا ورد البُحيرة شاربياً ♦♦ ورد الفرات زئيره والنيلاً
متخضب بدم الفوارس لابسٌ ♦♦ في غيلة من لبديته غيلاً
ما قوبلت عيناه إلا ظنّتا ♦♦ تحت الدجى نارَ الفريق حُلولاً
في وحدة الرهبان إلا أنه ♦♦ لا يعرف التحريمَ والتحليلاً
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه ♦♦ فكأنه آس يجس عليلاً
ويرد عُفرتَه إلى يافوخه ♦♦ حتى تصير لرأسه إكليلاً



الفرس

يقول امرؤ القيس عن فرسه إنه قوى البنية، سهل القيادة، قادر على تحويل اتجاهه بسرعة بين الكرّ والفرّ، وهو لقوته يشبه صخرة تتحدر من مكان مرتفع:

مِكرٌ مِفرٌ مُقبلٌ مُدبِرٌ معاً ♦♦ كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلى

ثم يشبه خاصرتيه في الضمر بخاصرتي الطيبي، وساقيه بساقي النعام، وأنواع عدوه تارة بعدو الذئب، وحيناً بعدو التنفل (ولد الثعلب):

لَهُ أَيُّطَلَا ظَنَّبِي وَسَاقًا نَعَامَةً ♦♦ وَإِرْخَاءُ سَرْحَانٍ وَتَقْرِيْبٌ تَنْفَلِ

ويصف ابن المعتز فرسه وصفاً دقيقاً في إحدى قصائده. ويحدثنا في الأبيات التالية عن سرعته، وغرته البيضاء الواسعة، وكفله مكتمل الخلق، وهو ينظر إليك دوماً نظرة المتأهب:

يبليغ ما تبليغه الريح ولا ♦♦ تبليغ ما يبليغه إذا طلبُ
ذو غرة قد شدختُ جبهته ♦♦ وأذنٍ مثل السنان المنتصبُ
وناظِرٍ كأنه ذو روعة ♦♦ وكفل مللم ضا في الذنب

ومن صفات الفرس الذي يقدمه لنا البحري أنه أغرُّ (بياض في جبهته) ومُحجَّل (بياض في قوائمه)، عُرْفُه (شعر في حذبة الرقبة) مسبل كأنه قناع، صهيله موسيقى .. ووجهه متهلل، مكتمل الخلق، قوى

البنية، كأنه في الحسن صورة في هيكل:

وأغرَّ في الزمن البهيم مُجَلَّل ❖❖ قد رُحِتْ مِنْهُ عَلَى أَغْرٍ مُجَلَّلٍ
كالهيكَل المَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ ❖❖ فِي الْحَسَنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ
ذَنْبٍ كَمَا سَحَبَ الرِّدَاءَ يَذُبُّ عَنْ ❖❖ عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمَسْبَلِ
وتراه يسطعُ فِي الْغَبَارِ لِهَيْبِهِ ❖❖ لُونًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمَشْعَلِ
هزج الصهيل كأنَّ فِي نَعْمَاتِهِ ❖❖ نَبْرَاتٍ مَعْبَدَةٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ

أما المتنبى فيرى أن المرء لا يدرك حسن الخيل وقيمتها الحقيقية
إذا توقف إعجابه بها عند مظهرها وجمال أعضائها وتركيبها:

وما الخيل إلا كالصديق قليلةُ ❖❖ وإن كثرت في عين من لا يجربُ
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها ❖❖ وأعضائها فالحسنُ عنك مُغِيبُ

الفرس عند المتنبى صديق، وأعز مكان عنده أن يمتطي سهوة جواده:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سِرْجُ سَابِحٍ .



الشعر والحياة

القسم الرابع

بين المدّ والجزر



فإن تَلَقَّ ذئباً فاطلب الخيرَ عنده

وإن تَلَقَّ إنساناً فقل ربِّ سَلِّم

ويبدو أن كثيراً من الناس، ومنهم الشعراء، يركزون أحياناً، في ظروف خاصة، على الجوانب السلبية من سلوك الإنسان، وما أكثرها، فنجد على سبيل المثال أن المتنبى لم ير في الناس إلا المخادعة والنفاق:

فلم أرُ ودَّهم إلا خداعاً ♦♦ ولم أرِ دينهم إلا نفاقاً

ولا تقل نظرة المعري عن ذلك عندما يقول:

فأميرهم نال الإمارة بالخنى

وتقريبهم بصلاته يئس صيداً

وللشاعر فوزي المعلوف أبيات معبرة يتحدث فيها عن الإنسان الذي نسي الخير، وأوغل في الشرور والطمع والأنانية، فيقول في قصيدة عنوانها "ارتقاء الإنسان".

نسي الخير، ثم أوغل في الشر ♦♦ فداس الضمير في عصيانه

فإذا بالأذى وليد حجاه ♦♦ وإذا بالشرور بنت لسانه

عاث في أرضه فحالت جحيماً ♦♦ فأتى الخلد عائثاً في جنانه

أما إيليا أبو ماضي فيذكر الإنسان بأنه كتلة من الطين، تمردت وتجبرت لأنه لبس الخزّ وجمع المال. ويؤكد له أنه مجرد حيوان مُسير ستبلى ملابسه ويتحطم طفيانته:

أيها الطينُ لست أنقى وأسمى

حول الإنسان

للذئب سمعة سيئة لدى كثير من الناس، ولكن أهل المعرفة يعلمون أن الإنسان أشد وحشية وفساداً في الأرض من الذئب وغيره من الحيوانات المفترسة. فالذئب لا يعتدي على غيره إلا دفاعاً عن النفس أو عندما يجوع. والإنسان يعتدي في حالات الشبع والجوع، والغنى والفقر، وهو عالم أو جاهل.

وإليك قول شاعر يؤنسه عواء الذئب ويرعبه صوت الإنسان:

عوى الذئب، فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكادت أطيرو

ويقول الإمام الشافعي في هذا الصدد:

يعاف الذئب يأكل لحم ذئب

ويأكل بعضنا بعضاً عياناً

ويحذر شاعر آخر الإنسان من شرور الإنسان، مقارنة ذلك

بسلوك الذئب، فيقول:

من تراب تدوس أو تتوسدُ
سُدَّتْ أو لم تسدْ فما أنتِ إلا
حيوانٌ مُسَيَّرٌ مُسْتَعْبَدٌ
إن قصرنا سمكته سوف ينكدُ
وثوباً حبكته سوف ينقذُ

ومن الشعراء الذين تحدّثوا بعمق وتمعن عن أخلاق الناس
وطبائعهم أبو العلاء المعري. وكثيراً ما جاء حكمه قاسياً كما في قوله:
ما فيهم برّ ولا ناسك ❖ إلا إلى نفعٍ له يجذب
وأفضل من أفضلهم صخرة ❖ لا تظلم الناس ولا تكذب

ويرى أن الفساد والشرور تزداد بتكاثر عدد سكان الأرض، ولا
يمكن أن تستعيد الأرض طهارتها الأولى إلا إذا اختفى البشر من
على ظهرها:

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر،

فما بقوا لم يبارح وجهه دئسُ

والأرض ليس بمرجـو طهارتها

إلا إذا زال عن آفاقها الأنسُ

هل ينبغي للمرء أن يظل على حذر في معاملاته، وأن
يتوجس خيفة، ويشك في نوايا الناس؟ وهل أصبح الناس حقاً
كما قال الطغرائي:

غاض الوفاء، وفاض الغدرُ، وانفجرت

مسافة الخلف بين القول والعملِ

ولنستمع إلى عبيد بن أيوب العنبري، وهو يؤكد لنا هذا الاتجاه.
لقد أصبح ينفر من الناس، ويخشى مناورات الأصدقاء؛ بل تكاد
الموازين تنقلب في ظنونه، فتبدو له أقاويل الخير خديعة.

يقول هذا الشاعر:

لقد خفتُ حتى لو تمرَّ حمامةٌ ❖ لقلتُ عدوُّ أو طليعةٌ معشرِ
وخفتُ خليلي ذا الصِّفاءِ ورابنِي ❖ وقيل فلانٌ أو فلانةٌ فأحذرِ
فأصبحتُ كالوَحْشِيِّ يَتَّبِعُ مَا خَلَا ❖ ويتركُ مأنوسَ البلادِ المُدْعَثِرِ
إذا قيل خيرٌ قلتُ هذي خديعةٌ ❖ وإن قيل شرٌّ قلتُ حقٌّ فشمرِ



أشدُّ بليّةَ ذنبٍ طفيفاً ❖ ❖ يجرُّ عليك تبكيت الضمير!!



أذقتَ أحبَّ لذاتِ الشباب ❖ ❖ وهل فكَّهت نفسك في كتاب
بظل خميلةٍ غنّاءَ فاضت ❖ ❖ بها الغدران كالشهر المذاب
وهل نلت الغنى من بعد فقرٍ ❖ ❖ مرغت له جبينك في التراب
وهل بددت بالأمالِ يأساً ❖ ❖ تلبّد حول نفسك كالضباب
وهل وافتك بعد الحربِ بشرى ❖ ❖ سلامةٍ من تُحبُّ من العذاب؟
لعمرك كلُّ هذا الخيرِ شرٌّ ❖ ❖ إذا ما قيسَ بالخير الكبيرِ
ألدُّ ملذّةً صنعَ جميلٌ ❖ ❖ تمامٌ لديه مرتاح الضمير!!



وراح إيليا أبو ماضي يسأل عن أفضل عمل يقوم به الإنسان، فكانت ردود الناس مختلفة. فرأى أحدهم أن أفضل عمل هو ما يمحو الخطايا؛ وقال ثانيهم هو نصره الحق؛ وأجاب ثالثهم أنه التمتع بملذات الحياة؛ وقال غيرهم إنه الحب، أو انتشار العدل، أو ما يجلب الشهرة. أما رأي أبي ماضي فكان غير ذلك:

ذهبتُ مُسألاً عنَ خيرِ شيءٍ ❖ ❖ لأعرفَ كُنّهَ أخلاقِ البريّةِ
فَقالَتُ لي الكنيسةُ خيرُ شيءٍ ❖ ❖ هوَ الزُّهدُ الذي يَمْحو الخطيئةَ
وقالَتُ لي الشريعةُ: خيرُ شيءٍ ❖ ❖ شُمولُ العَدلِ أبناءَ الرعيّةِ
وقالَ الشهرةُ، الجنديُّ خيرٌ ❖ ❖ وإنِ كانتْ تُقودُ إلى المنيّةِ

الخير والشر

في قصيدة عنوانها ((الشرّ الكبير والخير الكبير)) يتساءل الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري، هل الشر هو أن يهجرنا الحبيب، أن يموت شخص عزيز، أن يغدر بنا الصديق، أن يستولى علينا الشقاء واليأس؟

وهل الخير هو التمتع بملذات الحياة، نجمع ثروة كبيرة، نقرأ كتاباً ممتعاً، يرجع إلينا شخص عزيز من الحرب، نتنصر على البؤس والشقاء..؟

إليكم رأي الشاعر:

أمزقتَ الجيوبَ على فقيرٍ ❖ ❖ أذقتَ مرارةَ الهجرِ البعيدِ
وهل أرحى عليك البأسُ ليلاً ❖ ❖ يشيبُ لهولهِ رأسُ الوليدِ
وهل مدَّ الشقاءُ إليك كفّاً ❖ ❖ أصابعها كقضبانِ الحديدِ
وهل أصماك سهمُ الغدرِ ممن ❖ ❖ أراك تعطفُ الخللُ الودودِ
وهل قاسيتَ ظلمَ التركِ قدماً ❖ ❖ وهل أشفقتَ من ظلمِ جديدي؟
لعمرك كلُّ هذا الشرِ خيرٌ ❖ ❖ إذا ما قيسَ بالشرِ الكبيرِ

وَقَالَ أَخُو الْحَصَافَةِ: خَيْرُ شَيْءٍ ♦♦ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ بِلَا مَرِيَّةٍ
وَقَالَ أَخُو الْجَهَّالَةِ: خَيْرُ شَيْءٍ ♦♦ سُرُورُ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا الدُّنْيَا
وَقَالَ لِي الْفَتَى وَصَلُّ الصَّبَايَا ♦♦ وَقَالَتْ لِي الْهَوَى الْبِنْتُ الصَّبِيَّةُ
وَلَمَّا أَنْ خَلَوْتُ سَأَلْتُ نَفْسِي ♦♦ لِأَعْرِفَ رَأْيَهَا فِي ذِي الْقَضِيَّةِ
فَقَالَتْ لَا أَرَى خَيْرًا وَأَبْقَى ♦♦ مِنْ الْإِحْسَانِ لِلنَّفْسِ الشَّقِيَّةِ

ويوضح لنا أبو العلاء المعري بصراحته المعتادة أن الخير لا ينحصر في الصوم والصلاة والتقشف، بل هو كل شيء في تجنب الشر: ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمون له ♦♦ ولا صلاة ولا صُوف على الجسد وإنما هو ترك الشرِّ مطرَحاً ♦♦ ونفضُكَ الصَّدْرَ من غلٍ ومن حَسْرٍ

ومن الواضح أن الشعراء، كغيرهم من الناس، يختلفون في تحديد ما هو خير وما هو شر، مثلما يختلف الناس في تحديد ما هو باطل (كتعريف بعض الدول للإرهاب بما يتفق مع مصالحها)، ونلاحظ أن بعض الشعراء يرون أن الشر لا يدفع إلا بشر مثله.

ومن بين هؤلاء عبد الله بن قيس الرقيات الذي يقول:

بَغِيضٌ إِلَيَّ الشَّرُّ حَتَّى إِذَا أَتَى ♦♦ فَحَلَّ بِيَدَارِي قُلْتُ لِلشَّرِّ مَرْحَبًا
وَأرْكَبُ ظَهَرَ الْأَمْرِ حَتَّى يَلِينَ لِي
إِذَا لَمْ أَجِدْ إِلَّا عَلَى الشَّرِّ مَرْكَبًا

ومنهم هديبة بن خشرم في قوله:

وَلَا أَبْتَغِي شَرًّا، إِذَا الشَّرُّ تَارَكِي

ولكن متى أُحْمَلُ عَلَى الشَّرِّ أَرْكَبُ

ولنستمع إلى رأي الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري وهو يؤكد أن الشر ينفع دائماً:

وَجَدْتُ الشَّرَّ يَنْفَعُ كُلَّ حِينٍ ♦♦ وَمَنْ نَفَعَ بِهِ حَمَلَ الْحَسَامِ
وَلَيْسَ الْخَيْرُ فِي وَسْعِ اللَّيَالِي ♦♦ فَكَيْفَ نَسُومُهَا مَا لَا يَسَامِ

ويسلك أوس بن حبناء رأى من ذكروا فيقول:

وَإِنِّي لِأَجْزِي بِالْمُودَةِ أَهْلَهَا ♦♦ وَبِالْشَّرِّ حَتَّى يَسَامَ الشَّرُّ حَافِرُهُ

وهذا شاعر يعبر بقوة عن استعداده ليجازي أهل الخير بالخير، ومواجهة من يريد به شرّاً بمثله:

وَلِي فَرَسٌ بِالْخَيْرِ لِلْخَيْرِ مَسْرُجٌ ♦♦ وَلِي فَرَسٌ بِالشَّرِّ لِلشَّرِّ مَسْرُجٌ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مَقُومٌ ♦♦ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيْجِي فَإِنِّي مَعْوِجٌ

هذا مبدأ السنّ بالسنّ، وهو قديم جداً. وقد لا يرتضيه بعض الشعراء، وكثير من الناس، ولكن من يطبق اليوم قول المسيح (الإنجيل): إذا صفعك شخص على الخد الأيمن، فأدر له خدك الأيسر؟ ثم ماذا يفعل الإنسان إذا لم ينجح الإحسان إلى أهل الشر؟ ألا يصفق لقول شهل بن شيبان:

وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِينَ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانٌ

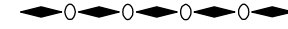
وهذا أمير الشعراء أحمد شوقي يتبنى هذا المبدأ فيقول:

وَالشَّرُّ إِنْ تَلَّقَهُ بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ ❖ دُرْعاً وَإِنْ تَلَّقَهُ بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ

وما ذلك إلا لأن فعل الشر مسجل في "جينات" كثير من أبناء آدم، كما قال المعري:

والشُّرُّ فِي الجسد القديم غريزة

فِي كل نفسٍ منه عرق ضاربُ



القضاء والقدر

يرى بشار بن برد، في البيتين التاليين، أنه مجبر على ما أتى وما سيأتي من الأعمال بحكم قضاء الله وقدره، فهو يطلب أموراً ولا يحصل عليها، ويعطى أشياء لم يسع وراءها، ولو كان له الاختيار لفضل أن يكون صالحاً مهذباً:

طبعْتُ على ما في غير مخير ❖ هوائي، ولو خيرتُ كنتُ المهذباً

أريد فلا أعطى وأعطى ولم أردُ ❖ وقصّر علمي أن أنال المغيَّباً

وينسج أبو العلاء المعري، في بعض أشعاره، على هذا المنوال، ويصرح بأنه لا حرية له في ما يتعرض له من تقلبات في حياته، فيقول:

ما باختيارى ميلادي ولا هرمي ❖ ولا حياتي، فهل لي بعد تخيير؟

ويقول في بيت آخر:

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ❖ ولكن لأمر سببته المقادِرُ

ويلاحظ ابن سنان الخفاجي أن المرء كثيراً ما يحتار في تفسير بعض الحوادث التي يواجهها في الحياة، كأن ينتصر الجهل لدرجة تجعل الناس يعبدون الأوثان بدلاً من الإيمان بالله:

يجري القضاء بما تعيا العقول به ❖ وينصر الجهل حتى يعبد الوثن

أما الإمام الشافعي فيوصي الإنسان بالصبر والرضا بقدر الله وقضائه، لأنه لا مفر من ذلك:

دَعِ الْأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ ♦♦ وَطِبُّ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَلَكِنْ ♦♦ إِذَا نَزَلَ الْقَضَا ضَاقَ الْفَضَاءُ

فلا مناص للإنسان مما هو مقدر عليه، ولا ينجيه منه برٌّ ولا بحر.

قال أبو فراس الحمداني:

ولكن إذا حَمَّ الْقَضَاءُ عَلَى أَمْرِي ♦♦ فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرُ

ويؤكد معروف الرصافي الفكرة السائدة، وهي أن الأقدار تتحكم في مصير المرء. وقد ترفع الخامل الوضيع، وتهين الكريم الشجاع، وتحطم مساعي البائس الفقير.

يقول الرصافي:

ولكن هي الأقدار تجري بغير ما

يريد الفتى جرياً على الأمر قاسراً

فتجعل ليك الغاب يتلو فرانقاً

وتترك صقر الجو يخشى القنايبراً

وكم أقدرت من كان في الناس عاجزاً

كما أعجزت من كان في الناس قادراً

ولكننا نجد صفي الدين الحلي يقول إنه لا يحسن بالإنسان أن يلوم القدر على كل ما نزل به نتيجة سوء تصرفاته؛ لأنه بوسع الإنسان، إذا اعتمد على الرأي السليم والمشورة، أن يحسن سلوكه ويخفف من صدمات القدر:

يهون بالرأي ما يجري القضاء به ♦♦ مَنْ أخطأ الرأي لا يستدنب القدرًا

الطبع والتطبع

عند الحديث على كون الطبع (الاستعدادات السلوكية الوراثية) يغلب التطبع، يمكن للمرء أن يستشهد، مثلاً، بحكاية الأعرابي الذي وجد جرو ذئب فأطعمه ورباه، فلما كبر قتل نعجته وفرّ، فقال هذا الأعرابي:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي ♦♦ فمن أنباك أن أباك ذيبُ

وقال أحدهم في هذا الموضوع:

السبعُ سبعٌ ولو كلت مخالبهُ ♦♦ والكلبُ كلبٌ ولو بين السباع ربي

ويشير المتنبي في البيت التالي إلى أن الطبع سرعان ما يتغلب على السلوك المتكلف:

وأسرع مفعول فعلت تغيُّراً ♦♦ تكلف شيء في طباعك ضدهُ

ويعبر المعري بقوة عن رسوخ الطبع واستمراريته فيقول:

تغيّر ملك حمير ثم كسرى ♦♦ ولم تقبل تغيُّرها الطباع

وقد يعني الطبع مجموعة من الرغبات توجه سلوك الإنسان وتدفعه إلى السعي لبلوغ أهداف معينة، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

يقول إبراهيم الغزي:

وتختلف الأغراض بالناس في الهوى

فكل إلى ما قاده الطبع قاصدُ

فيهوى الدمى من هزّ أعطافه الصبى

ويهوى العلامن شيبته الشدائد

ومن العسير تغيير سنن الطبيعة حتى في الأشياء فالنارُ تتصاعد، والماء يميل إلى الانحدار.

يقول الطغرائي:

ودع الطباعَ وما يوافقها ♦♦ فالطبع إن قاهرته قهراً

والنار إن صوبتها صعدت ♦♦ والماء إن صعّده انحدراً

وإذا كان الخلق متأصلاً، فلا جدوى من أن يتكلف المرء ويتظاهر بما ليس من طبيعه، لأنه سلوك متعب.

يقول أحد الشعراء:

يا أيُّها المتحلّي غير شيمته ♦♦ ومن سجيته الإكثارُ والمَلقُ

ارْجِعْ إلى خُلُقِكَ المعروفِ ديدنهُ ♦♦ إنَّ التَّحُلُقَ يأتي دونهُ الخُلُقُ

ويقول أحمد شوقي:

وإذا مُنحتَ الخير من مُتكلّف

ظهرت عليه سجيّة المنّاح

ويقول أحدهم في موضوع الطبع والتطبع:
السَّبْعُ سَبْعٌ وَإِنْ كَأَنَّتَ مَخَالِبُهُ
والكَأْبُ كَأَبٌّ وَإِنْ طَوَّقَتْهُ ذَهَبًا

وفي قصيدة تحدث فيها معروف الرصافي عن ترويض الحيوانات، خالف في استنتاجاته وجهات النظر المذكورة، وقال بأن هناك أسبابا غير الطبع تؤثر على سلوك الإنسان والحيوان كالجوع مثلا، وأن التربية قادرة على تغيير ما طبع عليه الإنسان، فتحوّله من شرير إلى مهذب، ومن محسن لطيف إلى معتد ظالم.

وفيما يلي جزء من قصيدة هذا الشاعر العظيم:

شاهدته مشهداً بدعاً علمتُ به
أنَّ الغرائز لم تطبع على الشغب
وأنَّ حُبثَ البرايا في طبائعها
لا بد فيه سوى الأطباع من سبب
وأن ليث الشرى ما صيغ مفترساً
لكن أحواله فرأساً يدُ السغب
وكم من الناس من قد راح مندفعاً
بدافع الجوع نحو القتل والسلب
وأن تربيئة الإنسان يُرجمه
إكسيروها وهو من ترب إلى الذهب

فكل ما هو في الإنسان مكتسب
فلا تقل فيه شيء غير مكتسب
والمرء كالنبت ينمو حسب تربته
وليس ينبت نبع منبت الغرب
من عاش في الوسط الزاكي زكاً خلقاً
حتى علا في المعالي أرفع الرتب



الحظ

لا يكفي أن يكون المرء لبيبا إذا كان حظه سيئا، فالحظ يرفع الجاهل، ويعز الخامل، ويغطي كثيرا من النقائص، هذا ما يعبر عنه الشاعر عبدالعزیز الكلابي في البيتين التاليين:

وما لبَّ اللبيب بغير حظٍّ ♦♦ بأغنى في المعيشة من فتيلِ
رأيتُ الحظَّ يَستركُلُّ عيب ♦♦ وهيهاتَ الحظوظُ من العقولِ

ويؤكد لنا المعري هذا المعنى عندما يقول إن قلم الكاتب البليغ أشبه بالمغزل إذا لم تساعده الحظوظ:

لا تَطْلُبَنَّ بغير حظٍّ رتبة ♦♦ قلمُ البليغ بغير حظٍّ مغزَلُ

ويقول أبو الأسود الدؤلي بأن من واتته الحظوظ يكون أحسن حالا، ويحقق نجاحا أكبر ممن يعمل ويكد والحظ يعاكسه:

الجَدُّ أَنهَضُ بِالْفَتَى مِنْ كَدِّهِ

فَانهَضُ بَجَدِّ فِي الْحَوَادِثِ أَوْ دَرٍ

والواقع أن المرء قد يمرّ بطروف مواتية، فتفتح أمامه الأبواب، وتفرج المصاعب، وتتقاد له الأمور بما يحقق أحلامه. فهل هذا هو ما يسميه الناس: الحظ السعيد؟

قال أحدهم:

إذا كان جَدُّ المرء في الشيء مقبلا

تَأْتَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

وهكذا نجد محمد مهدي الجواهري يتساءل: هل يمكن للمرء أن ينال الحظ السعيد بما يبذل من جهد؟ أم أن الحظ شيء آخر؟ ثم يتعجب الجواهري كيف يحصل على الرزق رجل لا يكد ولا يطمح للحصول عليه، ويفشل في ذلك رجل طموح:

جَهَلْتُ، أَحَظُّ الْمَرْءَ بِالسَّعْيِ يُقْتَنِي

أَمْ الْحَظُّ سِرٌّ حَجَبَتْهُ الْمَقَادِرُ

وَهَلْ مِثْلَمَا قَالُوا جُدُودٌ نَوَاهِضُ

تُقُومُ بِأَهْلِيهَا وَأُخْرَى عَوَائِرُ

فَمَنْ عَجَبٍ أَنْ يُمْنَحَ الرَّزْقُ وَادِعُ

وَيُمْنَعَهُ ثَبَتَ الْجَنَانُ مَغَامِرُ

ويشكو سبط بن التعاويذي حظه السيئ الذي لم يساعده على تحقيق أهدافه، رغم ما بذل من جهود:

إِلَى كَمْ أَعَاتَبُ حَظِّي الْمَشُومَ ♦♦ وَأَقْتَادُهُ وَهَوَ لَا يُسْمَعُ

فَأَقْسِمُ: لَوْ كَانَ مِنْ صَخْرَةٍ ♦♦ لِأَنَّ لَهَا أَنْهَا تَرشَحُ ...

ولنأخذ أمثلة من وقائع الحياة: وُلِدَ طفلان، فوجد أحدهما أن أباه أمير، أو ملك، أو ثري ...، ووجد الطفل الآخر أن أباه رجل فقير لا يملك قوت يومه. الأول محظوظ، والثاني سيئ الحظ. رجل اشترى ورقة

يانشيب فربح مبلغا ضخما. وآخر ظل طوال حياته يأمل ذلك، فلم يربح شيئا. وإذا ساعدت الحظوظ الفتى قد يورق العود في يده، بعد أن يبس في يد غيره، كما يقول الإمام الشافعي:

الجَدُّ يدني كل شيء شاسع

والجَدُّ يفتح كل باب مغلق

فإذا سمعتَ بأن مجدودا حوى

عودا فأورق في يديه فصدق



الحق

تناول الشعراء موضوع الحق في مختلف معانيه العقائدية، والاجتماعية والسياسية، فتحدثوا عن الحق بمعنى الحقيقة، والابتعاد عن الضلال، ولعل هذا ما يعنيه أبو العلاء في قوله:

سأُتبع من يدعو إلى الحق جاهدا

وأرحل عنها ⁽¹⁾ ما إمامي سوى عقلي

وقوله:

الحقّ لؤلؤة توارت ❖ بلجّ من ضلال الناس جم

وهو ما يعنيه أحمد شوقي بقوله:

إن الذي خلق الحقيقة علقما ❖ لم يُخل من أهل الحقيقة جيلا

وقوله:

بالحق يفتَح كلُّ هارٍ مصلحٍ ❖ ما ليس يفتَح بالقنا المغوارُ

(1) عن الدنيا.

ويصوّر معروف الرصافي هذا " الحق " كأنه شبح تائه لا يرحب به شرق ولا غرب :

أَرَى الْحَقَّ لَمْ يَغْشَ الْبِلَادَ وَإِنَّمَا

مَشَى ضَارِباً فِي الْأَرْضِ تَلْفِظُهُ الطُّرُقُ

فِيُصْبِحُ فِي أَرْضٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا

وَحِيداً فَمَا يُؤْوِيهِ غَرْبٌ وَلَا شَرْقُ

وَمَنْ عَجَبٍ أَنْ الْوَرَى يَدْعُوْنَهُ

وَهُمْ مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ أَعْدَاؤُهُ الرُّزُقُ

ويرى إيليا أبو ماضي أن الحقيقة ليست مفهوما مطلقا حتى ولو كانت تتعلق بالمقدسات؛ وأن الحق لا يرتبط بضرورة بما تتبناه أو ترفضه الأكثرية. ومن آرائه في هذا الموضوع قوله:

لَمَّا سَأَلْتُ عَنِ الْحَقِّ قِيلَ لِي ♦♦ الْحَقُّ مَا اتَّفَقَ السَّوَادُ عَلَيْهِ

فَعَجِبْتُ كَيْفَ نَبَحْتُ ثُورِي فِي ♦♦ وَالْهِنْدُ سَاجِدَةٌ هُنَاكَ لَدَيْهِ

نَرْضَى بِحُكْمِ الْأَكْثَرِيَّةِ مِثْلَمَا ♦♦ يَرْضَى الْوَلِيدُ الظُّلْمَ مِنْ أَبِيهِ

إِمَّا لِنَمِّ يَرْتَجِيهِ مِنْهُمَا ♦♦ أَوْ خِيفَةً مِنْ أَنْ يُسَاءَ إِلَيْهِ

وأكثر ما عثرتُ عليه أثناء البحث يتعلق بحديث الشعراء عن حق الفرد والقبيلة والمجتمع والشعوب في التمتع بوسائل الحياة المادية والمعنوية. وهو " الحق " الذي يقابله الظلم والحرمان والعدوان؛ الحق

الذي يسلبه القوى من الضعيف، الحق الذي لا يكفي في الدفاع عنه المنطق والقانون؛ الحق الذي يعنيه الأفوه الأودي بقوله:

وَإِنِّي لِأَعْطِي الْحَقَّ مَنْ لَوْ ظَلَمْتُهُ ♦♦ أَقْرَأُ وَأَعْطَانِي الَّذِي أَنَا طَالِبُ

وَأَخَذَ حَقِّي مِنْ رِجَالٍ أَعَزُّوْهُ ♦♦ وَإِنْ كُرِمْتُ أَعْرَاقَهُمْ وَالْمُنَاسِبُ

وهو ما يعنيه زهير بن سلمى عندما يقول:

فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ ♦♦ يَمِينٌ، أَوْ نَفَارٌ، أَوْ جَلَاءُ

والحق بهذا المعنى يرتبط بالقوة التي يلجأ إليها الإنسان لتسليط الظلم على أخيه الإنسان، ونسب حرته أو ممتلكاته أو حياته. كما يرتبط بالقوة التي يحتاج إليها المظلوم للدفاع عن حقه وكرامته. ولنلق نظرة سريعة عن بعض ما قاله الشعراء حول موضوع الظلم والقوة.

الظلم

إذا كان الظلم يشكل عنصراً هاماً في سلوك الإنسان، بل وشيمة من شيمه كما يقول المتنبى:

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فإن تجد

ذا عفة فلعنة لا يظالم

فإن الحق يظل مبدأً مثالياً وفكرةً نظريةً ما لم نعدَّ القوة اللازمة لردع الظالم. ذلك شأن بني آدم، كما يصفهم المتنبى، مثل الوحوش، يحاول كل شخص أن يلعب دور الأسد على الضعيف:

إنمّا أنفُسِ الأنيسِ سِبَاعٌ ♦♦ يَنفَارَسُنَ جَهْرَةً وَأَغْتِيَالَا

مَنْ أَطَاقَ التَّماسِ شَيْءٌ غَلَاباً ♦♦ وَأَغْتَصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالَا

كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَتَّى ♦♦ أَنْ يَكُونَ الْغَضَنَفَرُ الرَّئِبَالَا

والإنسان يحاول أن يخفي مظالمه وشروعه، فيتظاهر بالتقوى والأخلاق الحسنة؛ ويشير أبو العلاء المعري إلى هذا النوع من الناس فيقول:

يا ظالماً عقد اليدين مصلياً ♦♦ من دون ظلمك يعقد الزنار

أتظن أنك للمحاسن كاسب ♦♦ وخبيّ أمرك شيرةً وشنار

ويحذر بعض الشعراء من عاقبة الظلم ومصير المعتدين، ولكن هل يجدي الوعظ أو التحذير:

نُدرمُ البُغاةُ ولاتَ ساعةٌ مَنُدمُ

والبغي مرتفعٌ مُبتغيه وخيمُ

ويقول اليزيد بن الحكم:

والبغيُّ يصرعُ أهله ♦♦ والظلم مرتفعه وخيمُ

ويقول أحدهم إن من أشد الأمور وقعا على المرء أن يرى الظالم ينال مزيداً من المدح والثناء، بدلاً من العقاب:

وأقتلُ داءَ رؤيةِ العينِ ظالماً

يسئى ويتلى في المحافل حمده

وفي الآيات التالية للإمام الشافعي بصيص من الأمل للضعيف الذي استبد به الطغاة وسلبوا حقه أو أهانوا كرامته:

إذا ظالمٌ يَسْتَحْسِنُ الظُّلمَ مَذْهَباً ♦♦ وَلَجَّ عُنُوقاً فِي قَبِيحِ اكْتِسَابِهِ

فَكَلَهُ إِلَى صِدْقِ اللَّيَالِي فَإِنِهَا ♦♦ سَتُبَدِي لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ

فكم قد رأينا ظالماً متمرداً ♦♦ يرى النجمَ يهوي تحت ظل ركابه

غير أن تجارب الحياة، ووقائع العلاقات بين الأفراد والقبائل والشعوب، تثبت أن قبول الظلم واللجوء إلى السلم، والتذرع بالأخلاق

الحميدة لا تجدي مع من طبعت أنفسهم على البغي والطفيان، وجبلت على الفساد وسفك الدماء منذ بدء الخليقة. ولذلك نجد في كلام فحول الشعراء ما يفيد بأنه لا يردع المجرم إلا العقاب، ولا يوقف الظلم إلا القوة، وهو قانون ((السن بالسن)) الذي تبنته الحضارات والشرائع منذ القدم.

يقول زهير بن أبي سلمى:

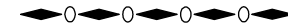
ومن لم يندُ عن حوضه بسلاحه

يهدم، ومَن لا يظلم الناس يظلم

ويقول بشار بن برد:

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه

شبا الحرب خير من قبول المظالم



القوة

كثيرا ما كان الكتاب والشعراء يسجلون مناظرات ومحاورات بين السيف رمز القوة، والقلم رمز العلم. وقد حلت في عهدنا الدبابات والطائرات والقنابل الفتاكة والصواريخ الموجهة .. محل السيف والرمح والنبال؛ وحلت أجهزة أخرى معقدة وفعالة محل القلم. ولم يعد للمناظرات والمقارنات مجال الآن لأن العلم أصبح وحده هو مصدر القوة وصانع آلاتها المدمرة.

والقوة سيف ذو حدين، هي في يد المعتدي وسيلة لإخضاع المستضعفين واستغلالهم، وهي ضرورية للمعتدى عليهم لاسترجاع حقوقهم مادية كانت أو معنوية، فردية أو جماعية. ومن المفيد أن نستعرض معا بعض ما قاله عدد من الشعراء حول موضوع الدفاع عن النفس، ودحر المعتدي، ونصرة الحق، وردع الظالم، وصيانة الكرامة.

هذا عنتر بن شداد سهل المعاشرة، كريم الخلق، ما لم يظلم:

أثنى علىّ بما علمت فيأني ❖ سهلٌ مخالفتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمتُ فإنّ ظلمي باسلٌ ❖ مرٌّ مذاقُّه كطعم العلقم

ويقول طرفة بن العبد مذمرا من ظلم الأهل والأقارب:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً

على الحرِّ من وقع الحسامِ المهتدِّ

هل ترغب في إنجاز مهمتك دون ضياع الوقت؟ أحضر السيف والفرس (أو الرشاش والدبابة)، كما يقول عبید الله بن الحرِّ الجعفي:

إذا كنت ذا رمحٍ وسيفٍ مُصمَّم

على سابحٍ، أدناك مما تؤمِّلُ

وهذا سعد بن ثابت يضع الأمور في نصابها، فيجازي أهل الخير بمثله، ويرد على الباغي بقسوة:

وفي اللين ضعف والشراسة هيبة ♦♦ ومن لم يُهَبَّ يحمل على مركبٍ وعر

وما بي على من لان لي من فظاظَةٍ ♦♦ ولكنني فظٌّ أبيّ على القسر

إن وجود القوة وحدها لا يكفي، فلا بد أن يدعمها الإباء والنخوة والقلب الذكي.

يقول أحدهم:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً

وأنتفاً حميماً تجتنبك المظالم

ومن أجمل ما قيل في مدح "القوة" ما ورد في قصيدة أبي تمام "فتح الفتوح" التي يقول في مطلعها:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ

في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

بيضُ الصفائح لا سودُ الصفائفِ في

متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرَّيبِ

ويؤكد عدي بن زيد، لمن يحتاج إلى التأكيد، أن كثرة الأنصار تدرأ عن الضعيف الأخطار، وتحفظ له حقه:

ومن لم يكن ذا ناصرٍ عندَ حقِّه ♦♦ يُغلبُ عليه ذو النصيرِ، ويُضهد

وفي كثرة الأيدي عن الظلمِ زاجرٌ ♦♦ إذا حضرتُ أيدي الرجالِ بمشهدِ

المفسدون من قوى الشر ذئاب، و"الكلاب" قوة تحمي صاحبها ومنزله من هؤلاء الذئاب، كما ورد في بيت لعمر بن أبي ربيعة:

تعدو الذئابُ على من لا كلاب له

وتتقى صولةً المستأسد الحامي

والمجدُّ، سواء كان سليماً أو مزيّفاً، يناله أصحاب القوة والمال والسلطان، كما يقول على بن الجهم:

إذا رفع السلطان قوماً ترفعوا

وإن هدم السلطان مجداً تهدما

وكثيراً ما يشبه الشعراء بني آدم بالوحوش، بالأسد والذئاب خاصة. ومن ذلك قول المتنبي:

والناس أسدٌ تُحامي عن فرائسها

إِذَا عَقَرْتَ وَإِذَا كُنْتَ مَعْقُورًا

ويلاحظ أن المتنبي يمدح القوة من خلال وصفه للمعارك والبطولات، وثنائه على السيوف والرماح والسهام والخيول. وأحياناً يجعل القلم خادماً للسيف، كما في قوله:

حَتَّى رَجَعْتَ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي ♦♦ المجدُ للسيف ليس المجدُ للقلم
أَكْتُبُ بِنَا أَبَدًا بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ ♦♦ فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ

وينحو نحوه الأرجاني في هذا المعنى، ويقول إنه عندما حاولت الأقلام أن تنافس السيوف، غضبت هذه الأخيرة وشقت رأسها:

أَوْ مَا رَأَيْتَ السَّيْفَ وَهُوَ مَجْرَدٌ ♦♦ مَا زَالَ يَحْكُمُ بِالْمَنْيَا وَالْمَنَى
لَمَّا ادَّعَى الْأَقْلَامُ فَضْلًا عِنْدَهُ ♦♦ غَضِبَ الْحَدِيدُ فَشَقَّ مِنْهَا الْأَلْسِنَا

ويقول رشيد سليم الخوري: ما ضاع حق وراءه سواعد وسيوف:

إِنْ ضَاعَ حَقُّكَ لَمْ يَضِعْ حَقَّانِ
لَكَ فِي نَجَادِ السَّيْفِ حَقٌّ تَانِ
مَا مَاتَ حَقٌّ فَتَى لَهُ زُنْدَلُهُ
كَفَّ لَهَا سَيْفٌ لَهُ حَدَانِ

ويرى أبو القاسم الشابي في قصيدته "الثعبان المقدس" أن القوي هو الذي يحدد معايير العدل، ويملي بنود السلام على هواه لإخضاع الضعيف واستغلاله. وفي هذه القصيدة يتقدم الثعبان (القوى) ليفتك بالشحور (الضعيف)، فيخاطبه هذا الأخير قائلاً:

"وسعادة الضعفاء جُرمٌ ..، ماله ♦♦ عند القويِّ سوى أشدَّ عقاب!"
"ولتشهد الدنيا التي غَنِيَتْهَا ♦♦ حلمَ الشباب، وروعة الإعجاب"
"أَنَّ السَّلَامَ حَقِيقَةٌ مَكْذُوبَةٌ ♦♦ والعدلُ فلسفةُ اللّهيِّبِ الخابي"
"لا عدلَ، إِلَّا أَنْ تَعَادَلْتَ الْقُوَى ♦♦ وَتَصَادَمَ الْإِرْهَابُ بِالْإِرْهَابِ"
"لا رَأْيَ لِلْحَقِّ الضَّعِيفِ، وَلَا صَدَى ♦♦ والرأيُّ، رأيُ القاهرِ الغلاب"

وبصدد التشبيه بالحيوانات القوية والضعيفة ومصائرهما على يد الإنسان، يحضرنى بيت لإلياس فرحات يقول فيه:

لَوْ كَانَ عِنْدَ الضَّأْنِ بَأْسُ ضِرَاغِمِ ♦♦ مَا اسْتَمَرَّ الْإِنْسَانُ لَحْمِ الضَّانِ

ويقترح إيليا أبو ماضي على من يريد أن ينجو من شرّ البشر أن يضطلع بدور الأسد أو الصقر:

ثُقَّتْ لُ الشَّاةُ وَلَا دُنُّبٌ لَهَا
هِيَ، لَوْلَا ضَعْفُهَا، لَمْ تُقْتَلِ
إِنْ تَكُنْ فِي الْوَحْشِ كَنْ لِنِثِ الشَّرِّ
أَوْ تَكُنْ فِي الطَّيْرِ كَنْ كَالْأَجْدَلِ
أَوْ تَكُنْ فِي النَّاسِ كَنْ أَقْوَاهُمْ
لَيْسَتْ الْعِلْيَاءُ حَظُّ الْوَكَلِ!

إن حجة القوي وبرهانه بل وقانونه ينبع من قوته، تماماً مثلما يستخدم الحيوان المخلب والنباب والظفر ليتمكن من فريسته، هذا ما يراه أحمد شوقي في البيت التالي:

ودعوى القوي كدعوى السباع

من الناب والظفر برهانها

ويضيف أمير الشعراء موضحاً، في قصيدة أخرى، أن سنن الطبيعة قضت بأن يكون في الحياة قوي وضعيف، غير أن الفساد انتشر بين البشر لدرجة لم يجد معها وعظ المرشدين والمصلحين:

وتر الأمر يداً فوق يد ♦♦ وتر الناس ذئاباً وضيئ
وتر العز لسيف نزي ♦♦ في بناء الملك أو رأى رزين
سنن كانت، ونظم لم يزل ♦♦ وفساد فوق باع المصلحين

ويلجأ محمد عوض محمد إلى مثال الذئب الذي لا يرحم الخروف، ليؤكد الفكرة السائدة وهي أن الشر كامن في سلوك الإنسان، خاصة القوي من بني آدم، لأنه ما انفك يذلّ الضعيف ويستغله:

أتحنو عليك قلوب النورى ♦♦ إذا دمع عينيك يوماً جرى
وهل ترحم الحمل المستضام ♦♦ ذئب الفلا وأسود الشرى
وماذا ينال الضعيف الدليل ♦♦ سوى أن يحقر أو يزدري

ونجد معروف الرصافي، في قصيدته " معترك الحياة " يشبه الأرض بغربال، والأحياء يتحركون في إطاره. يسقط الضعيف نحو الهاوية ويبقى القوي. ويستخلص الشاعر قائلاً:

فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها

قديراً على دفع الأذى والمكاره

لمعرك ما هذي الحياة بملبس

لمن حيك من عجز نسيج شعاره

ولكن لمن أمسى بأيدي وقوة

يجرّ على الأيام فضل إزاره

ويعطينا الرصافي مثلاً آخر على مفعول القوة في الطبيعة نفسها، وهو أن الشمس تحجب بقوتها النجوم عن أعيننا:

أرى الشمس يخفى ضوءها كل شارق

وإن كان ينبو الطرف عن مستاره

وما ذاك إلا أنها في تلها

يموج بنور ساطع وقُد ناره

فلم يستطع نجم طلوعاً تجاهها

إذا لم يعد بالليل غبّ اعتكاره

كذاك ضعيف القوم إن كان جاره

قويّاً يكن شلواً أكيلاً لجاره

عندما نقرأ قصيدة معروف الرصافي " في معرض السيف " نكاد نسمع صليل السيف، الذي يُسمع الأصم الذي لا يسمع صوت الحق. وهل يدوم الازدهار والمجد، وينتشر العلم .. إذا لم تحمه القوة. لنستعرض معاً أبياتاً من هذه القصيدة الرائعة التي تذكرنا ببعض قصائد المتنبّي:

والمجد لا تبنيه إلا على أسس ♦♦ من الحديد والّاهو منهدم

لو لم يك السيف ربّ الملك حارسه ♦♦ ما قام يسعى على رأس له القلم

مَنْ سَلَهُ فِي دُجَى الْأَمَالِ كَانَ لَهُ ♦♦ فَجْرًا تَحُلَّ حُبَاهَا دُونَهُ الظُّلْمُ
وَالْعِلْمُ أَضِيحٌ مِنْ بَدْرِ بِمَسْبَخَةِ ♦♦ إِنْ لَمْ تُجَلِّهُ مِنْ نَوَى الطُّبِيِّ دِيمُ
إِنَّ الْحَقِيقَةَ قَالَتْ لِي وَقَدْ صَدَقَتْ ♦♦ لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ إِلَّا فَوْقَهُ عِلْمُ
وَالْحَقُّ لَا يُجْتَنَى إِلَّا بِذِي شُطْبٍ ♦♦ مَاءُ الْمَنِيَّةِ فِي غَرِيْبِهِ مُنْسَجِمُ
إِنْ أَسْمَعْتَ أَلْسُنَ الْأَقْلَامِ ظَالِمَهَا ♦♦ بَعْضَ الصَّرِيرِ كَمَنْ يَيْكِي وَيَنْظِلُّ
فَلِلْحُسَامِ صَلِيلٌ يَرْتَمِي شَرْرًا ♦♦ مُفْتَقًا أُذُنَ مَنْ فِي أُذُنِهِ صَمَمُ
هَبِ الْيِرَاعَةَ رِدَاءَ السَّيْفِ تَأْزُرُهُ ♦♦ فَهَلْ عَلَى النَّاسِ غَيْرَ السَّيْفِ مُحْتَكَمُ

يقول محمد مهدي الجواهري في مطلع قصيدته "عبادة الشر" لا تتخذ بحديث الناس عن الخير والنبيل وكرم الأخلاق .. فهي لغة العاجزين الضعفاء. ويواصل الجواهري تقديم نصائحه التي تشبه إلى حد بعيد نصائح الكاتب الإيطالي ميكيافيلي في كتابه "الأمير". وعنوان القصيدة يعبر بقوة عن رأى الشاعر (في هذه القصيدة) بالنسبة لما ينبغي أن يلتزم به الإنسان في معاملة الناس:

رِدِ الْعَيْشِ مُزْدَحِمِ الضُّفْنَيْنِ

مِنْ الْفِشِّ مُنْتَحِمِ الْمَوْرِدِ

وَجُلِّ فِيهِ أَرْوَعٌ مِنْ نَعْلَيْ

وَأَشْجَعٌ مِنْ ضَيْغَمِ مُلْبِدِ

ينبغي للمرء ألا يتردد في اللجوء إلى الحيلة والغش والمناورة والرياء لبلوغ أهدافه، لأن بني آدم مثل الحيوانات، من بينهم الثعلب والأفعى والذئب والأسد، بل هم أدهى من ذلك وأشد فتكا ببني جنسهم:

هُمُ النَّاسُ لَا يَفْضُلُونَ الْوُحُوشَ
بَغْيِيرِ التَّحْيُّلِ لِلْمَقْصِدِ
فَلَا تَأْتِ سَاحَةٌ هَذِي الذُّنَابِ
تُنَازِلُهُ بِبِئْسَ أَدْرَدِ
وَحُدَّ مِخْلَبًا لَكَ مِنْ غَدْرَةٍ
وَنَابًا مِنَ الْكِذْبِ فَاسْتَأْسِرِ
وَلَا تَتَّيِدَنَّ بِغَيْرِ الرِّيَاءِ
وَعَيْرِ النَّفَاقِ فَلَا تَعْبُرِ
وَصَلِّ عَلَى سَائِرِ الْمَوْبِقَاتِ
صَلَاةَ الْمُحَالِفِ لِلْمَسْجِدِ
وَمَا اسْطَظَّتْ فَاقْطَعْ يَدَ الْمُعْتَدِي
عَلَيْهِ وَقَبِّلْ يَدَ الْمُعْتَدِي
وَمَجْدٌ وَضُرِيْعًا بِهِذِي الْهَنَاتِ
تَحَدِّي مَكَائِنَةَ ذِي الْمَحْتَدِ
وَنَفْسَكَ فِي النَّفْسِ لَا تَبْأَهَا
وَعَقْلَكَ فِي الْخَيْرِ لَا تُجْهِدِ

يعبر الجواهري عن آرائه تجاه البشر بكل صراحة ووضوح وقوة: الناس نوعان قوي غالب، وضعيف مغلوب؛ لا ترحم، ولا ترجو رحمة من أحد؛ من يتمسكن ويظهر اللين والابتسام إنما يفعل ذلك لأنه ضعيف، يعيش عيشة الثعلب؛ لأنه لا يستطيع أن يكون أسداً. ويحيي الجواهري

ميكيافيلي لأنه كشف في نصائحه مدى خبث الإنسان، ووحشيته ومكره ولؤمه وفساده، وأماط اللثام عن حقائق في سلوك البشر حاول الناس إخفاءها خجلاً من أنفسهم.

يقول الجواهري:

إلى روح "ميكيافيل" نُفِّحُ نَحِيَّةً
وصوبُ غَمَامٍ يَثْرِكُ القَبْرَ عاشِبًا
أبانَ لنا وَجْهَ الحَقِيقَةِ بعد ما
أقامَ الورى سِئْرًا عَلَيْهَا وحاجِبًا
ولو زُمتُ للَعَوْرَاتِ كَشْفًا أَرِيْتُكُمْ
مَنْ الناسِ حَتَّى الأنبياءِ عَجَائِبًا
أَرِيْتُكُمْ أَنَّ المنافعَ صُورَتْ
مَحَامِدَ والحِزْمَانَ مِنْهَا مَعاشِرًا
أَرِيْتُكُمْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ تَعَلَّبُ
يُمَاشِيكَ مَنهُوبًا وَيَغْرُوكَ نَاهِبًا
لِحِفْظِ "الأنانياتِ" سُنَّتْ شَرَائِعُ
على الخَلْقِ صُبَّتْ مِحْنَةٌ وَمَصَائِبًا

لا يردع المعتدي إلا القوة، ولا يقهر المغتصب إلا القوة، ولا يطرد المحتل إلا بالقوة، ولا يخضع الطاغية المستبد إلا للغة القوة. فهي الوسيلة الوحيدة لنضال الأحرار ضد قوى الظلم والعدوان. وكم دعا

الشعراء بقوة وحماس إلى الكفاح بلغة السيف والمدافع، لاستعادة حرية الشعوب وكرامتها وحقوقها. غير أن هذا الموجز لا يتسع لتناول هذا الموضوع.

وفيما يلي نموذج من شعر الكفاح ولغة السلاح للشاعر الجزائري مفدي زكريا:

وتكلم الرشاشُ، جل جلاله ..!
فاهتزت الدنيا، وضجَّ النيرُ
وتزلزلت آياته، لهابةً
لواحةً، أصفى لها المستهترُ
والنار، للألم المبرح، بلسم
يُكوى بها العظم الكسير، فيُجبرُ
والنار في "مس الجنون" (عزيمة)
يصلي بها المستعمر المتكبرُ

وله من قصيدة عنوانها "وتعطلت لغة الكلام":

لغة القنابل، في البيان فصيحَةٌ
وُضِعَتْ، لمن في مَسْمَعِيهِ صُمَامُ
و(لوافح) النيران، خير (لوائح)
رُفِعَتْ، لمن في ناظريه رُكَامُ
و(روائح) البارود، مسك نوافح

سُجرت، لمن في منخرينه زُكام
والحق، والرشاشُ إن نطقاً معاً
عنت الوجوه، وخرت الأصنام!

المظهر والجوهر

عند الحديث عن مظهر الناس، وما قد يلبسون من أقتعة وأثواب جميلة، يشبه الشعراء ذلك بالبرق الخلب الذي لا يتبعه مطر، وبغمد السيف ومعدنه، وبسرج الفرس، والطائر الجميل الذي لا يؤكل لحمه، وبالفاكهة الجميلة الفاسدة، بل منهم من يتحدث عن الشكل والحجم، وجسم البغال وأحلام العصافير. ويقول إبراهيم الغزي إن الناس في مظاهرهم مثل جنس النباتات فهي تشمل الفجل والموز والنخيل:

لا تتظرنَّ إلى القوالب واعتبر ♦♦ بجوهر الحيوان وهي عقوله
ما الناس إلا كالثبات، وداخل ♦♦ في اسم النبات ثمامه ونخيله

وكم من فاكهة أعجبنا مظهرها، ولونها ولكن كما يقول الفرزدق:

كبطيخة الزراع يعجب لونها

صحيحاً، ويبدو داؤها حين تُفتح

وكم نعجب بالفصن الأخضر، والعود المزهر ولكن مذاقه مر.

يقول أحد الشعراء:

فلا تحمدنَّ الدهرَ ظاهر صفحة ♦♦ من المرء ما لم تبُلْ ما ليس يظهر
وما الزينُ في ثوب تراه وإنما

يزين الفتى مغبوره حين يخبرُ

فإن طُرة راقتك منهم فريماً ♦♦ أمر مذاق العود، والعود أخضرُ

فالمظاهر قد تكون خداعة، وكم من رجلٍ مظهره بئيس، وأثوابه رثة، وبدنه هزيل .. يحمل نفساً نبيلة وقلباً كريماً.

يقول الحزين الكناني:

وتلقى الفتى ضخماً جميلاً رُؤاه ♦♦ يروءك في النادي وليس له عقلُ
وآخرُ تبو العينُ عنه مُهدَّب ♦♦ وجود إذا ما الضخم نهته البُخلُ

وتقول ليلي الأخيلية في هذا المعنى:

ومخرِّقٍ عنه القميصَ تخالهُ ♦♦ وَسَطَ البيوتِ من الحياءِ سَقِيمًا
حتَّى إذا رُفِعَ اللِّواءُ رأيتَه ♦♦ تحتَ اللِّواءِ على الخَميسِ زعيمًا

وللعباس بن مرداس أبيات شهيرة يتحدث فيها عن الرجل النحيف والرجل الطرير (حسن المظهر)، وعن الصقر، وعن الجمل الذي يُصرفه الصبي .. ومما جاء في هذه القصيدة:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتزدريه ♦♦ وفي أثوابِه أسدٌ مزيرُ
ويُعجِبُكَ الطَّرِيرَ فَتبتليه ♦♦ فيُخْلِفُ ظَنِّكَ الرَّجُلَ الطَّرِيرُ

فما عَظَمُ الرَّجَالِ لَهُمْ بِفَخْرِ ♦♦ ولكن فَخْرُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرٌ

ويقول ابن الرومي: إن الجسم الضخم وإن كان حسن المنظر، ما هو إلا جيفة ضخمة ما لم تزرع فيه الشيم الكريمة نفساً طيبة:

إذا فقتَ الدُّمِيمَ بحسن جسمٍ ♦♦ فلا يسبقك بالشيم الشريفه
فيصبح أفضلَ الرجلين نفساً ♦♦ وتصبح أعظمَ الرجلين جيفه

وقد لا تمنح الظروف المرء أثواباً مزركشة، وتمنحه لساناً فصيحاً، وقلباً ذكياً ونفساً زكية.

يقول ابن أوس العدوي:

إني وإن كنتُ أثوابي ملفقةً ♦♦ ليست بخز ولا من نسج كَتَّانٍ
فإن في المجد همّاتي وفي لغتي ♦♦ فصاحة ولساني غير لِحَّانٍ

وفي مجال تعظيم الناس بناء على أفعالهم وليس لمجرد مظاهرهم.

يقول الحريري:

ومن الغباوة أن تُعْظَمَ جاهلاً ♦♦ ليصقال ملبسه وَرَوْنَقُ رَقْشِيهِ
أو أن تهينَ مُهذّباً في نفسه ♦♦ لِدُرُوسِ بَزْتِهِ وَرِثَّةِ فَرَشِهِ

ولو كانت الأشياء تقدر بمظهرها، وتكتسب لرونقها، لكان الفرس يشتري لسرجه الجميل، والسيف يقتني لغمده وحمائله.

يقول أبو العلاء المعري:

فإن كان في لبس الفتى شرف له

فما السيف إلا غمده والحمائل

ويقول أبو الطيب المتنبي:

وما الحسن في وجه الفتى شرف له

إذا لم يكن في فعله والخلائق

وقد يلجأ بعض الناس إلى الأسلوب الأنيق، والكلام المنمق المزخرف، كمظهر يخفون وراءه ضعفهم أو نيات سيئة. وهو مظهر يهدف إلى المراوغة لقضاء الحاجات. لذلك ينصح الشعراء بأن نحكم على المرء بفعله لا بحلاوة كلامه.

يقول إبراهيم الغزي:

لحسن إصابات المقالة رونقٌ

وأحسن منهنّ الإصابة في الفعل

ويكون الختام جامعاً مانعاً إذا أوردنا هنا بيتين للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

الناسُ من جهة التمثيل أكفاءٌ ♦♦ أبـوهُمُ آدَمُ وَالْأُمُّ حَاوَاءُ
فإن يَكُنْ لَهُمُ مِنْ قَبْلِ ذَا نَسَبٍ ♦♦ يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنُ وَالْمَاءُ

العقل

أَيْهَا الْغُرُّ إِن خُصِمْتَ بِعَقْلٍ

فَاسْأَلْنَهُ، فَكُلَّ عَقْلٍ نَبِيٌّ

وهكذا يحثُّ أبو العلاء المعري على الاسترشاد بالعقل، لأنه الدليل الواعي، والمرشد الصادق، والإمام الواعي، كما يقول في البيت التالي:

كذب الظنُّ لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

والعقل الراجح يدفع الإنسان إلى التفكير في أسرار الحياة والبشر والكون والمصير؛ ولكن التفكير في هذه الأمور يزيد المرء قلقاً وحيرة، ويزيد حياته عبئاً.

يقول أبو الطيب المتنبى:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعيم

ويقول ابن المعتز:

وحلاوة الدنيا لجاهلها ♦♦ ومرارة الدنيا لمن عقلا

والواقع أن العقل يفتح مجالات التفكير، وينير الضمير، ويزيد

وعي الإنسان بمشاكل الناس والحياة، وكل هذا قد يقلل من متع الحياة، على عكس ما يشعر به الجاهل.

يقول البحتري:

أرى العقل بؤساً في المعيشة للفتى ♦♦ ولا عيش إلا ما حباك به الجهل

ويؤكد هذا المعنى قول أحدهم:

يسخى الفتى أيامه وهو جاهل

ويفتصُّ بالساعات وهو لبيبُ

وبالإضافة إلى عناصر الوعي والإحساس، والاهتمام بحقائق الأمور، وتعليل أسرار الحياة التي تجعل صاحب العقل "يشقى في النعيم بعقله"، قد يعيش المرء ظروفًا قاسية، فلا يسعفه الحظ على اكتساب رزقه، مهما كان عقله سليماً وسلوكه مستقيماً.

يقول معروف الرصافي:

كم بات ذو الحمق خلواً في مضاجعه،

وبات ذو العقل فيها كاسف البال

هذا يمسُّ بأبرارٍ مَفُوقَةً،

وذا يخيطُ شظايا طمره البالي

ألا يقال في تمييز الإنسان عن الحيوان أنه حيوان ناطق (بمعنى عاقل)؟ أو لم يحدث أن كان العقل الرشيد والمنطق السليم سلماً

للمجدد؟ أو لسنا نجد في وقائع الحياة أن البؤس والشقاء يشمل الأذكياء والأغبياء، والعلماء والجهلاء، والعاقلين والحمقى، والمؤمنين والكفار، والأطفال والكبار .. إلخ؟ ومع ذلك فلا مناص لنا من أن نحترم العقل الرشيد الذي يستغل لصالح البشرية.

يقول المتنبى:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى إلى شرف من الإنسان

ومن المعاني الشائعة بين الشعراء، عند الحديث عن موضوع "العقل" ما قاله أبو أحمد بن دُرَيْد:

يزين الفتى في الناس صحة عقله ❖❖ وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
ويزري الفتى في الناس قلة عقله ❖❖ وإن كرمت أعرافه ومناسبه

فالعقل الرشيد يرفع شأن صاحبه ويعلي قدره، وإن لم يكن من ذوي الحسب والنسب.

يقول أحدهم:

يُعدُّ رفيع القوم من كان عاقلاً ❖❖ وإن لم يكن في قومه بحسيب
وإن حل أرضاً عاش فيها بعقله ❖❖ وما عاقل في بلدة بغريب

والعقل ليس وحيداً في ميدان الصراع من أجل البقاء، وقد تطفئ الغريزة، وينتصر العنصر الحيواني في الإنسان.

يقول المعري:

نهاني عقلي عن أمور كثيرة ❖❖ وطبعي إليها بالغريزة جاذبُ

فالنفس أمارة بالسوء، ميالة للشر، وكثيراً ما يفشل العقل في كبح جماح الأنانية والعدوانية.

قال أحدهم:

ولن يزغ النفس اللجوج عن الهوى

من الناس إلا فاضل العقل كامله

وكما يقول معروف الرصافي:

تجهّز من الحُسنى بما أنت قادرٌ

عليه، ولا تقبل سوى العقل مُرشداً

وفي معمة الحياة القاسية، قد يجد العقل الرشيد نفسه مضطراً للتكيف مع الظروف، ومعاملة الأحمق بالحماسة، ومعالجة الشر بشر مثله.

يقول واصل بن عطاء:

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم ❖❖ ولا تلقهم بالعقل إن كنت ذا عقل
فإن الفتى ذا العقل يشقى بعقله ❖❖ كما كان قبل اليوم يشقى ذوو الجهل



التكيف

ينصح عقيل بن علفة بأن يتحلى المرء بالعقل، وأن يكون كيساً إذا كان يعيش بين العقلاء، وأن يجاري الحمقى، ويتكيف مع سلوكهم إذا اضطرتهم الظروف لمخالطتهم:

وكنُّ أكيس الكيسى إذا كنتَ فيهم

وإن كنتَ في الحمقى فكن أنتَ أحقماً

ويرى معروف الرصافي أنه من الضروري أن يجعل المرء سلوكه متلائماً مع الظروف، وأن يلبس لكل حالة ما يناسبها، فيقول:

ألبسُ حياتك أحوال المحيط وكن ♦♦ كالماء يلبسُ ما للظرف من جُدر

وإذا كان الماء القليل ينفذ بهدوء إلى الأماكن التي يقصدها، ويثابر في مسيرته في عزم وتأن نحو هدفه، فما أجدر الإنسان أن يتخذه مثلاً، فيسير بهدوء وسلام حيناً، ويتلاءم مع الظروف العسيرة، أو يتقهقر ليعيد الكرة. وتأتي نصيحة زهير بن أبي سلمى فتؤكد هذا القول:

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ♦♦ يُضْرَسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأَ بِمَنْسِمٍ

ومن الحكمة كذلك، إذا نزل المرء بقوم، ألا يسخر من تقاليدهم أو يهين مقدساتهم، ولو كانت بغیضة إلى نفسه. وفي هذا الصدد يوصي

ابن شرف القيرواني بمحاولة التلاؤم مع ظروف حياة الآخرين:

إذا رماك الدهرُ في معشر ♦♦ قد أجمع الناسُ على بُغْضِهِمْ
فدارِهِمْ ما دُمْتَ في دارِهِمْ ♦♦ وأَرْضِهِمْ ما دُمْتَ في أرضِهِمْ

ويقول شاعر آخر في موضوع مرونة السلوك ومسايرة الناس فيما لا يرضينا:

وَمَنْ كَانَ مِنْ كُلِّ الطَّبَاعِ مُرَكَّباً
فَإِذَاكَ إِلَى كُلِّ الْقُلُوبِ حَيِّبُ

ويرى ناصيف اليازجي أنه إذا ساد اللؤماء، واعتلى السلطة غير الحكماء، فما على المرء إلا أن "يلبس البردة" التي تتطلبها الظروف (مؤقتاً)، وأن يلتزم بالسلوك الذي يقيه من شرورهم:

متى ترى الكلب في أيام دولته ♦♦ فاجعل لرجليك أطواقاً من الزرد
واعلم بأن عليك العارَ تلبسه ♦♦ من عضة الكلب لا من عضة الأسد

وفيما يلي أبيات لمحيي الدين بن العربي أجدها نموذجاً لمرونة السلوك و"الانفتاح" الفكري. فهو يقول إنه بعد أن كان ينكر من ليس على دينه، حصل تغيير في تفكيره، وأصبح قلبه مفتوحاً للجميع، وأصبح دينه هو "حب الإنسان":

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي ♦♦ إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ♦♦ فمرعي لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ♦♦ وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجهت ♦♦ ركائبه، فالحب ديني وإيماني

الهموم

يذكر إبراهيم الغزي بعض الأسباب التي تثقل قلبه بالهموم، ومنها التحسر على ما فات، وحيرته في الحاضر، وقلقه من المستقبل.

يقول الغزي:

وَلَقَدْ دُفَعْتُ إِلَى الْهُمُومِ تَتَوِينِي ♦♦ منها ثلاثُ شدائدٍ جُمِعْنَ لِي
أَسْفًا عَلَى مَاضِي الزَّمَانِ، وَحَيْرَةً ♦♦ فِي الْحَالِ مِنْهُ، وَخَشْيَةَ الْمُسْتَقْبَلِ
مَا إِنْ وَصَلْتُ إِلَى زَمَانٍ آخِرٍ ♦♦ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

وتكون أعباء الهموم أشد على ذوي الإحساس المرهف، والهمم العالية، والسلوك العاطفي، والقلب الواعي. وما أصدق قول المتنبي في هذا المقام:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ويقول عبدالقادر المازني في هذا الصدد:

على قدر إحساس الرجال شقاؤهم

وللسعد جو بالبلادة مشرب

ويقول محمود سامي البارودي:

ثَقُلْ دَوَاعِي النَّفْسِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ

وَتَقْوَى هُمُومِ الْقَلْبِ وَهُوَ مَفَامِرٌ

والهم عدو جبار ينهك البدن، ويشيب الرأس قبل أوانه، ويقضي على نضارة الشباب.

يقول المتنبي:

والهم يخترم الجسيم نحافة

ويشيب ناصية الصبي ويهرم

ويقول أبو الحسن التهامي:

وَتَلَهُبُ الْأَحْشَاءُ شَيْبَ مَفْرَقِي

هذا الضياء شواظ تلك النار

ويعترف أسامة بن منقذ أنه حاول أن يكتم همومه على الناس، ولكن آثارها أصبحت ظاهرة على وجهه وسلوكه:

أَكَاتَمُ النَّاسِ أَشْجَانِي وَأَحْسَبُهَا ♦♦ تخفي فتعلنها الأسقام والولهُ

كَأَنِّي مِنْ ذَهُولِ الْهَمِّ فِي سِنَةٍ ♦♦ وناظري قرح الأجنان منتبه

وكثيراً ما تشتد الهموم ليلاً فتمنع النوم، ويطول الليل.

يقول بشار بن برد:

وَكأنَّ الْهَمَّ شَخْصٌ مَائِلٌ ♦♦ كلما أبصره النوم نقر

ومن المهم أن يعي المرء خطر الهموم إذا طالت، وأن ينهض ويقاوم ليعيد الحياة إلى مجراها الطبيعي.

يقول عبدالله بن محمد المحنني :

يا ساهر الليل في هم وفي حزن ♦♦ حليف وجد ووسواس وبلبال
لا تياسن فإن الهم منفرج ♦♦ والدهر ما بين إدار وإقبال

وقال ابن نباتة داعياً إلى التمسك بالأمل، وانتظار الفرج، ومدارة الزمان:

يا مشتكي الهم دعه وانتظر فرجاً ♦♦ ودار وقتك من حين إلى حين
ولا تُعاند إذا أصبحت في كدر ♦♦ فإنما أنت من ماء ومن طين

ولأبي نواس اقتراح يلجأ إليه بعض من أثقلتهم الهموم، وإن لم يكن الحل المجدي:

وإذا الهمومُ تعاورتك فسألها

بالراح والريحان والندمان

وأفضل من ذلك أن يُحصن المرء فكره وقلبه، حتى لا يترك مجالاً للأشجان والأحزان أن تعصف بحياته، كما يقول ميخائيل نعيمة:

باب قلبي حصين ♦♦ من صنوف الكدر
فأهجمي يا هموم ♦♦ في المسا والسحر
وازحفي يا نحوس ♦♦ بالشقا والضجر
وانزلي بالألوف ♦♦ يا خطوب البشر
باب قلبي حصين ♦♦ من صنوف الكدر

الحيرة

ظل أبو العلاء المعري ينشد الحقيقة، ويسعى جاهداً لمعرفة أسرار الحياة، وألغاز الأمور الغامضة في هذا العالم، غير أنه لم يتجاوز مرحلة التخمين والحدس، كما يبدو من قوله:

أما اليقين فلا يقين وإنما ♦♦ أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

ومن قوله:

إنما نحن في ضلال وتعليل ♦♦ فإن كنت ذا يقين فهاته

وبعد هذا التحدي لمن يرى غير رأيه، يعترف أحياناً بأنه قد يأتي عليه الموت دون أن يحظى بالجواب على تساؤلاته:

نفارق الأرض لم نظفر بمعرفة

أي المعاني بأهل الأرض مقصود

وبلّلت الحيرة أفكار الشاعر جميل صدقي الزهاوي، وعرقلته الشكوك عن العثور على أهدافه، فهو ما زال يجهل أين السعادة:

لست أدري كخابط في ظلام ♦♦ أورائي سعادتي أم أمامي

حيرة في الحياة قد صدفتني ♦♦ عن بلوغي من الحياة مرامي

وقضت أنني أطيل وقوفاً ♦♦ في ممر الشكوك والأوهام

ويتساءل الزهاوي عما إذا كانت الروح خالدة، أم أنها تقنى بفناء الجسد، ويبدو قلقاً كأنه يسبح في ظلام دامس، كما يتضح من الأبيات التالية:

يقول الشاعر:

رأيتُ الهدى في الشك والشك لا يهدي

كأني بالظلماء قد كنت أستهدي

فطوراً أقول الروح كالجسم هالكٌ ♦♦ وطوراً أقول الهلكُ عنه على بُعد
فيا لك من شكٍّ يبرِّح بي ولا ♦♦ يبارحني حتى أوسدَ في لحدي
وإني لا أدري أرشدي كان في ♦♦ ضلالي هذا أم ضلالي في رشدي

ومن الشعراء الذين لم يتوقفوا عن البحث عن حقيقة الوجود وألغاز الحياة، وبداية الإنسان ونهايته، وشقائه وعذابه في الأرض.. الشاعر معروف الرصافي. وفي قصيدته "من وراء القبر" يطرح تساؤلات حيرت كثيراً من الناس:

جهلنا أشد الجهل آخر عمرنا

كما قد جهلنا قبله أول العمر

ومن أين جئنا أم إلى أين قصدنا؟

وفي أي ليلٍ من تشككنا نسري؟

كأننا أتينا والمعيشة لجة

لنعبُرَ والأعمار جسر إلى القبر

وبعد أن يورد بعض "القييل والقال" حول تساؤلاته وحيرته، يعترف بأن الإنسان يتيه في مجاهل لا تعرف أسرارها بالفكر وحده:

لعمرك ما هذي الحياة وما الذي

يُراد بنا فيها من الخير والشر؟

نحاول علماً بالحياة وإن ذا

منوطاً إلى ما ليس يُدرَكُ بالفكر

ونسلكُ منها في مجاهل قفرة

فنخرج من قفرٍ وندخل في قفرٍ

ويردد إيليا أبو ماضي تساؤلات عديدة حيرت الناس قبله، وهو يتوق إلى معرفة الحقيقة وحل ألغاز الوجود، كما فعل غيره من المفكرين. فهو يتساءل مثلاً:

إذا كان المصير إلى التلاشي ♦♦ فلم جئنا وكنّا في حجاب؟

وإن كان المصير إلى خلود ♦♦ فما معنى المنية والتباب؟

أمور لا يحيط بهنّ فكر ♦♦ ولو أمسى يحيط بكل باب!!!

وفي قصيدته الشهيرة "الطلاسم" يطرح هذا الشاعر أسئلة عديدة، يجيب عليها: "لست أدري" ثم يستنتج بأنه سيغادر هذا العالم حائراً جاهلاً، مثل اليوم الذي ولد فيه.

يقول أبو ماضي:

كلُّما أيقنتُ أنني قد أمطتُ السُّرَّ عني

وَبَلَّغْتُ السِّرَّ سِرِّي ضَحِكْتَ نَفْسِي مِنِّي
 قَدْ وَجَدْتُ اليأسَ والحيرةَ لكنْ لم أَجِدْني
 فَهَلْ الجَهْلُ نَعِيمٌ أمْ جَحِيمٌ؟
 لَسْتُ أَدْرِي!

إِنِّي جئْتُ وأمضي ♦♦ وَأَنَا لا أَعْلَمُ
 أَنَا لَفَزٌ وذَهَابِي ♦♦ كَمَجِيئِي طَلَسْتُ
 والذي أوجد هذا اللـ ♦♦ فز لَفَزٌ مَبِيهُمُ
 لا تجادلْ ذا الحِجِّي من ♦♦ قال: إِنِّي

لست أدري

ويحدثنا الشاعر ميخائيل نعيمة عن شيطان دخل قلبه فوجد فيه ملكاً، واشتدت المعركة بينهما، غير أنه ظلَّ في حيرة لا يعرف أفي قلبه شيطان أم ملاك:

وإلى اليوم أرا نسي ♦♦ في شكوك وارتباك
 لست أدري أرجيهم ♦♦ في فؤادي أم ملاك

وفي ظلال التفاضل والتشاؤم تارة، والأمل في غد أفضل والخوف من مستقبل مجهول، يعيش كثير من الشعراء، بأفكارهم الواعية وخيالهم الثاقب، في حيرة من أمرهم، بين سمو الأهداف وقلة الحيلة، والنفوس معلقة على حبل يمتد بين الشك واليقين.

يقول أحدهم:

تَعَذَّبُ في لَهيبِ الشكِ رُوحِي

وتشقي بالظنون وبالتمني

الشعر والحياة

القسم الخامس

موضوعات متنوعة



عليكم حقوقاً لبلاد أجلها ♦♦ تعهد روض العلم فالروض مقفر
قصارى منى أوطانكم أن ترى لكم ♦♦ يداً تبتتي مجداً ورأساً يفكر
فكونوا رجالاً عاملين أعزة ♦♦ وصونوا حمى أوطانكم وتحرروا

يستقبل الناس العام الجديد فيبتهج به المتفائل، ويذمه المتشائم.
ومن يدري ماذا يخفي في طيات شهوره وأيامه. هذا مغزى الأبيات التالية
من قصيدة لجميل صدقي الزهاوي:

يبشر بالعام الجديد محرم ♦♦ وينعته كل بما هو يزعم
فيوليه من إطرائه متفائل ♦♦ ويكثر من ذم له متشائم
جديد، أجل عام جديد تجد في ♦♦ لياليه أحداث بها لست أعلم
فيفرح قلب بالكآبة مثقل ♦♦ ويحزن قلب بالمسرة مفعم
ورب سعيد بالشقاء مهدد ♦♦ ورب شقي بالسعادة يحلم
ونفرح بالأعوام إمّا تصرمت ♦♦ على أنها من عمرنا تتصرم

وهذا حسين عرب يخاطب العام الجديد متسائلاً عن أسرار
الوجود، والأفكار الغامضة حول الحياة والموت، والظلمات والنور، والحقائق
والأماني والأحلام:

ما الذي تخفيه من سر الوجود

بين أضوائك، أو خلف السحاب؟

ما الدجى، ما النور؟ ما سر الدنا؟

ما امتداد العمر؟ ما الموت السحيق؟

ويقول من قصيدة أخرى:

العام الجديد

أطلّ على الأكوان والخلق تنظراً ♦♦ هلالاً رآه المسلمون فكبروا
تجلى لهم في صورة زاد حُسْنها ♦♦ على الدهر حُسناً أنها تتكرر

هذا مطلع قصيدة لحافظ إبراهيم عنوانها ((تحية العام الجديد))
سنة 1327 هجرية (1909 ميلادية). ويضيف أن هذه المناسبة هامة
لأنها تذكركم بهجرة الرسول ﷺ :

يُسْرَاهُ بُرْهَانَ مِنَ اللَّهِ سَاطِعٌ ♦♦ هُدًى، وَيُيْمَنَاهُ الْكِتَابُ الْمُطَهَّرُ
فَكَانَ عَلَى أَبْوَابِ (مَكَّةَ) رَكْبُهُ ♦♦ وَفِي (يَثْرِبِ) أَنْوَارُهُ تَتَفَجَّرُ

ويذكر من حسنات العام المنصرم إعادة الدستور في تركيا،
ويهاجم شاه إيران لأنه أهرق دماء طلاب الحرية؛ ويتمنى لو أن
قيود الاستعمار كسرت في بلدان شمال إفريقيا. ثم يطلب من
((رجال الغد المأمول)) وشباب المستقبل أن ينهضوا ويشمروا لإعمار
البلاد وحماية الوطن:

رِجَالِ الْغَدِ الْمَأْمُولِ إِنَّ بِلَادَكُمْ ♦♦ تُشَايِدُكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تَتَذَكَّرُوا

هذه الأضواء منك انتشرت
تتهادى في الروابي والسهول
ليتها لما بدت وانتشرت
قد أضاءت في نفوس وعقول

وفي قصيدة لإيليا أبي ماضي عنوانها (1914)، يتساءل الشاعر لماذا يطرب الناس عندما ينقضي عام من حياتهم؟ ويجيب: لعل الأمل في أن يكون الغد أفضل هو الذي يدفع الإنسان للتفاؤل:

ما لنا يأخذُ منّا الطُّربُ
كلّما عَامٌ تَلاشَى واضِحٌ محلّ
أفرِحُنَا أننَّنا نَقْتربُ
من غَدٍ؟ إنَّ غَدًا فيه الأَجَلُ
عَجَبٌ هَذَا ومنه أعجَبُ
إننَّنا نَقْتَبِى ولا يَفْتَبِى الأَمَلُ

فكأننا ما سمعنا بالحنوم ♦♦ أو كأننا قد نعلمنا بالوجود

ثم يقارن الشاعر بين ما حققه الغرب من تقدم، بينما ما زال العرب ييكون على الأطلال؛ ويستحثهم إلى اليقظة والكفاح ضد الفساد والبغي والطغيان:

يا لَقَومِي بَلِّغِ السَّيْلُ الرُّبَى

واسنَّطَالِ البَغْيُ واستشْرِى الفَسَادُ
فاجْعَلُوا أَقْلَامَكُم بِبِيضِ الطُّبَى
واسْتَعْبِرُوا مِن دَمِ البَاغِي المَدَادُ
كَتَبَ السَّيْفُ ... اقْرَأُوا مَا كَتَبَا
لا يُنَالُ السَّمْعُ إِلاَّ بِالجِرِّ هَادُ

أي رجال الشرق أبناء القروم ♦♦ لا تناموا. آفة الماء الرُّكود !!



العلم والمعلم

العلم النافع هو الذي يهذب النفوس، ويثري الحياة، ويبعد الشرور والآلام، ويدفع صاحبه إلى العمل من أجل خير الجماعة وسعادتها، وهو ما يجعل صاحبه من ذوي الأخلاق الفاضلة والآداب السامية. يقول حافظ إبراهيم في هذا الموضوع:

لا تحسبن العلم ينفعُ وحده ♦♦ ما لم يتوج ربه بخلاق
كم عالم مدّ العلوم حباتلا ♦♦ لوقيمة وقطيعة وفراق

ويقول أبو العلاء المعري:

إذا علمى الأشياء جرّ مضرّة ♦♦ إلى فإن الجهل أن أطلب العلماء
فالعلم نور يجلي الدجى، وقوة تستغل لراحة الإنسان وإسعاده وارتقائه.

يقول الشاعر معروف الرصافي:

هو العلم يزكو بالحياة سعادة ♦♦ ويجعلها كالعلم محمودة العقبي

ويقارن الطغرائي في إحدى قصائده بين العلم والمال، ويؤكد أن العلم أفضل من الغنى، ويعلل ذلك بأسباب من جملتها:

المال يسلب أو يبديد لحادث ♦♦ والعلم لا يخشى عليه السالب
هذا على الإنفاق يغزر فيضه ♦♦ أبدا وذلك حين تتفق ناضب

أما أحمد شوقي فهو أكثر واقعية إذ يجعل للمال كما للعلم دوراً في بناء الحياة.

يقول هذا الشاعر:

يا طالبا لمعالي الملك مجتهدا ♦♦ خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال بينى الناس ملكهم ♦♦ لم بين ملك على جهل وإقلال

ويثني أحمد شوقي على المعلم في قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها:

قُمّ للمعلم وفّه التبجيلا ♦♦ كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي ♦♦ يبني وينشئ أنفسا وعقولا

ويردُّ عليه إبراهيم طوقان الذي مارس مهنة التعليم، بقصيدة عنوانها "الشاعر المعلم" فيقول:

"شوقي" يقول، وما درى بمصيبتى ♦♦ "قم للمعلم وفّه التبجيلا"
لو جرب التعليم شوقي ساعة ♦♦ لقضي الحياة شقاوة وخمولا

ومصدقا لوجهة نظر إبراهيم طوقان، يقول الشيخ عبدالمطلب من قصيدة عن المعلم:

بني مصر ما بال المعلم كاسفا ♦♦ يُري الناس فيها يكبرون ويصغر
سلوا عنه جنح الليل كم بات متعباً ♦♦ تمام حوالبه النجوم ويسهر

ويعدد بشارة الخورى فضائل المعلم، ويمجد تضحياته من أجل تربية الأجيال الجديدة، فيقول:

أَحْبَبِي بَ هَذَا الْكَلَامُ
تَسْقِيهِ عَلَى ظَمِّ إِيمَانِكُ
رَوَيْتَهُ أَدَبَ الْكَلَامِ

❖❖❖❖❖

بَيْنَ الْمَحَابِرِ وَالْمَنَابِرِ
ذَابَ لِئُلُوكِ فِي ضُجْحِكُ
تَشْكُو التُّجُومَ مِنْ السُّهَادِ
وَلَيْسَ تَشْكُو مَقَلَّتِ أَكُ
كَمَّ وَزْدَةً مِنْ غَرَسِ كَفَّكَ
رَاحَ يَجْنِيهِ سِرَّ وَائِ

أما الشاعر مهدي الجواهري فينادي بمعاوضة المعلم والوفاء بحقوقه، وإعلاء شأنه وتقدير رسالته، فيقول:

فَاعْطِ الْمُعَلِّمَ يَا "بِلَاسَمُ" حَقَّهُ
وَاعْضُدْ فَقَدْ عَدِمَ الْمُعَلِّمُ عَاضِدًا
لَوْ جَازَ لِلْحُرِّ السُّجُودُ تَعَبُّدًا
لَوْجَدْتُ عَبْدًا لِلْمُعَلِّمِ سَاجِدًا
لِلْمُتَعَبِّبِ الْمَجْهُودِ فِي يَقَظَاتِهِ
وَالْمُرْتَعِي طَيْفَ الْمَتَاعِيبِ هَاجِدًا

وفي قصيدة لجميل صدقي الزهاوي، مطلعها ((العلم ثروة أمة ويسار..)) يعدد الشاعر بعض مزايا العلم (التي أصبحت في عهدنا أموراً عادية) فيذكر أن العلم يدك الجبال، ويضيء الليل، ويقرب البعيد، ويكشف خبايا البحار، ويخفف أعباء الإنسان، وأنه مصدر ثروة الأمة وتقدمها.

ويختم الزهاوي القصيدة بقوله:

ما كان يفلح في جهاد حياته ❖ ❖ شعبٌ على كسل له استمرارُ
سيموت رب العلم من مرض به ❖ ❖ وتعيش دهرًا بعده الآثارُ

ويذكرنا أمير الشعراء، أحمد شوقي، ولعلّ التذكير ينبه الغافلين، بدور العلم في إنشاء الحضارات وبناء الممالك، فيقول:

العلم في سُبُل الحضارة والعلی ❖ ❖ حادٍ لكل جماعةٍ، وزمامُ
باني الممالك حين تشد بانياً ❖ ❖ ومثابة الأوطان حين تُضام



الطبيب

من الواضح أن ما قاله الشعراء في ذمّ الطبيب، يصدق بصفة خاصة على زمن لم يكن فيه الطب قد بلغ هذه الدرجة من التطور والدقة والفعالية. وبعض هذا الانتقاد إنما يأتي في شكل النوادر. وما يفعل الشاعر عندما لا يجدي العلاج، ويلج عليه المرض؟ إليكم أبياتاً قالها الحليس بن حباب في الموضوع:

طبيب طُبه كغراب بيّن ♦♦ يفرق بين عافيتي وبينى

أتى الحمى وقد شاختُ وباختُ

فردّها الشباب بنسختين

وكانت نوبة في كل يوم

فصيرها بحذق مرتين

ونجد أحد الشعراء، وهو السرى الرفاء، يثني على الطبيب، ويقول:

كأنه من لطف أفكاره ♦♦ يجول بين الدم واللحم

إن غضبت روح على جسمها ♦♦ أصلح بين الروح والجسم

ومن الشعراء من يدافع عن الطبيب لأنه يحاول أن يكشف الداء ويقدم العلاج، ولكنه لا يردُّ القدر؛ ولأن الطبيب نفسه معرض للأمراض التي يعالج منها زبائنه.

يقول ابن الرومي في هذا الصدد:

والناس يلحون الطبيب وإنما

غلط الطبيب إصابة الأقدار

ويقول أبو العتاهية:

ذهب المداوي والمداوى والذي

جلب الدواء وباعه ومن اشترى

ويؤكد ابن نباتة السعدي بأن المرء مهما حرص على اختيار الطبيب،

فإن الدواء لا يؤخر الأجل:

نُعَلُّ بالدواء إذا مرضنا ♦♦ وهل يشفى من الموت الدواء

وتختار الطبيب، وهل طبيبٌ ♦♦ يؤخر ما يقدمه القضاء

ونجد في الشعر العربي إشارات كثيرة إلى من ينشدون مساعدة

الطبيب، وهم في الواقع يعانون هجر الحبيب أو آلام الفراق. وهذا علي بن

الجهم يشكو همه للطبيب:

وقلتُ أيا طبيب الهجر دائي ♦♦ وقلبي يا طبيب هو الكئيبُ

فحرك رأسه عجباً لقولي ♦♦ وقال: الحبُّ ليس له طبيبُ

وهاهو الشاعر ديك الجن يرشد الطبيب إلى مكان الألم فيقول:

جسَّ الطبيب يدي جهلاً فقلتُ له

إن المحبة في قلبي فخلى يدي

وكان أبو الطيب المتنبى مقيماً في مصر عندما أصابته الحمى. ولعله كان يشعر بالخيبة أثناء زيارته لمصر لأنه لم يحقق ما جاء من أجله. ويخبرنا في هذه الأبيات أن سبب مرضه ليس ما ذكره الطبيب، بل نفس طموحة وهمة عالية لم تحقق كل أهدافها:

يقول لي الطبيبُ أكلتَ شيئاً

وداؤك في شـرابك والطعام

وما في طيبه أني جوادٌ

أضربُ باسمه طول المقام

تعوّد أن يغبر في السرايا

ويدخل من قَتامٍ في قَتام



الصديق والعدو

قال أحد الشعراء:

جزى الله الشدائد كل خير ❖❖ عرفتُ بها عدوي من صديقي

أجل عند الشدة، عند الحاجة، ساعة الضيق، عندما تشتد الأزمة وتضرب المصيبة .. يأتيك الصديق بماله وبرجاله، وبنفسه للوقوف إلى جانبك.

يقول ربيعة بن مقرم:

أخوكَ أخوكَ مَنْ تدنو وترجو

مؤدَّتْهُ وإن دُعِيَ اسـتـجـاباً

إذا حاربتَ حاربَ من تُعادي

وزادَ سـلاحه منكَ اقتراباً

ولعل من أجمل ما قيل في وصف الصديق قول أبي العتاهية:

إن أخاك الصدق من كان معك ❖❖ ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ❖❖ شئت فيه شمله ليجمعك

والصديق الحق وفي أمين، يحفظ سرّك، ويدافع عنك أثناء غيابك، صريح في كلامه، مخلص في مودته.

يقول العباس بن جرير:

إن الصديق هو الذي ♦♦ يرداك حين تغيبُ عنه
وإذا كَشَفْتَ غَطَاءَهُ ♦♦ أحمَدتَ ما كَشَفْتَ عنه

ويقدم لنا الشعر كثيراً من النصائح للمحافظة على الصديق، من ذلك غض الطرف عن هفواته، الإقلال من لومه، وعدم التشهير بنقائصه.

يقول المغيرة بن حبياء:

خذْ من أخيك العفو واغفرْ ذنوبه ♦♦ ولا تكْ في كل الأمور تعاتبه
فإنك لن تلقى أخاك مهذباً ♦♦ وأيُّ امرئٍ ينجو من العيب صاحبه

وكما يوصي بشار بن برد، فإنَّ الناس يملون العتاب، ويكرهون الانتقاد. وأيُّ صديق يكون سلوكه محموداً على الدوام:

إذا كُنْتَ في كلِّ الأمور مُعَاتِباً ♦♦ صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ
فِعْشٌ وَاحِدًا، أَوْ صِلَ أَخَاكَ فَإِنَّهُ ♦♦ مُقَارِفٌ ذَنْبٍ تَارَةً وَمُجَانِبُهُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرَضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا ♦♦ كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

ويقول كثير في هذا السياق:

ومن لا يُغْمِضُ عَيْنَهُ عن صَدِيقِهِ ♦♦ وعن بعضٍ ما فيه يَمُتُ وهو عَاتِبُ
وَمَنْ يَتَّبِعُ جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ ♦♦ يجِدُهَا ولا يَسْلُمُ له الدَّهْرُ صَاحِبُ

وإذا كان على الإنسان أن يحافظ على الصديق الوفي، فإنه ينبغي له كذلك أن يحذر الأصدقاء المتملقين والمداهنين والمتقلبين.

يقول علي بن أبي طالب:

ولا خير في ودِّ امرئٍ متلون ♦♦ إذا الريح مالت مال حيث تميلُ

ويقول إبراهيم بن محمد عن الصديق ذي الوجهين، الذي ينبغي للمرء ألا يغتر بتودده، بل أن يحذر مكره:

وكم من صديقٍ ودُّه بلسانه ♦♦ خَوُونٍ بظهِرِ الغيبِ لا يَتَدَمَّمُ
يُضاحِكُنِي عُجْبًا إذا ما لَقِيْتُهُ ♦♦ وَيَصْدُقُنِي منه إذا غِبتُ أَسْنَهُمُ
كذلك ذو الوجهين يرضيك ♦♦ وفي غيبه إن غاب صابٌ وعلقمُ

ولصالح بن عبدالقدوس أبيات مشهورة عن الصديق المتلون المنافق، منها:

لا خَيْرَ في ودِّ امرئٍ مُتَمَلِّقٍ ♦♦ حلو اللسان وقلبه يَتَلَهَّبُ
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ♦♦ ويروغُ منك كما يروغ الثعلبُ
يلقاك يحلف أنه بك واثق ♦♦ وإذا توارى عنك فهو العقرَبُ

ويتحدث الشعراء كذلك عن أولئك الأصدقاء الذين لا تدوم مودتهم، ولا يستمر إخلاصهم إلا لمن دامت له النعمة، فإذا دارت عليه الدوائر، وزالت من يده السلطة، تجاهلوه وابتعدوا عنه.

يقول كثير في هذا الصدد:

الناس أتباع من دامت له النعمُ ♦♦ والويلُ للمرء إن زلت به القدمُ

ويقول أبو فراس الحمداني:

أقلب طرقي لا أرى غير صاحب ♦♦ يميل مع النعماء حيث تميلُ

وربما تحول الصديق فأصبح عدواً، غُصّة في الحلق وقذى في العين،
كما قد ينقلب العدو إلى صديق، ولذا قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل.

يقول أبو الطيب المتنبّي:

ومن العداوة ما ينالك نفعه ♦♦ ومن الصداقة ما يضرّ ويؤلمُ

ويقول الطغرائي في لاميته المشهورة:

أعدى عدوك أدنى من وثقت به ♦♦ فحاذر الناس واصحبهم على دخلٍ
فإنما رجل الدنيا وواحدّها ♦♦ من لا يعول في الدنيا على رجلٍ

وهكذا يصح القول: احذر عدوك مرة، واحذر صديقك ألف مرة.
واحبب صديقك هونا، عسى أن يكون عدوك يوماً. وفي سياق توحي
الاعتدال في معاملة الأصدقاء وفي الثقة بهم،

يقول الخشرم العذري:

واحبب إذا أحببت حباً مقارباً ♦♦ فإنك لا تدري متى أنت نازعُ
وابغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً ♦♦ فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

وقد تتجاوز نصائح بعض الشعراء مستوى التحذير من المبالغة في
الثقة بالناس، إلى التشاؤم منهم، ونلاحظ هذا الاتجاه، في بعض
الظروف، لدى أبي فراس الحمداني عندما يقول:

بمن يثق الإنسان فيما يُنوبه ♦♦ ومن أين للحُرِّ الكريم صحاب؟
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ♦♦ زئاباً على أجسادهنّ ثيابُ

ولحكيم المَعَرَّة، أبي العلاء المعري، أقوال شهيرة في الناس
والأصدقاء، أذكر منها:

عصا في يد الأعمى يروم بها الهدى

أبرلُهُ من كلِّ خدن وصاحبِ

وقوله:

فظنُّ بسائر الإخوان شرّاً ♦♦ ولا تأمن على سرِّ فتواداً

غير أن الرأي السائد، والقول المفيد هو أن يختار المرء من يصاحب،
لأن الأمر كما قال أحدهم:

عن المرء لا تسأل، وسل عن قرينه ♦♦ فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يقتدي



الشجاعة

تتمثل الشجاعةُ فيما يفعله المرء (أو يقوله) دفاعاً عن الحق والوطن والنفس، وعن الضعيف والمظلوم. وليس من الشجاعة في شيء ما يتباهى به بعض الأشخاص من العنف والمخاطرة من أجل التظاهر، وهي أفعال أقرب إلى التهور والحماسة.

يقول أحمد شوقي:

إن الشجاعة في القلوب كثيرةٌ

ووجدت شجعان العقول قليلاً

ويعطي المتنبي الأولوية للرأي السديد قبل الشجاعة، لما يترتب على التهور من عواقب:

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول، وهي المحل الثاني

والشجاعة تعني المسؤولية والتضحية والحكمة.

يقول المتنبي:

وكلُّ شجاعةٍ في المرء تُغني ♦♦ ولا مثل الشجاعة في الحكيم

وليس الجبن عاراً إذا كان في الإقدام مغامرة خطيرة. يقول أحدهم:

وربما يكون الجبن حلماً ♦♦ إذا الإقدام مرزأة وحمق

ويقول عمرو بن معد يكرب في هذا المقام:

وليس فرارُ اليوم عاراً على الفتى

إذا عرفتُ عنه الشجاعة بالأمس

ونجد في قول بشار بن برد تأكيداً لآراء من يعطون الأولوية للرأي والمشورة، وقد سبق المتنبي إلى القول:

وربّ امرئ يكفي قتال عدوه

بآرائه والسيف ما فارق الغمدا

وقد أسهب شعراء العربية في مدح الشجاعة وذم الجبن، إذا كان الأجل مكتوباً، لا يُقرّبهُ الإقدام ولا يبعده الخوف.

يقول جرير:

قل للجبان إذا تأخر سرجه ♦♦ هل أنت من شرك المنية ناجي

ويقول الشريف الرضي:

إذا هول دعائك فلا تهبه ♦♦ فلم يبق الذين أبوا وهابوا

ويتعجب الأبيوردي من الجبان الذي يرى أن الشجاعة مرقاة إلى الهلاك، فيقول:

ما للجبان ألان الله جانبه ♦♦ ظنُّ الشجاعة مرقاةً إلى الأجلِ
وكم حياة جنتها النفس من تلف ♦♦ ورب أمنٍ حواه القلب من وجلِ

ويرفض البارودي حياة الجبان وما تجلب من ذلٍّ وهوان، فيقول:

لا خير في عيش الجبان يحوطه ♦♦ من جانبيه الذل والإملاق
وتختلف آراء الناس في الشجاعة بين من يخشى أخطارها وعواقبها
الوخيمة فيقول:

باتت تشجّعني هندٌ وقد علمتُ ♦♦ أن الشجاعة مقرُونٌ بها العطبُ
يا هندُ لا والذي حجّ الحجيجُ لهُ ♦♦ ما يشتهي الموتَ عندي من له أدبُ

ومن ينشد مع المتنبّي بحماس قوله:

عشٌ عزيزًا أو متٌ وأنت كريمٌ

بين طعن القنا وخفق البنود

فاطلب العزَّ في لظي ودع الذلَّ

ل، ولو كان في جنات الخلود



الحلم والجهل

الحلم أن يتحلّى المرء بالسماحة وكرم الأخلاق وضبط النفس،
فيتروى في ردود أفعاله عند مواجهة ما ينجم من مشاكل الحياة في
معاملة الناس. والجهل هنا هو معاملة الناس بغلظة وسفاهة وعنف
وحماقة، أو على الأقل أن يرد المرء العنف والقوة بقوة رادعة مثلها.

يقول المرار بن سعيد الفقعسي:

إذا شئت يوماً أن تسودَ عَشِيرَةً ♦♦ فبالحلمِ سُدْ لا بالتسرُّعِ والشَّتْمِ
وللحلمِ خيرٌ فاعلمنَّ مَغَبَّةً ♦♦ من الجهلِ إلا أن تُشمسَ من ظلمِ

ولا يكون الحلم فضيلة، ولا يعتبر المرء حليماً إلا إذا صدر عنه
التسامح مختاراً لا مضطراً، وكان قادراً على الأخذ بثأره، أو استرداد
حقه بالقوة، لأن العفو الحقيقي لا يكون إلا عند القوة والقدرة.

يقول أبو الطيب المتنبّي:

كل حلم أتى بغير اقتدارٍ ♦♦ حيلة لاجئٍ إليها اللئامُ

وينصح الشعراء باللجوء إلى الحلم والتسامح لمعالجة المشاكل. غير
أنه قد يحدث أن يظن السفیه أو المعتدي، أن حلم الحليم ضعف فيتمادى في
غيّه وحماقته، وعندئذٍ لا بد من اللجوء إلى مواجهة الجهل بجهل مثله.

يقول إبراهيم بن المهدي:

إذا كنت بين الحلم والجهل مائلاً

وخيّرت أئني شئت فالحلم أفضل

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً

ولم يرض منك الحلم فالجهل أنبل

ويقول شاعر آخر مبيناً أنه مستعد لمواجهة "الجاهل" بالقوة

الرادعة:

ولي فرس للحلم بالحلم مسرح ♦♦ ولي فرس بالجهل للجهل مسرح

فمن رام تقويمي فإني مقوم ♦♦ ومن رام تعويجي فإني معوج

ويقول أوس بن حبناء في هذا السياق:

وأحلم ما لم ألق في الحلم ذلّة ♦♦ وللجاهل العريض عندي زواجرة

وقد لاحظ الشعراء، في تجاربهم وعلاقاتهم، أن الإنسان أناني، يسعى دوماً إلى قضاء مآربه وتحقيق أهدافه، والسيطرة على غيره. ولذلك قرنوا دعوتهم إلى الحلم والتسامح، باللجوء في النهاية إلى القوة حتى لا يطغى جهل المعتدين وسيطرة السفهاء. وأقوالهم في هذا الموضوع كثيرة، من ذلك ما قاله سعد بن كعب الغنوي:

ولا يلبث الجهال أن يتهموا

أخا الحلم ما لم يستعن بجهول

وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له

بوادر تحمي صفوه أن يكدرًا

وللمتنبى أبيات شهيرة في اللجوء إلى القوة لردع الظالم، وصيانة الشرف والكرامة وعزة النفس، ومن أقواله:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه ♦♦ إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

وأن ترد الماء الذي شطره دم ♦♦ فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم

وإذا كان الحلم لا يكون إلا عند المقدرة، كما تقدم، فهو إذا من أخلاق ذوي القوة والسلطة والإمكانات المادية والمعنوية.

يقول حسان بن ثابت:

ربّ حلم أضاعه عدم المال،

وجهل غطى عليه التعميم ...

وبقى للمستضعفين أن يتمنوا ما تمناه أبو دهب الجمحي حين قال:

وليت ذا الفحش لاقى فاحشا أبدا

ووافق الجهل أهل الجهل فارتدعوا



الكذب

وُصِفَ الكَذَّابُ بأنه دنيء، منافق، حقير، محتال، غدار، آثم، مماطل، قليل الحياء والأدب، غشاش، مخادع، جبان ... إلخ.

قال أحد الشعراء:

لا يكذب المرء إلا من مهانته ♦♦ أو فعله السوء، أو من قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة ♦♦ من كذبة المرء في جدّ وفي لعب

وقال آخر:

إذا عرف الإنسان بالكذب لم يزل ♦♦ لدى الناس كذاباً ولو كان صادقاً
فإن قال لم يُصغ له جلساؤه ♦♦ ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقاً

ويكفيه إهانة أنه لا يؤتمن، ولا يصدق حتى وإن قال صدقا، بل أسوأ من ذلك أن ينسب إليه كذب غيره، كما قال أحدهم:

حَسْبُ الكَذُوبِ من المَها ♦♦ نة بعض ما يُحْكِي عليه
فإذا سمعت بكذبة ♦♦ من غيره نُسبت إليه

ولا شك أن هناك أسبابا عديدة نفسية، مادية واجتماعية، تدفع المرء إلى الكذب. وكثيراً ما تكون نتائج الكذب وخيمة وعواقبه مكلفة. ويحذر الشعراء من هذه العادة السيئة.

يقول الشريف الرضي:

إياك أن تسخو بوع — ♦♦ لـ ليس عزمك أن تقي به
فالصدقُ يحسن بالفتي ♦♦ والكذبُ يحسب من عيوبه

ويوصف الصادق في كلامه ووعوده بأنه شخص نبيل، شهم، كريم، شجاع ... إلخ.

قال طرفة بن العبد:

والصدقُ يَأْلِفُهُ المُرْتَجِي ♦♦ والكذبُ يَأْلِفُهُ الدَّنيُّ الأَخْبِبُ

ومن سيئ السلوك أن يسارع المرء إلي القسم على الأمور الصغيرة، دون أن يُطلب منه ذلك. وينصح المعري بالأ يقسم المرء حتى عندما يكون صادقاً في كلامه:

لا تحلفنَّ على صدقٍ ولا كذب

فما يفيدك إلا المأثم الحلفُ

ويُنقَد الرصافي الكذب الذي يضيف إليه صاحبه قليلاً من صدق الكلام لمغالطة الناس زيادة في الاحتيال، فيقول:

وأشنع الكذب عندي ما يمازجه

شيء من الصدق تمويهاً على الفكر

فإن إبطالَ هذا في النهى عسيرٌ

وليس إبطال محض الكذب بالعسير

ونجد ابن الرومي يقول، في البيتين التاليين، إنه لا بأس أن يحلف

المرء في حالة الضيق والشدة، لأنه عندئذٍ يستعين بالله ليفرج عنه حالة العسر:

وإني لذو حلفٍ حاضرٍ ♦♦ إذا ما اضطررتُ وفي الحال ضيقُ
وهل من جناحٍ على مُرهقٍ ♦♦ يدافع بالله ما لا يُطيقُ



الكلام والصمت

يتفق الشعراء على أن للكلام مقاماً، وللصمت مقاماً آخر. وقد يمدح الشاعر الكلام حيناً ويذم الصمت، ويفعل عكس ذلك تارة أخرى. ومن الناس من يحق له أن يتكلم إذا كان في قوله منفعة وعلم وحكمة؛ ومنهم من ينبغي له أن يلزم الصمت إذا كان ثثاراً، يزعج المستمعين. قال شاعر ينصح بالصمت، محذراً من عثرات لسان الثرثار:

احفظ لسانك أيها الإنسان ♦♦ لا يكذبك إنه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه ♦♦ كانت تهاب لقاء الشجعانُ

ويحذر أحدهم من عثرة اللسان، وما قد تجره من عواقب وخيمة على الإنسان وأسرته، فيقول:

فعثرته في القول تذهب رأسه

وعثرته في الرجل تبرا على مهلٍ

ويؤكد آخر هذا المعنى فيقول:

وقد يرجى لجرح السيف برءً

ولا بُرءً لما جرح اللسان

ويقول أبو نواس:

مُتْ بَدَاءَ الصَّمْتِ خَيْرٌ ♦♦ لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ
إِنَّمَا السَّالِمُ مَنْ ♦♦ أَلْجَمَ فَاهُ بِلِجَامِ

ويؤكد الشيخ السابوري أهمية التروي في الكلام، وأن اللسان قد ينطلق مثل الحيوان المتوحش ما لم يعقل، فيقول:

لَا شَيْءَ مِنْ جَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ♦♦ أَحَقُّ بِالْحَبْسِ مِنَ اللِّسَانِ
إِنَّ اللِّسَانَ سَبُعٌ عَقُورٌ ♦♦ إِنْ لَمْ يَسُئْهُ الرَّأْيُ وَالتَّدْبِيرُ

وكثيرهم الشعراء الذين مدحوا مزايا الكلام، إذ لولاه لما أمكن تقييم مكنون الإنسان وعلمه وفكره؛ فالصمت لا يظهر الفاضل من الناقص، والبليغ من الجاهل.

يقول زهير بن أبي سلمى:

لِسَانُ الْفَتَى نَصْفٌ، وَنَصْفُ فَوَادِهِ

فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

ويقول الخطفي مبرزاً أهمية القول في إظهار شخصية الإنسان وقيمه:

عَجِبْتُ لِإِزْرَاءِ الْعَيْيِّ بِنَفْسِهِ

وَصَمْتُ الَّذِي قَدْ كَانَ بِالْقَوْلِ أَعْلَمَا

وَفِي الصَّمْتِ سَثْرٌ لِلْعَيْيِّ وَإِنَّمَا

صَحِيفَةٌ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

أما ابن الرومي فيملُّ أشياء كثيرة في حياته اليومية باستثناء الحديث، لأنه يأتيه بما هو جديد:

إِنِّي سَأَمْتُ مَآرِبِي ♦♦ فَكَأَنَّ طَيِّبَهَا خَبِيثُ
إِلَّا الْحَدِيثَ فَإِنَّهُ ♦♦ مِثْلَ اسْمِهِ أَبَدَا حَدِيثُ

من الناس من يكون كلامه بليغاً، وأفكاره جذابة، وإن من البيان سحراً؛ ومنهم من يثير قوله الملل والانزعاج في نفوس الناس، وشتان بين الثرى والثريا.

يقول أبو العلاء المعري:

مِنَ النَّاسِ مَنْ لَفْظُهُ لَوْلُو ♦♦ يِيَادِرُهُ اللَّقْطُ إِذْ يَلْفَظُ
وَبَعْضُهُمْ قَوْلُهُ كَالْحَصَى ♦♦ يُقَالُ فَيَلْفِي وَلَا يَحْفَظُ

وينصح الشعراء من يكثر الحديث أن يحذر بصفة خاصة إفشاء أسرار الناس، والطلعن في أعراضهم وكشف عوراتهم.

قال أحدهم:

لِسَانِكَ لَا تَذَكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرَأَتِي

فكلك عورات وللناس أعينُ

ويقول الطغرائي:

وَيَا خَبِيرًا عَلَى الْأَسْرَارِ مَطْلَعَا

أصمت فقي الصمت منجاة من الزلِ

ويقول الشريف الرضي:

ومن قيّد الألفاظ عند نزاعها

بقيّد النهي أغنّته عن طلب العذر



حفظ السرّ

السرّ أمانة ثمينة، وإفشاؤه قد يوقع المرء فيما لا تحمد عقباه. فعلى المرء أن يختار لأمانته، وألا يودع أسرارَه إلا لدى أهل الثقة والخلق الكريم.

يقول أبو ذؤيب الهذلي:

وما يحفظُ المكتومَ من سرِّ أهله ♦♦ إذا عُقدَ الأسرارِ ضاع كبيرُها
من القومِ إلا ذو عفافٍ يُعِينُهُ ♦♦ على ذلك منه صدقُ نفسٍ وخيرُها

وينصح عليّ بن أبي طالب عليه السلام بأن يحذرَ المرءَ الإنسانَ الذي ينقل إليه أسرارَ الناس، فيقول:

لا تفسِ سرّاً ما استطعت إلى امرئ ♦♦ يفسِي إليك سرائراً يستودعُ
فكما تراه بسرّاً غيرك صانعاً ♦♦ فكذا بسرّك لا محالة يصنعُ

وهذه نصيحة أخرى من قيس بن الخطيم الأنصاري، إذا أفشيت أسرارك لأكثر من شخص واحد، فأنت تعرف النتيجة:

إذا جاوز الاثنين سرفانه ♦♦ بنثٌ وتكثير الحديدِ قمين
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني ♦♦ مكان بسوداءِ الفؤادِ مكين

وقد وجدتُ اسم ((الذئب))، هذا الحيوان المسكين، على أسنة الناس حتى في كلامهم عن كتمان السر، واختيار من نبوح لهم بأسرارنا.

يقول أحد الشعراء:

لا تودع السرَّ وشاء به مذلاً

فما رعى غنماً في الدَّوِّ سرحانُ

وإذا كان من الحكمة ألاَّ يبوح المرء بأسراره دون حذر وترو، وانتقاء أهل الثقة، فمن الأولى له ألا يفشي الأسرار التي اتّمن عليها.

يقول أحمد بن يحيى بن الخطيم:

وإن ضيّع الإخوانُ سرّاً فإنني

كـتـومٌ لـأسـرارِ العـشـيرِ أـمـينُ

يكونُ له عندي إذا ما ضمّنتُهُ

مـكانٌ بـسـوداءِ الفـؤادِ مـكـينُ

ويؤكد لنا المتنبّي أن السرّ لديه محفوظ في مكان أمين، حتى الشراب لا يصل إليه:

وللسرّ منّي موضعٌ لا يناله

نـديمٌ ولا يفضي إليه شرابُ

ويصف السري الرفاء شخصاً لا يكتفم السرّ بأنه مثل الزجاج لا تخفي محتواها؛ ويقول عن إفشاء السرّ بأنه مثل إناء الزجاج إذا انكسر لا يجبر:

سريّ لديك كأسرارِ الزجاجِ لا

فاحذر من السرّ كسراً لا انجباراً

♦♦ يخفى على العين منها الصفو والكدُرُ ♦♦

♦♦ فللزجاجِ كسرٌ ليس ينجبرُ ♦♦

الطين .. يتيه ويتكبر

عجيب أمر الإنسان يتيه ويتعالى على أخيه! ألا يكفيه أن يتذكر أصله ((الطيني))؟ ونهايته البشعة المحتومة، وأكوام من الديدان تهش جسمه المتفسخ الكريه؟ عجباً كيف يتكبر ويتعالى من كان مصيره بهذه البشاعة المقرفة.

يقول إيليا أبو ماضي في قصيدة عنوانها ((الطين)):

نسيّ الطين ساعة أنه طينٌ ♦♦ حقيراً فصال تيها وعربدُ

وكسا الخزُّ جسمه فتباهى ♦♦ وحوى المالَ كيسه فتمرّدُ

ثم يسأل الشاعر "أخاه" الإنسان: لماذا تتعالى عني وتتمرد؟ هل لأنك تأكل الأحجار الكريمة، وتشرب الجمان؟ وهل أمانى من تراب وأمانيك من عسجدٍ وهل دموعي حلّ ودموعك عسل؟ ... إلخ ثم يذكره بأنه مثل غيره حيوان ضعيف مسيرٌ مستعبد، ويؤكد له أن ملابسه الجميلة سوف تبلى وقصره سوف ينهد:

أنت مثلي من الثرى وإليه ♦♦ فلماذا، يا صاحبي، التيه والصدُّ

أيها الطينُ لست أنقى وأسمى ♦♦ من تراب تدوس أو تتوسدُ

سُدتْ أو لم تَسُدْ فما أنت إلا ♦♦ حيوان مُسيرٌ مُستعبدُ

لا يكنْ للخصام قلبك مأوى ♦♦ إن قلبي للحبِّ أصبح معبدُ

ولنعد إلى الوراء في الزمن قليلاً لنرى ما قاله بعض الشعراء عن الشخص المتعالى المتكبر وعن المتواضع.

قال أبو تمام يصف رجلاً متواضعاً يتمتع بمكانة عالية بين قومه:

متبذلٌ في القوم وهو مَبَجَّلٌ

متواضعٌ في الحيِّ وهو مُعْظَمٌ

يعلو فيعلمُ أن ذلك حقُّه

ويذيلُ فيهم نفسه فيكْرَمٌ

وقال أحدهم:

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعةً ♦♦ فإن رفيع القوم من يتواضعُ

وقال الطغرائي في تشبيه جميل للشخص المتواضع بالغصن الذي ينحني لأنه مثقل بالثمار:

أرى الغُصْنَ يعرى وهو يسمو بنفسه

ويُوقر حملاً حين يدنو من الأرض

ونجد هذا التشبيه في بيت لعثمان بن سعيد:

متواضعٌ كالغصنِ يدنو مُثْمِراً ♦♦ فإذا أنالك ما عليه ترفَعاً

ويشبهه شاعر آخر الرجل المتواضع بالنجم يظهر على صفحة الماء، والرجل المتكبر بالدخان الذي يعلو بنفسه وهو وضيع:

تواضعُ تكنُ كالنجم لاح لناظر ♦♦ على صفحات الماء وهو رفيعُ

ولا تكُ كالدخانِ يعلو بنفسه ♦♦ إلى طبقات الجوِّ وهو وضيعُ

الصغير والكبير

يقول شبيب بن البرصاء المري إنه يدع كثيراً من الحوادث الصغيرة تمر، ولا يحمل من أجلها حقدا:

مخافة أن تجني عليّ وإنما

يهيج كبيرات الأمور صغارها

ويقول طرفة بن العبد:

قد يبعث الأمر العظيم صغيره

حتى تظل له الدماء تُصبُّ

ويظهر حسان بن ثابت أهمية "الصغير" وتأثيره على حياة "الكبير" عندما يقول:

لقد عظم البعير بغير لب ♦♦ فلم يستغن بالعظم البعيرُ

يصرفه الصبيُّ بكل وجه ♦♦ ويحبسُه عن الخسف الجريُّ

ويضرب لنا شاعر آخر مثلاً على الأمر الخطير يتسبب فيه الحدث الصغير فيقول:

فإنَّ النار بالعودين تذكي

وإن الحرب أولها كلامُ

والسيف مثلُ العصا إن كان مُتَمَدًّا ♦♦ وزَامِرُ الحَيِّ لا يحظى بإطراب

وكذلك يرى أبو تمام أن السفر يجدد ديباجة الإنسان التي يبليها طول المقام:

وطول مقام المرء في الحَيِّ مخلوق ♦♦ لديباجتيه، فاغترب تتجدد

ويصوّر ابن لبون نفسه مثل العقاب الذي يحلق في الأجواء العليا فيقول:

فلسْتُ ككلب السوء يرضيه مريض ♦♦ وعظم، ولكني عقاب سماء

ومن الشعراء من يرى أن السفر ليس على الدوام وسيلة لنيل الثروة، وأن المكوث في مكان واحد لا يحرم الإنسان من الرزق.

قال الحكم بن عبدل:

قد يُرْزَقُ الخافِضُ المقيمُ وما ♦♦ شَدَّ بَعْنَسِ رَحْلاً وَلَا قَتَبَا
ويُحْرَمُ المَالُ ذُو المَطِيَّةِ والرُّ ♦♦ حُلٍ وَمَنْ لَا يَزَالُ مُغْتَرِبَا

وممن يتبنى هذا الاتجاه الشريف الرضي الذي يقول من قصيدة:

ليس المقامُ بثانٍ عنك واردة ♦♦ من الحظوظ، ولا الأرزاق بالرحلِ

أما ابن الرومي فيخبرنا بأنه تعب من التنقل والرحيل، دون أن يحقق ما كان يصبو إليه من عزٍّ وثناء:

أذاقتني الأسفارُ ما كَرَّهَ الفنى ♦♦ إلى وأغراني برفض المطالبِ
وما كل من حطَّ الرحال بمخفق ♦♦ ولا كل من شدَّ الرحال بكاسبِ

ويبدو أن امرؤ القيس لم يحقق هدفه من أسفاره، فرضي بالعودة سالماً:

وقد طوفتُ بالآفاق حتى ♦♦ رضيتُ من الغنيمة بالإياب

أمّا قيس بن الخطيم فيؤكد أنه من البلاء أن يستقر المرء في بلاد لا يعيش فيها عزيزاً مكرماً:

وما بعض الإقامة في بلاد ♦♦ يهان بها الفتى إلا بلاء

ويقول أحدهم إنه لا يصبر على الإهانة إلا الحمار والوتد:

ولا يقيم على ضيمٍ يُرادُ به ♦♦ إلا الأذلان عير الحي والوتدُ
هذا على الخسفِ مربوطٌ برمته ♦♦ وذا يُشجُّ فلا يرثى له أحدُ

ويقول أبو علي تميم بن معد إن وطنك هو البلد الذي أنشأت فيه منزلاً، ولك فيه أحياء تشناق إلى لقاءهم:

ومَا بَلَدُ الإنسانِ إلا الذي له ♦♦ به سَكَنٌ يَشْتاقُهُ وَحَبِيبُ

ويقول أبو تمام إنه لا يرضى بالعيش في بلاد لا يكون فيها حراً طليقاً، وقلبه منتعشاً متمتعاً بالحياة:

سأصرفُ وجهي عن بلاد غداً بها ♦♦ لساني معقولاً وقلبي مُقفلًا
وإنَّ صريح الحزم والرأي لا مرئ ♦♦ إذا بلغته الشمسُ أن يتحوَّلًا

وطنك حيث تجد سعادتك، وأصدقائك هم أهلك، هذا هو رأي المتنبي في البيت التالي:

ومَا بَلَدُ الإنسانِ غيرُ المُوَافِقِ ♦♦ ولا أهله الأذنونَ غيرُ الأصادِقِ

ولكن من هو الغريب في رأي الشريف الرضي؟

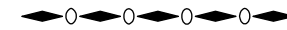
ليس الغريبُ الذي تتأى الديارُ بِهِ ♦♦ إِنَّ الْغَرِيبَ قَرِيبٌ غَيْرُ مَوْدُودٍ

وكيف يبقى لدى الطغرائي شك في أن السفر مفيد، وأن التنقل يجلب العز، بعد أن حدثته العلي بذلك. فيما يلي بيتان من "لامية العجم للطرغرائي:

إِنَّ الْعُلَى حَدَّثْتَنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ ♦♦ فِيمَا تَحَدَّثُ أَنْ الْعَزِيزُ فِي النَّقْلِ
لَوْ أَنَّ فِي شَرْفِ الْمَأْوَى بَلُوغٌ مُنَى ♦♦ لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يَوْمًا دَارَةَ الْحَمَلِ

ومن الأمثلة الأخرى التي يضربها الشعراء للتشجيع على السفر (بالإضافة إلى ما ذكر) أن الحيوانات إنما تكسب قوتها بالتنقل؛ والتبر والذهب لا تظهر قيمتهما إلا إذا غادرا مستقرهما؛ والسحب تنتقل لتجد الظروف المناسبة التي تحولها إلى مطر؛ والشمس نفسها لو استقرت في مكان واحد يملها الناس. وفيما يلي أبيات يعدد فيها صاحبها بعض مزايا السفر:

تَغْرَبُ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلْبِ الْعُلَا ♦♦ وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفْرُجُ هَمًّا، وَاكْتِسَابَ مَعِيشَةٍ، ♦♦ وَعِلْمًا، وَآدَابًا، وَصَحْبَةَ مَا جَدِ
وَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمَحَنَةٌ ♦♦ وَقَطْعَ الْفِيَا فِي وَاكْتِسَابِ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ ♦♦ بَدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ



مدنٌ بكأها الشعراء

يُخَرَّبُ الاحتلال الصهيوني اليوم بكل وحشية وهمجية، مدناً تاريخية ومقدسة، ويعيثُ فساداً في أرض فلسطين، تماماً كما فعلت عصابات وقوى معتدية مفتصبة طاغية عبر التاريخ، بمدن عربية كانت رمزاً للحضارة والازدهار. ومن المدن التي بكأها الشعراء لما ألحق بها من دمار مدينة البصرة.

حدث ذلك أثناء ثورة الزنج في العراق. وذات يوم، صيف سنة 871 ميلادية، هجم الزنج على مدينة البصرة، قتلوا أعداداً كبيرة من سكانها، ونهبوا خيراتها ومنازلها، وأشعلوا فيها النيران.

وفي هذه الحادثة الأليمة يقول ابن الرومي من قصيدة يرثى فيها البصرة:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْكَ! أَيُّهَا الْبَصْرُ ♦♦ رُةً لَهْفًا كَمَثَلِ لَهْبِ الضَّرَامِ
لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْكَ! مَعْدِنَ الْـ ♦♦ خَيْرَاتٍ لَهْفًا يُعْضُنِي إِبْهَامِي
لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْكَ! يَا قُبَّةَ الْـ ♦♦ إِسْلَامٍ لَهْفًا يَطُولُ مِنْهُ غَرَامِي
مَا تَذَكَّرْتُ مَا أَتَى الزَّنْجُ، إِلَّا ♦♦ أَضْرَمَ الْقَلْبُ أَيُّمَا إِضْرَامِ
مَا تَذَكَّرْتُ مَا أَتَى الزَّنْجُ، إِلَّا ♦♦ أَوْجَعْتَنِي مَرَارَةَ الْإِرْغَامِ
رَبِّ بَيْعٍ، هُنَاكَ، قَدْ أَرْخَصُوهُ، ♦♦ طَالَمَا قَدْ غَلَا عَلَى السُّوَامِ
رَبِّ بَيْتٍ، هُنَاكَ، قَدْ أَخْرَبُوهُ ♦♦ كَانَ مَأْوَى الضُّعَافِ وَالْأَيْتَامِ
رَبِّ قَصْرِ، هُنَاكَ قَدْ دَخَلُوهُ، ♦♦ كَانَ، مِنْ قَبْلِ ذَاكَ، صَعْبَ الْمَرَامِ

ربُّ ذي نعمةٍ، هناك، ومالٍ، ♦♦ تركُّوه مُحالِفَ الإعدام
ربُّ قومٍ باتوا بأجمعٍ شملٍ، ♦♦ تركوا شملهم بغير نظام

وفي سنة 1258 سقطت مدينة بغداد في يد هولاكو وجنوده، فعاثوا فيها فساداً كما يفعل كل محتل لا يرحم. وفيما يلي أبيات من قصيدة لإسماعيل بن أبي اليسر يرثي فيها بغداد العظيمة:

لِسائِلِ الدَّمْعِ عَنِ بَغْدَادَ أَخْبَارُ ♦♦ فَمَا وَقُوفُكَ، وَالْأَحْبَابُ قَدْ سَارُوا
تاجُ الخِلافةِ والرِّيعُ الَّذِي شَرُفَتْ

بِهِ المَعَالِمُ قَدْ عَفَّاهُ إِقْفَارُ
أَضْحَى لِعَطْفِ البَلَى فِي رِيعِهِ أَكْرُ

وللدموع على الأثارِ آثارُ
علا الصليب على أعلى منابرها

وقام بالأمر من يحويه زُّنارُ
وكم بُدورٍ على البدرية انخسفت

ولم يُعَد لِبُدورٍ مِنْهُ إِبْدَارُ
وكم ذخائرٌ أضحت وهي شائعةٌ

من النُّهابِ وقد حازته كُفَّارُ

ويكي ابن شهيد الأندلسي ضياع مدينة قرطبة، ويصف ما كان ينعم به أهلها من رغد العيش، وقصور المدينة وأسواقها، وغانياتها تتبخر في أمن وسلام:

فَلِمِئَلِ قُرْطُبَةَ يَقِلُّ بُكَاءُ مَنْ

يبيكي بعينٍ دمعها مُتَجَجَّرُ
دارٌ، أَقَالَ اللهُ عَثْرَةَ أَهْلِهَا

فَتَبْرِرُوا وَتَغْرِبُوا وَتَمَّ صَرُّوا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ فَرِيقٌ مِنْهُمْ

مُنْقَطٌّ لِفِرَاقِهَا مُتَحَيَّرُ
عَهْدِي بِهَا وَالشَّمْلُ فِيهَا جَامِعٌ

مِنْ أَهْلِهَا وَالْعَيْشُ فِيهَا أَخْضَرُ
حَزَنِي عَلَى سَرَواتِهَا وَرُواتِهَا

ووثقاتِهَا وَحُمَاتِهَا يَتَكْرَّرُ
نَفْسِي عَلَى آلائِهَا وَصَفائِهَا

وبهائِهَا وَسِنائِهَا تَتَحَسَّرُ
كَبِيرِي عَلَى عُلَمَائِهَا حُلَمَائِهَا

أُدْبائِهَا ظُرْفائِهَا تَتَقَطَّرُ

ومن أشد القصائد تأثيراً قصيدة أبي البقاء الرندي، التي يبكي فيها على ديار الإسلام ومدن الأندلس، بعد الهزيمة، ويصف ذلة أهلها الذين يستغيثون فلا يسمع صيحاتهم أحد (1) يقول أبو البقاء الرندي:

فَاسْأَلِ "بَلَنْسِيَّةَ" مَا شَأْنُ "مُرْسِيَّةَ" ♦♦ وَأَيْنَ "شَاطِئَةَ" أَمْ أَيْنَ "جِيَّانُ"؟
وَأَيْنَ "قُرْطُبَةَ" دَارُ العُلُومِ، فَكَمْ ♦♦ مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنُ

وَأَيْنَ "جِمصُ" وَمَا تحويه مِنْ نُزْرِ ♦♦ وَنَهْرُهَا العَذْبُ فَيَاضٌ وَمَلَانُ

(1) تماما كما يستغيث اليوم شعب فلسطين في محنته، فلا يغيثه أحد.

قَوَاعِدُ كُنَّ أَرْكَانَ الْبِلَادِ فَمَا ♦♦ عَسَى الْبَقَاءُ، إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةَ الْبَيْضَاءَ مِنْ أَسْفٍ ♦♦ كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيْمَانُ
عَلَى دِيَارِ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَةً ♦♦ قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالْكَفْرِ عُمَرَانُ
كَمْ يَسْتَعِيثُ بَيْنَا الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ ♦♦ قَتَلَى وَأَسْرَى فَمَا يَهْتَزُّ إِنْسَانُ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ ♦♦ وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانُ!؟
يَا مَنْ لِنِزْلَةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ ♦♦ أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرًا وَطُغْيَانًا
بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ ♦♦ وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عِبْدَانُ

كان هجوم الجيش الفرنسي على دمشق نكبة مؤلمة. وقد سجل
أحمد شوقي هذا العدوان الإجرامي في قصيدة رائعة.

يقول في مطلعها:

سَلَامٌ مِنْ صَبَا (بَرْدَى) أَرْقُ ♦♦ وَدَمْعٌ لَا يُكْفِكِفُ يَا دِمَشْقُ
وَمَعْنَرَةُ الْبِرَاعَةِ وَالْقَوَا فِي ♦♦ جَلَالُ الرَّزْءِ عَنْ وَصْفِ يَدِقُ

هي ذي فرنسا التي تفتخر بشعارات ثورتها (التاريخية)، تغزو
سوريا وتحتل دمشق، وتدوس مبادئ الحرية والكرامة، وتصبح دولة
إرهابية تستعبد الشعوب الضعيفة. ويسترسل شوقي في وصف الأحداث
المؤلمة فيقول:

لِحَاهَا اللَّهُ أَنْبَاءَ تَوَالَتُ ♦♦ عَلَى سَمْعِ الْوَلِيِّ بِمَا يَشُقُّ
يُقْصَلُهَا إِلَى الدُّنْيَا بَرِيدٌ ♦♦ وَيُجْمَلُهَا إِلَى الْآفَاقِ بَرَقُ
تَكَادُ لِرُوعَةِ الْأَحْدَاثِ فِيهَا ♦♦ تُخَالُ مِنَ الْخُرَافَةِ وَهِيَ صِدْقُ
وَقِيلَ مَعَالِمُ التَّارِيخِ دُكَّتْ ♦♦ وَقِيلَ أَصَابَهَا تَلْفٌ وَحَرَقُ
وَلِلْمُسْتَعْمَرِينَ وَإِنْ أَلَانُوا ♦♦ قُلُوبٌ كَالْحِجَارَةِ لَا تَرَقُ

دَمُ الثُّوَارِ تَعْرِفُهُ فِرْنَسَا ♦♦ وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نَوْرٌ وَحَقُّ

يستغيث المسلمون اليوم، في فلسطين، وفي العراق، وفي الشيشان،
كما استغاثوا بالأمس القريب والبعيد في كوسوفو والبوسنة وغيرها، غير
أن صرخاتهم ظلت صيحات ضائعة في الصحراء القاحلة.

وأمامي قصيدة لمحمود غنيم تفيض بالحزن والأسى، على ما آلت
إليه حالة المسلمين من ضعف وهوان، ويتذكر أمجاد الإسلام الغابرة.

إليكم بعض ما جاء فيها:

إِنِّي تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى مُؤْرَقَةٌ

مَجْدًا تَلِيدًا بِأَيْدِينَا أَضْعَفَانَهُ

أَتَى اتَّجَهْتَ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي بَلَدِ

تَجْدُهُ كَالطَّيْرِ مَقْصُومًا جَنَاحَاهُ

كَمْ بِالْعِرَاقِ وَكَمْ بِالْهِنْدِ ذُو شَجْنِ

شَكَا فَرَدَّدَتْ الْأَهْرَامُ شَكْوَاهُ

بَنِي الْعُمُومَةِ إِنْ الْقَرْحُ مَسَّكُمْ

وَمَسَّنَا، نَحْنُ فِي الْأَلَامِ أَشْبَاهُ

يَا أَهْلَ يَثْرِبَ أَدْمَتْ مَقْتَلِي يَدُ

بَدْرِيَّةَ تَسْأَلُ الْمِصْرِيَّ جَنْدَوَاهُ

إلى أن يقول:

اللَّهُمَّ قَدْ أَصْبَحَتْ أَهْوَاؤُنَا شَيْعاً

فَامْتُنْ عَلَيْنَا بِرَاعِ أَنْتَ تَرْضَاهُ

رَاعٍ يَعِيدُ إِلَى الْإِسْلَامِ سَيْرَتَهُ

يُرَعَى بَنِيهِ، وَعَيْنَ اللَّهِ تَرَعَاهُ



الوطن

ميسون بنت بحدل فتاة بدوية تزوجها الخليفة معاوية. ولكنها بعد مدة سئمت من حياة القصر والمدينة، فقالت أبياتاً تعبر فيها عن حنينها إلى أهلها والديار التي ترعرعت بين أحضانها. وسمع معاوية قولها فطلقها وأعادها إلى قريتها. ومما قالت:

لبيتُ تخفقُ الأرواحُ فيه ♦♦ أحبُّ إليَّ من قصر مُنيبٍ،
ولبسُ عباءةٍ وتقرُّ عيني ♦♦ أحبُّ إليَّ من لبس الشفوفِ،
وأصوات الرياح بكل فجّ ♦♦ أحبُّ إليَّ من نقر الدفوفِ،
خشونة عيشتي في البدو أشهى ♦♦ إلى نفسي من العيش الطريفِ،
فما أبغي سوى وطني بديلاً ♦♦ فحسبي ذاك من وطن شريفِ

وما أكثر ما يتذكر المرء الأرض التي قضى فيها سنوات طفولته، فيحن إليها ويعود لتجديد الذكريات.

قال أحدهم:

حيناً إلى أرضٍ بها أخضر شاري ♦♦ وحلّت بها عني عقودُ الثمائمِ
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضه ♦♦ وأرعاهمُ للمرء حقُّ التقادمِ

ومن أجمل ما قيل في التعلق بالوطن والتغني بنعمه ومحاسنه، والتشوق إلى عهد الشباب والأصدقاء.

قول ابن الرومي:

ولي وطنٌ آليتُ أن لا أبيعهُ ♦♦ وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
عهدتُ به شرخَ الشبابِ ونعمةً ♦♦ كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
فقد ألفتُهُ النفسُ حتى كأنهُ ♦♦ لها جسدٌ لولاهُ غودرتُ هالكا
وحببَ أوطانَ الرجالِ إليهم ♦♦ مآربُ قضاها الشبابُ هُنالكَا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمُ ♦♦ عهدُ الصبا فيها فحنوا لذلكَا

أما أبو تمام فيتحدث عن الوطن الكبير من مصر إلى خراسان، ويرى أن المرء يمكن أن يجد حيثما حل وارتحل، أصدقاء وجيرانا وإخوانا في الدين واللغة والإنسانية:

تلقى بكل بلادٍ إن حلت بها ♦♦ أهلاً بأهل وجيرانا بجيرانِ
بالشام قومي وبغداد الهوى وأنا ♦♦ بالرقمتين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعتُ ♦♦ حتى تبلغني أقصى خراسانِ

الوطن، الأهل، الصحاب، الحب الأول، ذكريات الشباب.. جزء هام من حياة الإنسان، يحن إليها ويسعى إلى تجديدها كلما غاب عنها.

قال أحد الشعراء:

ألا يا حبّذا وطني وأهلي ♦♦ وصحبي حين يُذكر الصّحابُ
بلادٌ من غطّارفةٍ كرامٍ ♦♦ بهم خلاً تميمتي الشبابُ
وما عسلٌ ببارد ماءٍ مُزِنٍ ♦♦ على ظمأٍ لشاربه يُشابُ
بأشهى من لقاءكمُ إلينا ♦♦ فكيف لنا به، ومتى الإيابُ

وتعلق معروف الرصافي بوطنه، وبدد شمله في هواه، وهو ذا يشبه هذا الحب العميق بحب مجنون ليل فيقول:

وَلِي وَطَنٌ أَفْنَيْتُ عَمْرِي بِحُبِّهِ،
وَشَتَّتْتُ شَمْلِي فِي هَوَاهُ مُبَدِّدَا
ولم أرَ لي شَيْئاً عليه، وإِنَّمَا
عليّ لَهُ فِي الحُبِّ أَنْ أَتَشَدَّدَا
تَعَلَّقْتُهُ مِنْدُ الصَّبَا مُغْرَمَاً، كَمَا
تَعَلَّقَ لَيْلَى العَامِرِيُّ مُعَمَّدَا
وَسَيَّرْتُ فِيهِ الشَّعْرَ فَخْرَاً، فَطالَمَا
شَدَوْتُ بِهِ فِي مَحْفَلِ القَوْمِ مُنْشِدَا

ومن الشعراء الذين لم يفتأوا يذكرون الوطن، ولم يقصروا في وصفه وتمجيده والحنين إليه.

أحمد شوقي الذي يقول:

وَطَنِي لَوْ شَغَلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ ♦♦ نازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا يَا فُرَادٍ فِي سَلَسَبِيلٍ ♦♦ ظَمَأً لِّلسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسِ
شَهِدَ اللهُ لَمْ يَغِبْ عَن جُفُونِي ♦♦ شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَحُلْ حُسِّي

ويعبر عن عميق سروره بعودته إلى مصر بعد غياب طويل، ويشعر كأن العودة إلى الوطن عودة إلى عهد الشباب:

ويا وطني لقيتُك بعدَ يأسٍ ♦♦ كأني قد لقيتُ بكَ الشبابَا

ولو أُنِّي دُعيتُ، لَكُنْتُ ديني ♦♦ عليه أقابلُ الحَتَمَ المُجَابَا
أُديرُ إليك، قبلَ البيتِ، وجهي ♦♦ إذا فَهَتِ الشَّهَادَةَ والمَتَابَا!!

ومن جميل القول في حب الوطن، والاستعداد للتضحية في سبيله،
هذه الأبيات من قصيدة لمحمد العيد خليفة:

يَا مَوْطِنَا لِي خِصْبُهُ وَنَعِيمُهُ ♦♦ وَلَهُ هَوَايَ عَلَى المَدَى وَتَشْيُيعِي
مُصْطَافِي البَاهِي الظَّلِيلُ وَمَخْرِي ♦♦ الزَّاهِي وَمَشْتَايَ الجَمِيلُ وَمَرَّي
مَا زَالَ حُبُّكَ نَاشِئًا مُتْرَعِرًا ♦♦ فِي نَاشِئِي بِجَوَانِحِي مُتْرَعِرِ
أَقْسَمْتُ لَوْ خَيْرْتَنِي فِي مَصْرَعٍ ♦♦ مَا اخْتَرْتُ إِلَّا فِي سَبِيلِكَ مَصْرَعِي

إن مرور السنين لا يزيد الشاعر خليل مطران إلا حباً للوطن، وهو
يفدي بنفسه كل صخرة حطمتها قنابل الغزاة، ويقبل التراب الذي أهانه
الأعداء:

بلادي لا يزالُ هواك مني ♦♦ كما كان الهوى قبلَ الفطامِ
أقبلُ منك حيث رمى الأعداي ♦♦ رَغَاماً طَاهِراً دون الرِّغَامِ
وأفدى كلَّ جُلُودِ فتيتٍ ♦♦ وَهِيَ بِقنَابِلِ القومِ اللُّثَامِ

ونجد أن عدداً كبيراً من الشعراء (ومن الناس عموماً)، يرون أن
وطن الإنسان ليس بالضرورة هو ذلك المكان الذي ولد وترعرع فيه.
الوطن عندهم هو البلد الذي يجد فيه المرء الفرص المادية والراحة
النفسية. ويسود هذا التفكير خاصة أثناء توسع الإمبراطوريات
والممالك. كان المسلم يشعر أن بلاده تمتد من بغداد إلى القاهرة
والأندلس. ونجد اليوم أن الفرد في الاتحاد الأوروبي ينتمي إلى بلدان

عديدة. والواقع أن فكرة العولة لم تبدأ في عهدنا، بل كانت تتحقق كلما
سيطرت إمبراطورية (ولغتها واقتصادها وحضارتها) على عدد من
البلدان. وقد عبر العديد من الشعراء عن عدم ارتباطهم بالأرض التي
نشأوا فيها، إذا لم تتوفر لهم فيها وسائل العيش والحرية الفكرية، أو
لم تساعدهم الظروف على تحقيق طموحاتهم.

يقول أبو الفتح البستي في هذا المقام:

إذا نبا بكريم موطنٍ فله ♦♦ وراءه في بسيطِ الأرض أوطانُ
وإن نبت لك أوطانٌ نشأت بها ♦♦ فارحل فكل بلاد الله أوطانُ

ويقول إبراهيم الغزي في هذا المعنى:

ليست بأوطانك اللائي نشأت بها ♦♦ لكن ديارُ الذي تهواه أوطانُ
خيرُ المواطنِ ما للنفسِ فيه هوى ♦♦ سَمُّ الخياطِ مع الأحبابِ ميدانُ
كلُّ الديارِ، إذا فكرتَ، واحدةٌ ♦♦ مع الحبيبِ وكلُّ الناسِ إخوانُ

ونلاحظ أن عمر بن الوردى يعتبر الارتباط بوطن واحد عجزاً،
ولعله يقول ذلك لتشجيع الناس على السفر:

حُبُّكَ الأوطانِ عجزٌ ظاهرٌ ♦♦ فاغتربْ تلق عن الأهلِ بدَلُ

ويقول شاعر آخر، يبدو أنه لم يوفق في تحقيق أهدافه وطموحاته:

فما وطني أرض نبتُ بفضائلي

ولو كان فيها العيشُ أخضرَ أمرعَا

وما أبعد هذا من قول أحدهم:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزةً

وأهلي وإن ضنّوا عليّ كراماً

ومن الأبيات الجميلة والمشاعر الصادقة، التي بقيت للأسف منحصرة في مجال التمنيات، قول نسيب عريضة:

الأهلُ أهلي وأطلالُ الحمى وطني ♦♦ وساكنو الرّبعِ أترابي وأقراني
لا حدَّ عندي إن جارتُ حدودهم ♦♦ الشامُ شامي ومصرٌ أختُ لبنان
وفي فلسطينٍ أقداسي، وعاطفتي ♦♦ في نجدٍ، والقبلةُ السّمحاءُ
لي العروبةُ أمشي في محافلها ♦♦ من العراقِ إلى ما بعدَ وهرانِ

وفي انتظار أن تتحقق آمال الأجيال القادمة في جمع شمل الوطن العربي الكبير، علينا أن نواصل السعي، ونشد مع أمير الشعراء، أحمد شوقي:

بلادُ العُربِ أوطاني ♦♦ من الشامِ لبغدانِ
ومن مصرٍ إلى يمنٍ ♦♦ إلى نجدٍ فتطوانِ
فلا حدَّ يمزقنا ♦♦ ولا دينٌ يفرقنا
لسانُ الضادِ يجمعنا ♦♦ بغسانٍ وعَدنانِ



حول كفاح الأحرار

قال محمد مهدي الجواهري من قصيدة عنوانها "فلسطين الدامية" يحذر العرب من أن العدوان الصهيوني لن يقف عند فلسطين، بل سيلحق بها دمشق وبغداد والبيت الحرام (وهذا ما نشاهده اليوم)، في الوقت الذي تزداد فيه إسرائيل قوة وطغيانا، والعرب انقساماً وتخاذلاً.

يقول الجواهري:

لَو اسْتَطَعْتُ نَشَرْتُ الحُزْنَ والألماً

على فلسطينٍ مُسوداً لها علماً
فاضت جروحُ فلسطينٍ مُذكّرةً
جرحاً بأندلسٍ لآن ما التأمَا
سَيُلقونَ فلسطيناً بأندلسٍ
ويعطفونَ عليها البيّتَ والحرمَا
ويَسئَلونَكَ "بغداداً" وجِلّةً
ويتركونَكَ لا لحمأً ولا وضمماً



وله من قصيدة عنوانها "يا ابن الفراتين" يقول في مطلعها مؤكداً ضرورة الوحدة العربية:

دَعَوْا إِلَى الْوَحْدَةِ الْكُبْرَى فَقُلْتُ لَهُمْ:

نُذِرُ لِدَلِكِ مَنِّي الرُّوحُ وَالْجَسَدُ

هَاتُوا بِهَا عَلٌّ أَنْ يُسْتَصْلَحَ الْجَسَدُ

فَقَدْ تَقَطَّعَ عَنْ أَنْيَاطِهِ الْكَبِيدُ

ثم يتحدث عن الإرهاب الصهيوني في القدس وفلسطين، وعن الأساطيل التي تجوب الخليج العربي لاستغلال خيراته، وقمع ثورات الأحرار:

ففي "فلسطين" خَيْلُ الرَّجْسِ مُحْكَمَةٌ

رِبَاطُهَا، وَبِيئَتِ "الْمَقْدِسِ" الْوَتْدُ

وَقَدْ أَطَالَتْ سَيَاطُ الْبَغْيِ جِلْدَتَهَا

يُشَوِّى بِهَا جِلْدُ أَحْرَارٍ وَتُعْتَبَدُ

وَفِي الْخَلِيجِ أَسَاطِيلٌ مَدَاخِنُهَا

طَلَعُ الشَّيَاطِينِ عَلَى رَيْثٍ يُحْتَصَدُ

تَقِيءُ حَقْدًا عَلَى وَاعِينَ تَحْدُرُهُمْ

يَحْدُونَ صَرْخَةَ أَيْقَاطِ يَمَنْ رَقَدُوا

ويذكرنا شفيق الكمالي بأمجاد العرب وأيام عزهم .. من اليرموك إلى خيل المثى وصلاح الدين. لعله بذلك يحفز الهمم ويوقظ العزائم.

يقول الشاعر من قصيدته "يا شام منك ابتدأنا":

هَذَا التُّرَابُ صَلَاحُ الدِّينِ سَالَ بِهِ ❖❖ مُرْوَةٌ وَصَلَاحُ الدِّينِ سَالَ دِمَا

كَأَنَّ أَعْلَامَهُ وَالتُّارُ يَنْشُرُهَا ❖❖ أَرَى بِهَا الشَّرْقُ كُلَّ الشَّرْقِ مُحْتَدِمَا

أَرَى بِهَا خَالِدَ الْيَرْمُوكِ مُنْتَفِضًا ❖❖ وَأَلْتَقِي طَارِقًا فِيهَا وَمُعْتَصِمَا

وَتَسْتَطِيلُ فَالْقَى مَيْسُلُونَ بِهَا ❖❖ مَجْدٌ يُسَلِّمُ مَجْدًا بَعْدَهُ الْعَلَمَا

وَيَلْمُ مَنْ مَسَّ هَذِي الْأَرْضَ مُجْتَرِحًا ❖❖ عَلَى مُرْوَتِهَا أَوْدَسٌ مُنْتَقِمَا

عُودُ الْعُرُوبَةِ لَوْ هَبَّتْ مُزْعَزَعَةً ❖❖ عَلَيْهِ كُلُّ رِيَّاحِ الْأَرْضِ مَا انْعَجَمَا

وفي قصيدة عنوانها "يا بسمة اللوز": يذكر نجيب جمال الدين بالمصير المشترك للعالم العربي، وبالروابط العميقة التي تجمع الشعب العربي من الخليج إلى المحيط، ويبدى حزنه لما يسود البلدان العربية من خلافات وتفرق، يجعلها لقمة سائغة للعصابات الصهيونية. وإليك أبياتاً من القصيدة:

مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ فِي أَقْصَى الْخَلِيجِ إِلَى ❖❖ بَابِ الْمُحِيطِ .. وَأَهْلِي فُرْقَةً بَدَدُ

يَا طَيْفَ بَغْدَادَ إِنْ تَبْعُدْ فَتَحْنُ هُنَا ❖❖ نُعَانِقُ الشُّوقَ فِي أَطْيَافٍ مَنْ بَعْدُوا

وَالرَّافِدَانِ إِذَا فِي الشَّامِ مَا اتَّقَدَا ❖❖ فَهَلْ يُرْجَى لَدَى الْمَقْرُورَةِ الْوَقْدُ

أَجَّجَتْ نَارَ صُمُودٍ، بَعْدَ مَا بَرَدَتْ ❖❖ حُمَى الرَّمَادِ بِسَيْنَاءٍ وَقَدْ بَرَدُوا

إِنَّ الصُّمُودَ عَلَى الْأُورَاسِ دُوْ حَظَرٍ ❖❖ كَمَا بِمَكَّةَ أَكْرِمَ قَوْمَنَا نُجْدُ

كَمَا هُنَاكَ .. بَيْنَغَازِي وَبِرْقَتِهَا ❖❖ فَالْتَقْدُ بِيَقَى أَمِيرًا إِنْ هُمْ نَقَدُوا

مَشَوْا إِلَى الْقُدْسِ .. سَارُوا فِي جَنَازَتِهِمْ ❖❖ وَالنَّعْشُ لَوْ عَرَفُوا مَنْ فِيهِ لِاتَّأَدُوا

فِيهِ الضَّحَايَا عَلَى الْكُثْبَانِ نَائِمَةً ❖❖ فِيهِ الرَّمَادُ، وَفِيهِ طَيْفٌ مَنْ رَمَدُوا

ويتساءل عمر أبو ريشة كيف يتغاضى العرب عن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل، وكيف يستكتون على ما يلحق بهم من إهانات، ويسمعون نوح الثكالى وبكاء اليتامى، وكأنهم صمُّ بكمُّ، بل هم عن الرد عاجزون:

أَلِإِسْرَائِيلَ تَعْلُو رَايَةً ♦♦ فِي حِمَى الْمَهْدِ وَظِلِّ الْحَرَمِ
كَيْفَ أَغْضَيْتِ عَلَى الدُّلِّ وَكَمْ ♦♦ تَنْفُضِي عَنْكَ غُبَارَ التُّهُمِ
أَوْ مَا كُنْتَ إِذَا الْبَغْيُ اعْتَدَى ♦♦ مَوْجَةً مِنْ لَهَبٍ أَوْ مِنْ دَمٍ
فِيمَ أَقْدَمْتَ وَأَحْجَمْتَ وَكَمْ ♦♦ يَسْتَنْفِ الثَّأْرُ وَكَمْ تَنْتَقِمِي
اسْمَعِي نَوْحَ الْحَزَائِي وَاطْرَبِي ♦♦ وَأَنْظِرِي دَمْعَ الْيَتَامَى وَابْسِمِي

ويكذب معروف الرصافي دعوى الدول الغربية بأنها صديقة العرب، ويؤكد أن سياسة الغرب يناورون ويخادعون العرب لاستغلال ثرواتهم، وتمزيق شملهم؛ وأن ما يفتخرون به من مدنية وتقدم أصبح يستغل لإرهاب الضعفاء وابتزاز حقوقهم:

ولو أنصفتنا سياسة الغرب لاغدت

دمشق لها من سياسة الغرب أعوان
ورقت قلوب للعراق وأهلِهِ،
وأصفت إلى شكوى فلسطين آذان
ولكنهم رائت عليهم مطامع،
فأمسوا وهم صم عن الحق عميان
لقد قيل إن الغرب ذو مدنيّة،
فقلت: وهل معنى التمدين عدوان؟
وأبي فخار كائن في تمدن،

إذا لم يَقمُ في الغربِ للعدلِ ميزانُ؟

وفي آيات أخرى يحذر الرصافي من مكر سياسة الإنكليز، ويهاجم المعاهدات التي تبرم معهم، واصفاً إياها بأنها قيود يكبل القوى بها الضعيف:

وليس الإنجليز بمنقذينا ♦♦ وإن كُتبت لنا منهم عُهودُ
متى شفق القوى على ضعيف ♦♦ وكيف يُعاهد الخرفان سيدُ
ولكن نحن في يدهم أسارى ♦♦ وما كتبوه من عهد قيودُ

وللشاعر الجزائري مفدى زكريا قصائد عديدة، يهاجم فيها طغيان الدول الغربية، وما تسلطه من إرهاب وعدوان على الدول الضعيفة. وفي الأبيات التالية: (من قصيدة كتبها بمناسبة الذكرى السادسة للثورة الجزائرية) يرسل صرخة مدوية في وجه أمريكا، حاضنة الطغاة، ويهاجم الغرب معقل الظلم والإرهاب:

وفي أمريكا، للطغاة (حاضنة)

وفي أمريكا، تصرع القوة الحقا
وفي مذبح الأحلاف، تُزهقُ أنفسُ
وتُخنقُ أنفاسُ الشعوب به، خنقا
ويُعقد باسم العدل، للجور مجلسُ
ويُخرق باسم السلم ميثاقها، خرقا
إذا كان هذا الغرب، للظلم معقلا
فلا تعتبوا المظلوم، أن يقصد الشرقا!

وفي قصيدة أخرى عنوانها ((وقال الله..)) يتحدث فيها مفدى زكريا عن ثورة التحرير الجزائرية، جاء فيها:

وحرب، للكرامة في بلاد ..

مضت تفتكُ عزتها غلابا

وأوفدت الرصاص، ينوبُ عنها

يناقش غاصبَ الحقِّ الحسابا

فأيقظت القنابل من تعامى

وأسدل فوق ناظره نقابا

ويبدى مفدى زكريا حزنه وأسفه لما آلت إليه حالة العرب من تفرق وضعف، واكتفائهم بإصدار القرارات التي لا تردع الأعداء، ويحفضهم على اللجوء إلى القوة لأنها اللغة الوحيدة التي يفهمها المحتل:

ويح العروبة .. كم ديستُ قداستها!

وسامها الخلفُ، إفلاسا وخذلاننا!

وعاكفين على النُعمى .. يُهددهمُ

صفو الليالي .. وما رقوا لبلواننا

ناموا .. وفي الدار (إسرائيل) ترصدنا

وأغمضوا دون (إسرائيل) أجفاننا

وفي الجزائر، أشلاء ممرقة

راحت، عن العُرب، قُربانا، وُغفرانا

ذروا العواطف .. فالرشاشُ، يجهلها

(وسجدة السهو) لا تحيي ضحايانا

وصالحُ الدعوات .. النارُ تتكرها

ما لم تُقدّم لها، الأعمالُ بُرهانا

وليس تُجدي، قراراتُ على ورق

إن لم يكُ الفعل، إيضاحاً وتبياناً

والمغربُ الحرُّ، لا تخبو لواعجه

بالشرق، ما انفك مسحوراً، وولهاننا

عزُّ العروبة، في أعطاف ثورتنا

إن تُسندوا حُربنا، تُرفع لكم شاننا!



فأجابه بأنه يفضل حل المشاكل بالسلم. ولكن خصمه اختار سبيل الحرب فسقط سريعاً في الميدان:

دعاني أشبُّ الحرب بيني وبينه ♦♦ فقلتُ له لا بل هَلُمَّ إلى السِّلْمِ
وياك والحرب التي لا أديمها ♦♦ صحيحٌ وما تفكُّ تأتي على الرغمِ
فإن يظفر الحزبُ الذي أنتَ منهمُ ♦♦ وينقلبوا ملءَ الأكفِّ من الغُفْمِ
فلا بُدَّ من قتلى لعلك فيهمُ ♦♦ والا فجرحٌ لا يكون على العظمِ

وما كل الناس يتحملون قساوة العنف، وأهوال الحرب إذا ترك لهم الاختيار. وفي الأبيات التالية يوضح شاعر رأيه بصراحة:

بأنتُ تُسَخِّفُنِي هِنْدٌ وقد عَلِمْتَ ♦♦ أنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا العَظَبُ
يا هِنْدُ لا والذي حَجَّ الحَجِيجُ لَهُ ♦♦ ما يَشْتَهِي المَوْتَ عِنْدِي من له أَدَبُ
للحَرْبِ قومٌ أضلَّ اللهُ سَعِيهِمْ ♦♦ إذا دَعَتْهُمْ إلى أهوالها وتُبُوا
ولستُ منهم ولا أرضى فعَالَهُمْ ♦♦ ما القَتْلُ يُعْجِبُنِي منهم ولا السِّلْبُ

طائرات، مدرعات، نيران ودخان، أنين، موتى، أيتام، تكالى، هذه بعض صور الحرب ونتائجها.

يقول عبدالمعين الملوحي:

وتَهْوِي القَنَابِلُ، مِن كُلِّ صَوْبٍ، ♦♦ تَدُكُ الثَّلَالُ وتَطْوِي الجِبَالَ
وَجَاءتْ مُدْرَعَةٌ إِثْرَ أُخْرَى ♦♦ فَتَرْمِي يَمِينًا، وَتَرْمِي شِمَالًا
وَحَامَتِ عَلَى "المَفْرِقِ" الطَّائِرَاتُ ♦♦ تَرُوحُ خِفَافًا، وَتَغْدُو ثِقَالًا
وَيَكْسُو الدُّخَانُ السَّمَاءَ سَوَادًا ♦♦ يَمُدُّ حِبَالًا، وَيُرْخِي حِبَالًا
وَزَمَجَرَةُ الهَوْلِ تَخْفَتُ حِينًا ♦♦ فَيَعْلُو الأَنِينُ، وَحِينًا تَعَالَى

الحرب⁽¹⁾

كثيراً ما تغرى الحرب في بدايتها رجالاً يسيئون تقدير عواقبها، ولكن عندما تستعر نيرانها ويشتدُّ أوارها، وتسيل الدماء، وتتناثر الأشلاء، وتتراكم الجثث، وتحرق المنازل، وتبكي الأرامل واليتامى .. تظهر عواقبها الوخيمة.

يقول عمرو بن معد يكرب:

الحربُ أَوَّلُ ما تُكونُ فِتْيَةً ♦♦ تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهُولِ
حَتَّى إِذَا اسْتَعْرَتْ وَشَبَّ ضَرَامُهَا ♦♦ عَادتْ عَجُوزًا غَيْرِذَاتِ حَلِيلِ
شَمِطَاءَ جَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَكَرَّتْ ♦♦ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ والتَّقْبِيلِ

ويقول زهير بن أبي سلمى، من معلقته، في هذا المعنى:

وَمَا الحَرْبُ إِلَّا ما عَلِمْتُمْ وَدَقْتُمْ ♦♦ وَمَا هُوَ عِنهَا بِالحَدِيثِ المُرْجَمِ
مَتَى تَبْعَتْهُمَا تَبْعَتْهُمَا دَمِيمَةً ♦♦ وَتَضْرَى إِذَا ضَرَيْتُمُوهَا فَتَضْرِمِ
فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا ♦♦ وَتَلْقَحُ كَشَافًا ثُمَّ تَنْجُ فَتُنْشِمِ

ويذكر جدل الطعان في الأبيات التالية أن رجلاً دعاه إلى الحرب،

(1) هذا الموضوع لا يشمل حروب التحرير والدفاع عن الوطن.

ويتعجب الجواهري من منطق الحرب الأخرق الذي يلجأ إليه الأشرار، فيشعلونها شعواء تحصد الأرواح، وتريق دماء الأبرياء ..

يقول الشاعر من قصيدة عنوانها: ((أنشودة السلام)) ومطلعها:

عَجِبْتُ لِلْحَرْبِ بَلْهَاءَ، وَمَنْطِقُهَا

إِنْ أغمَضْتَ أو أَبَأْتِ - مَنْطِقُ هَدْرُ

ويصف دعاة الحرب فيقول:

الشَّارِبُونَ دِمَاءَ النَّاسِ مَا بَدَلُوا

مِنْهَا عَلَى الشَّهْوَةِ الدُّنْيَا، وَمَا ادَّخَرُوا

وَالنَّائِمُونَ عَلَى أُنَاتِ ثَاكِلَةٍ

وَالهَانِثُونَ إِذَا مَا اسْتَحْصِدَ الْبَشْرُ

نَابَ مِنَ الْوَحْشِ مَسْعُورًا أَطِيحَ بِهِ

وَفِي الْبِرَائِنِ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ ظَفُرُ

((1914: نحن في لبنان)) قصيدة لبشارة الخوري، يتمنى في مطلعها أن يعيش في كهف حتى تنتهي ويلات الحرب. ثم يصف القنابل التي تأتي من السماء ومن البحر، فتحصد الجحافل وتكد الجبال .. ويتحدث عن الغاز المميت، فيقول:

يَأْخُذُ الْفِيَأُ قَ إِذْ يُبْكُهُ

وَلَقَدْ يَأْخُذُهُ بِالْخَبَلِ

وَلَقَدْ يَنْسَابُ فِي أَنْفَاسِهِ

مِثْلَهُمَا انْسَابَ دَمٍ فِي مَقْصَلِ

وَلَقَدْ يَنْتَرِكُهُ ذَا صَمَمٍ

وَلَقَدْ يَنْتَرِكُهُ ذَا شَلَلٍ

عُدَدٌ، كَأَنَّتِ لِي شَفِي عَالاً

صَارُوا لَأَخِي تَلَاقِ الْعَالِ ...

ويتساءل إيليا أبو ماضي كيف يفتك الجندي بأخيه الجندي، وليتهم يعرفون أن الزعماء والملوك يستغلونهم للمحافظة على مراكزهم وتيجانهم، ويلجأون إلى استغلال الطائفية أو الأديان لنشر الشقاق والتفرقة بين الإخوان:

يا صَاحِبِي لَيْسَ الْوَعَى مِنْ مَذْهَبِي ❖ ❖ هَاتِيكَ وَسُوسَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ

فَالنَّاسُ إِخْوَانٌ وَلَيْسَ مِنَ النَّهْيِ ❖ ❖ أَنْ يَفْتِكَ الْإِخْوَانُ بِالْإِخْوَانِ

لَوْ تَعَقَّلَ الْأَجْنَادُ أَنْ مَلُوكَهَا ❖ ❖ أَعْدَاؤُهَا انْقَلَبَتْ عَلَى التَّيْجَانِ

قَوْمٌ إِذَا شَاؤُوا الصُّعُودَ لِمَطْلَبِي ❖ ❖ تَخَذُوا مَرَاقِيهِمْ مِنَ الْأَدْيَانِ

لقد جنى التمدن على الإنسان، كانت الحرب بالعصى، فأصبحت بالقنابل، وجنى الشيوخ على الشباب، والراعي على الرعية، وأصبح القتل يُبرر بحجة أنه سنة العمران، ومن يقتل شخصاً واحداً يعتبر مجرماً، ومن يفنى شعباً كاملاً يعتبر فاتحاً عظيماً، هذا ما يشير إليه إيليا أبو ماضي في الأبيات التالية:

حَرْبٌ أَدْلُ بِهَا التَّمَدُّنُ أَهْلُهُ ❖❖ وَجَنَى الشُّيُوعُ بِهَا عَلَى الشُّبَّانِ
 سَحَقَ الْقَوِيُّ بِهَا الضَّعِيفَ وَدَاسَهُ ❖❖ وَمَشَى عَلَى أَرْضِ مِنَ الْأَبْدَانِ
 بِيئَسَ الْوَعَى يَجْنِي الْجُنُودُ حَتُوفَهُمْ ❖❖ فِي سَاحِهَا وَالْفَخْرُ لِلتَّيْجَانِ
 مَا أَقْبَحَ الْإِنْسَانَ يَقْتُلُ جَارَهُ ❖❖ وَيَقُولُ هَذَا سُنَّةُ الْعِمْرَانِ
 بَلِي الزَّمَانُ وَأَنْتَ مِثْلَكَ قَبْلَهُ ❖❖ يَا شِرْعَةً قَدْ سَنَّهَا الْجِدَّانِ
 فَالْقَاتِلُ الْآلَافِ غَازٍ فَاتِحٌ ❖❖ وَالْقَاتِلُ الْجَانِي أَثِيمٌ جَانِ
 لَا حَقَّ إِلَّا مَا تُؤَيِّدُهُ الظُّبَى ❖❖ مَا دَامَ حُبُّ الظُّلْمِ فِي الْإِنْسَانِ



الدنيا

وصف بعض الشعراء الدنيا بأنها ظل زائل، ثوب مستعار، عروس مخادعة، اليوم فتاة لطيفة وغداً عجوز عبوس؛ وبأنها مومس، درب محفوف بالأشواك، بحر لا تسمح أمواجه لمراكبنا أن تستقر، فندق يمر به الزائرون، ليلة عرس، حلم خادع ثم نستيقظ ... إلخ.

وهذا أبو العتاهية يشكو حظه فيها فيقول:

نبغي من الدنيا حظاً فتزيدنا ❖❖ فقراً، ونطلب أن نصحَّ فتمرضنا

ويرى ابن الرومي أن صرخة الطفل عند ولادته تؤذن بما سيواجه من مشاكل الحياة:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ❖❖ يكون بكاء الطفل ساعة يولد
 وإلا فما يبكيه منها وإنها ❖❖ لأفسح مما كان فيه وأرغد
 إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ❖❖ بما سوف يلقي من أذاها يهدد

والدنيا لذة وألم، لقاء وفراق، حب وكرهية، هكذا جرت سنة الحياة كما يراها المتنبى:

على ذا مضى النَّاسُ اجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ ❖❖ وَمِيتٌ وَمَوْلُودٌ وَقَالَ وَوَامِقُ

ويشبهه أبو العلاء المعري الدنيا بالأم، ولو كانت زوجة لطلقها:

يا أمّ دفر رعاك الله والدة ♦♦ منك الإضاعة والتفريط والسرف
لو أنك العرس أوقعت الطلاق بها ♦♦ لكنك الأم هل لي عنك منصرف

ويضيف المعري: ما لكم تزعمون أنكم تكرهونها، وأنتم لها عاشقون
وبمباهجها متيمون:

وكلكم ييدي لدنياه بغضة ♦♦ على أنه يخفي بها كمد الصب

أما الدنيا دنيئة وأبناؤها لؤماء أو باش، هكذا يأتي هجوم المعري
صريحاً لا غبار عليه:

خسيت يا أمنا الدنيا، فأف لنا ♦♦ بنو الخسيصة، أو باش أخساء
يموج بحرك والأهراء غالبية ♦♦ لراكبيه فهل للسفن إرساء

ويقول الحريري إنها:

دار متى ما أضحكت في يومها ♦♦ أبكت غداً تباً لها من دار

وليست نظرة ابن نباتة السعدي أقل تشاؤماً، إنها مثل المرأة
الحمقاء الخرقاء تنقض ما تسج، وتسلب ما تمنح:

هي الخرقاء تنقض بعد نسج

فما فيها لحي من فلاح

يؤول بها الشباب إلى مشيب

ويسلمه الغدو إلى الروح

والدنيا عند ابن عبد ربه مثل الشجرة تخضر أوراقها حيناً وتجف

تارة؛ عيون تدمع، وعيون مرحة مبتهجة:

ألاً، إنما الدنيا غضارة أيكة

إذا اخضر منها جانب جف جانب

فكم أسخنت بالأمس عيناً قريرة

وقرت عيون دمعها اليوم ساكب

وعثرت على قصيدة رائعة لأبي الحسن محمد بن خلف البصري

تتضمن نصائح واقعية. فيما يلي جزء منها:

ترى الدنيا وزهرتها فتصبو ♦♦ ولا يخلو من الشهوات قلب

ويعتب بعضنا بعضاً ولولا ♦♦ تعذر حاجة ما كان عتب

فضول العيش أكثرها هموم ♦♦ وأكثر ما يضرك ما تحب

إذا اتفق القليل وفيه سلم ♦♦ فلا ترد الكثير وفيه حرب

ولأمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة مشهورة (تغنيها أم كلثوم)

عنوانها "ذكرى المولد" يشبه فيها الدنيا في تقلباتها بالأفعى التي تغير

ثوبها، وفي كونها لا تؤمن حتى وإن بدت هادئة هاجعة:

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ♦♦ تبدل كل أونة إهاباً

وأن الرقطة أيقظ هاجعات ♦♦ وأترع في ظلال السلم ناباً

ومن عجب تشيب عاشقياً ♦♦ وتغنيهم وما برحت كعاباً

فمن يغتر بالدنيا فإني ♦♦ لبست بها فأبليت الثياباً

لها ضحك القيان إلى غبي ♦♦ ولي ضحك اللبيب إذا تغابى



القسم الثاني معتك الحياة

61	* المال
67	* الحب
76	* اللقاء والفرق
78	* الزواج والطلاق
84	* حول المرأة
90	* الأهل والأقارب
95	* الطفل
98	* الجار
100	* العيد
103	* رُغْبًا
106	* الحسب والنسب
109	* الحزم والطموح
113	* الآمال والأمني
116	* الشباب وما بعده
123	* الميراث

القسم الثالث مسرح الحياة : البيئة

127	* الأرض
-----	---------

فهرس

9	** مقدمة
---	----------

القسم الأول بين المتعة والسعادة

17	* ملذات الحياة
23	* الأنس واللهو
26	* مغنيات
28	* الخمر
32	* التدخين
34	* القهوة
36	* القبلة
40	* الجمال الأسود
43	* نوادر
47	* المزاح
49	* ذكريات وحنين
53	* التفاؤل والتشاؤم
56	* السعادة

رقم الصفحة	الموضوع
178	* القضاء والقدر
181	* الطبع والتطبع
185	* الحظ
188	* الحق
191	* الظلم
194	* القوة
205	* المظهر والجوهر
209	* العقل
213	* التكيف
215	* الهموم
218	* الحيرة

القسم الخامس موضوعات متنوعة

225	* العام الجديد
229	* العلم والمعلم
233	* الطبيب
236	* الصديق والعدو
241	* الشجاعة
244	* الحلم والجهل
247	* الكذب
250	* الكلام والصمت

رقم الصفحة	الموضوع
129	* سحابة
130	* الربيع
133	* الرياض والبساتين
135	* الشجرة
138	* الأنهار
142	* البركة
145	* الشمس
147	* الليل
150	* الدودة والبلبل
151	* مملكة النحل
153	* الحمام
156	* الديك
157	* شياه (الشابي)
158	* الكلب
159	* الذئب
162	* الأسد
164	* الفرس

القسم الرابع بين الممدّ والجزر

169	* حول الإنسان
173	* الخير والشر



سلسلة
الثقافة
2

أبو
العزيز بن
العزيز

الشعر والحياة

كلمات لتعش الحياة

الإنسان والقلق

نحات من الذهب العاصي

حماه الإبداع
إبراهيم - القصة - تاريخ

الرحلة

إعداد: محمد بن عبد الله



تُبذَة عن المؤلف

ولد الأزرقى بن علو في الجزائر .

وحصل على .

• ليسانس في العلوم الاجتماعية من جامعة بنغازي (1961) .

• ماجستير في العلاقات الدولية من الجامعة الأمريكية بواشنطن

(1966) .

• عضو البعثة الدبلوماسية الجزائرية في واشنطن (1964 - 1971) .

• مراسل جريدة الشعب الجزائرية في واشنطن (1972 - 1975) .

• موظف بمنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة في روما منذ

(1979) .

• من مؤلفاته :

• نحات من الأدب العائلي .

• حصاد الأيام .

• الرحلة .

• الإنسان والقلق .

• كلمات لتعش الحياة .

رقم الصفحة

الموضوع

254	-----	* حفظ السرّ
256	-----	* الطين ... يتيه
258	-----	* الصغير والكبير
260	-----	* السفر
264	-----	* مدن بكاهها الشعراء
270	-----	* الوطن
276	-----	* حول كفاح الأحرار
283	-----	* الحرب
288	-----	* الدنيا

